

د. علي صالح الخلاقي
فنون العمارة الحجرية
في يافع

د.علي صالح الخُلاقي

فنون العمَارة الحجَرية في يافع

بسم الله الرحمن الرحيم

إصدارات جامعة عدن

WWW. Adenuniversity.edu.ye
E-mail: Adenuniversity@y.net.ye

رقم الايداع في المكتبة الوطنية – عدن 1095 لعام 2015م.

دار جامعة عدن للطباعة والنشر. الطبعة الأولى 2015م.

National Library Aden، No. 1095/2015.

Aden University Printing and Publishing House، 1st Edition 2015.

تصميم الغلاف: وليد القعيطي (الوليد للطباعة والاعلان)



الجمهورية اليمنية . عدن . مدينة الشعب . ص . ب . 11016 ☎ 360087 – 360135
Fax (+9672) 360701 E-mail: unipress@y.net.ye (+967 2) 360701:فاكس
R. O. YEMEN. ADEN. MADINAT AL – SHAAB P . O . BOX 11016 ☐ 360087-360135

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

انطلاقاً من قول رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" يلزمني الوفاء والعرفان بالجميل أن أتقدم بجزيل الشكر وخالص الامتنان للصديقين العزيزين: الأخ عبد الحافظ بن عوض الصلاحي، الذي ينتمي إلى معلمي البناء اليافعي المشهورين (آل بن صلاح) وعمل في حرفة البناء قبل أن يصبح من رجال الأعمال الناجحين، والأخ صالح حسين صالح القاضي الخلاقي (أبو إبراهيم)، على دعمهما الذي يسّر صدور الكتاب بهذا الشكل الجميل والملون.

والشكر موصول لكل من التقيتهم أو جلست معهم من معلمي البناء من آل بن صلاح وغيرهم من المهتمين أثناء جمع مادة الكتاب أو التحقق والتدقيق في مفرادت البناء، ولكل من مدّني ببعض الصور الجميلة، إلى جانب ما التقطته بعدستي في كثير من مناطق يافع، وأسأل الله أن يجزي الجميع عني خير الجزاء.

المؤلف

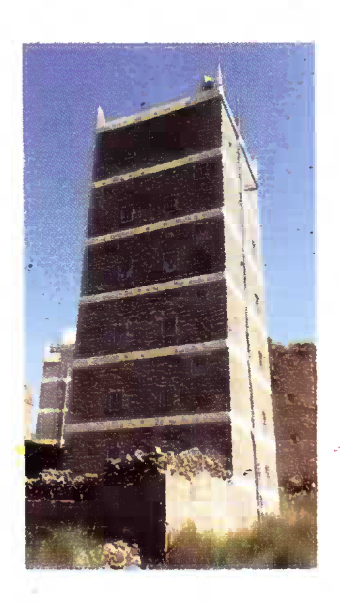




منظر عام لمدينة القارة- عاصمة السلطنة العفيفية

ناطِحَاتُ سَحَابٍ مِنْ حَجَر

(فخراً بقصور يافع المترفعة وناطحات السحاب الحجرية الفريدة في العالم)



سَاسُ بيتي .. حَجَر

رُكْنُ بيتي ..حَجَر

سَقْفُ بيتي ..حَجَر

و(تَشَارِيْفُ) بيتي ..حجر

كلُّ بيتي حجر في حجر

صخرةٌ فوق صخر

نُحتت من صميم الجبل بالبَصَر

بالعَضَد و(الفَرَاص) والزُّبَر

ثُبتت بالعِرَاص ونَمَت كالدُّرر

وغَدَت ناطحاتِ سحاب مِن حجر

ولها في عَنَانِ السَّماء مُستقر

ولها منزلٌ يافعٌ في قلوب البشر[1]

إنها حصننا.. قصرنا.. والمقر

وأنا الحِميَريُّ بها أفتخر

علي صالح الخلاقي

---

[1] - من وحي البيت الشهير للمتنبي الذي يقول فيه:" لك يا منازل في القلوب منازل". وهو ما يحق قوله في الطراز المعماري اليافعي الفريد في العالم.





منظران لأجزاء من مدينة خلاقة

مدخل تمهيدي

أهمية دراسة نمط العمارة اليافعية الفريدة

البناء من أقدم الحِرَف التي عرفها الإنسان وقادته إليها حاجته الضرورية لمسكن يأويه ويقيه عوادي الدهر وتقلبات الحر والقر، ويجعله في مأمن من المخاطر المختلفة، ولهذا امتن الله على عباده وعدها عليهم من نِعَمِه حيث هداهم إلى اتخاذ المساكن فقال عز من قائل:(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) [النَّحل: 81]

ويُعرِّف ابن خلدون البناء بقوله:" صناعة البناء .. هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان في المدن. وذلك أن الإنسان لما جُبِل عليه من الفكر في عواقب أحواله، لا بد له أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها"[1].

ومنذ القدم والإنسان يتفاعل مع بيئته معتمداً على قدراته الشخصية لتطوير تقنيات وتكنولوجيا لتلبية حاجاته المختلفة. وكان هذا التفاعل مصحوباً دائماً باتزان نفسي داخلي مع الطبيعة، بحيث أدى منذ البداية إلى تناغم بين البيئة وحياة الإنسان. وكان كل ما يصنعه الإنسان طبيعياً لأن المواد التي كان يصنع منها هي المواد المتوافرة في بيئة الطبيعة[2].

وتعد العمارة من أهم سمات الثقافة المادية للإنسان، وتحتل مكانة هامة في تطور المجتمع البشري، وفي حضارات الشعوب والأمم المزدهرة، التي نجد التعبير الصادق عنها فيما خلفته من آثار عمرانية باقية تدل على ذلك المستوى من الرقي الحضاري الذي بلغته.

ولا شك أن الحاضر هو امتداد للماضي، وأن ما أبدعه الإنسان القديم، وما توصل إليه من أساليب البناء وهندسة العمائر بمختلف طرزها، وما ابتكره من طرق لتخطيط المدن والقرى وتحصيناتها، وما صنعته يداه من أشكال الفنون،

---

[1] - تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون: دار احياء التراث العربي بيروت، ط4: 406/1.

[2] - الطاقات الطبيعية والعمارة المحلية، حسن فتحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1988م: ص25.

تبقى مصدر إلهام لمعماري وفناني العصور اللاحقة. ولا يعني ذلك أن يتوقف دور الإنسان عند هذا الحد، بل إن لكل عصر مبدعيه، الذين يتركون بصماتهم واضحة في مجال العمارة والفنون.

ولظهور العمارة وفن النحت والزخرف، لا بد من وجود أحجار صالحة للبناء أو للنحت والحفر، حتى يكون في إمكان المعمار أو النحات تحويلها إلى أبنية. أما الأرض السهلة التي لا حجر طبيعي فيها فلا يمكن أن يظهر فيها بناء أو فن إلا إذا كانت قريبة من مواطن الحجر أو من مواطن الحضارة حيث تستوردها عندئذ من تلك الأماكن. لذا نجد الفن الجاهلي قد تركز وانحصر وبرز في العربية الغربية وفي العربية الجنوبية وفي المواضع القريبة من مواضع الحجر ومن أهل المدر في الغالب[1].

ومما لا شك فيه أن العمارة اليافعية الفريدة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ولها امتدادها المرتبط بالحضارة الحِمْيَرية المزدهرة، خاصة إذا ما عرفنا أن يافع، هي قلب المنطقة المعروفة تاريخيا بـ(سرو حِمْيَر)، وهي منطقة جبلية توجد فيها مختلف أنواع الأحجار الصالحة للبناء وللنحت، ولهذا شيّد اليافعيون بفضل مهاراتهم الكثير من الدور والقصور والسدود وغيرها من المباني العامة، وما زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا كشاهد على حضارة عريقة. وما زالوا حتى اليوم يبنون بيوتهم وقصورهم الحجرية المرتفعة السامقة، كما كان يفعل أسلافهم منذ غابر الزمن، وما كان بوسعهم ذلك لولا وجود المواد الصالحة للبناء، التي تستطيع البقاء ومقاومة الطبيعة أمدًا طويلاً. وقد ساعدت طبيعة المنطقة الجبلية في نحت الحجر وقطعه وصقله وتكييفه بالشكل المطلوب، لتشيد به الأبنية الضخمة المؤلفة من عدة طوابق والتي تقاوم بشموخها صروف الدهر، وتظل مصدر فخر واعتزاز كبيرين بحضارة تليدة، تتجدد على أرض الواقع، رغم مخاطر الحداثة التي بدأت تهدد ذلك النمط المعماري الأصيل.

وتتميز يافع بالحياة الحضرية المستقرة، فاليافعيون يبنون بيوتهم أو حصونهم المؤلفة من عدة أدوار حجرية ويزخرفونها بالنقوش الداخلية والخارجية، ولهم أعرافهم التي تمثل قوانين ملزمة، وعاداتهم وتقاليدهم تحدد نمط سلوكهم وحياتهم وعلاقتهم وتعلقهم بأرضهم التي نحتوا في بطون جبالها ومنحدراتها

---

[1] - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د.جواد علي، دار الساقي، ط4، 2001م:5/15-6.

مدرجاتهم الزراعية وحفروا في صميمها الصخري السدود والمواجل لحفظ المياه، ولهم نمطهم المعماري المميز والفريد في الجزيرة العربية والعالم أجمع.

وما يُدهش الزائر ليافع فرادة العمارة وروعة أسلوب البناء وارتفاع البنايات الحجرية الضخمة بما فيها من زخارف ونقوش وطراز معماري خاص لا مثيل له، وهذه الثروة المعمارية هي دون شك محصلة تراكمية لحضارة حِمْيَر العريقة التي ما زالت شواهدها باقية في الكثير من الخرائب التي تعود إلى قرون طويلة، وقد حافظ اليافعيون على تقاليدهم المعمارية حتى اليوم في طراز أبنيتهم الرائعة، وسبقوا الأمريكان في تشييد حصونهم وبناياتهم الضخمة ولذلك استحقوا وبجدارة أن يُطلق على بيوتهم تلك(ناطحات السحاب الحجرية) والتي شيدت بطرق يدوية، حجر فوق حجر، وبلغت الذروة في روعة البناء . ويصح فيهم وفي عمرانهم المتميز قول الشاعر:

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فَبألسنِ البنيان
إن البناء أذا تعاظم شأنه	أضحى يَدُلُّ على عظيم الشأن

ومن نافل القول أن دراسة هذا النمط المعماري الفريد والتعرف على مفردات البناء وفنونها في مراحلها المختلفة فيه فائدة كبيرة في تكوين فكرة عن البناء والعمران في الحضارة العربية الجنوبية، خاصة وإننا نجد في هذا البناء عناصر عديدة لها امتدادها الحي بتلك الحضارات التي ما تزال شواهدها باقية في المعمار القائم وفي خرائب وأطلال القرى القديمة.

وللأسف الشديد أن الكثير من الأبنية القديمة جداً قد تهدمت بفعل عوامل الاهمال أو بسبب اعتداء الإنسان بجهله عليها وأخذ حجارتها لبناء منازل جديدة أو في تشييد جدران أحواش واسطبلات أو ملحقات منزلية أخرى. ويزداد الأمر خطورة حين يتم الاعتداء بوَعي أو بدونه على الآثار القديمة، ففي يافع توجد عشرات المواقع أو الخِرَب الأثرية التي تدل على أن الحياة والحضارة موغلة فيها، وكذا المقابر القديمة التي تعود إلى ما قبل عصر الإسلام، ووجود الكثير من النقوش التي اندثر معظمها أو عُبث بها أو نُهبت على أيدي لصوص الآثار والنقوش، وبعض هذه النقوش تم سحب أحجارها واستخدمت في واجهات بيوت

بعض المواطنين عند بنائها، بسبب الجهل وانعدام الوعي بقيمتها التاريخية، مما يحتم علينا الاهتمام بما تبقى منها.

ففي أهم المواقع الأثرية المكتشفة خربة (هديم وديم) في قطنان – الحد، التي أكتشفت بالصدفة مطلع الثمانينات من القرن الماضي أثناء حفر ونبش المواطنين لأحجارها بغرض الاستفادة منها في البناء. أخذ أبناء القرى المجاورة لهذه الخرائب، وبدون وعي منهم، أحجاراً كثيرة منها، لبناء منازلهم لتوفير ما يدفعونه لـ "النقاش" من جهة ولأنها أحجار مربعة وناعمة تتطابق ومقاييس البناء، وتوجد في قرية (قطنان) بيوتٌ كبيرة، مبنية بأحجار مربعة منحوتة أخذت من تلك الخربة، ووجد أحد المنازل، مكون من دور أرضي، ثلثه الأسفل مبني بأحجار مربعة منحوتة وناعمة، ولم يغير فيها شيء، وكذلك ثلث البيت الأعلى، وبين تلك الأحجار ثلاثة أحجار، في مواجهة الداخل إلى البيت، مكتوبة بخط مسند واضح، وأحد تلك الأحجار رخامي مربع ومتساوي الأضلاع[1].

وفي مسجد بني بكر القديم يوجد حجر به نقوش حِمْيَرية فوق مدخل بابه المشرف على فناء المسجد والمؤدي إلى قاعة الصلاة الداخلية التي تستند على دعامات حجرية يقال أنها أُخذت أيضاً من مواقع أثرية قديمة نجهل الآن مكانها، لقدم بناء المسجد الذي يعتبر من المساجد التاريخية، وربما يعود إلى العصور الإسلامية الأولى كما يُقال. وكذلك حال النقش الحجري الموجود في مسجد قرية (الديوان – لبعوس).

ومن هنا تأتي أهمية توثيق تراثنا المعماري وإبراز ما يميز عمارتنا التقليدية الأصيلة من تسلسل تاريخي لتطورها بشكل شمولي، ولا يقتصر الأمر على الشكل المعماري فقط، بل يجب أن يشمل الجانب البيئي والوظيفي أيضاً، وأن ننظر إلى هذه المسألة نظرة متكاملة فاحصة. ويتحتم التعاون والتنسيق بين المختصين والمسئولين وكذا المنظمات الدولية للعمل على الحد من إزالة الطابع الخاص والمميز لمدننا وقرانا التاريخية، وتشجيع ودعم استمرار البناء بالمواد المحلية.

---

[1]- آثار الحد في يافع: الأجداد يروون الحكايات والأحجار تنطق، مجلة "المسار" يوليو 1983م، العدد (6)، وأعيد نشره في: مقالات ودراسات عن يافع، انظر:ص 184-185.

واعترف إن هذا الكتاب ليس دراسة أكاديمية معمارية متخصصة، فهذا ليس من تخصصي، ومجال لم يَدُر في خَلَدِي أن اقتحمه. بيد أن ما حفزني إلى الخوض فيه هو تعلقي الشديد بالنمط المعماري الفريد الذي جذب بخصوصيته وفرادته الباحثين العرب والأجانب، فأحببت أن الفت الانتباه إلى هذه الكنوز المعمارية الفريدة المتأثرة بصورة جلية بتلك البيئة الجبلية التي كانت المصدر الأساس للمواد التي تم استخدامها في العمارة، فجاءت الدور والقصور سامقة الارتفاع، تحكي ما يقع عليه البصر في الأرض وما يمتد إليه الطرف في السماء.

ومما حفزني أيضا تلك الدراسة الوجيزة والرائدة حول (العمارة اليافعية) التي صدرت عام 1989م وخصني بنسخة منها مع الإهداء قبل بضع سنوات مؤلفها الصديق المهندس المعماري علي مسعد عثمان بن شجاع[1]، ودَوَّن فيها بحِرَفِيَّة ودراية المهندس المتخصص والمتمكن الخصائص المعمارية للبناء في يافع وأنواعه وطرقه المتبعة، وقرنها بالأرقام وبالرسوم الهندسية والصور الأيضاحية. إضافة إلى ذلك الاهتمام الكبير الذي حظي به المعمار اليافعي من لدُن المهندسة المعمارية سلمى سمر الدملوجي وتقييمها لأهميته وخصوصيته الفريدة التي لا نظير لها في العالم، وكنت قد أجريت معها لقاء بهذا الخصوص نشرته صحيفة (الأيام) في 13 مارس 2000م . وما تلى ذلك من جهود وأبحاث ودراسات ومقالات متناثرة للعديد من المهتمين كنت أتتبعها باهتمام. كما لا أنسى تلك الجلسات العديدة والمتكررة مع البنائين من آل بن صلاح الذين كنت ألجأ إليهم كثيرا لأيضاح مفردات البناء والغوص في خفاياه.

ويرمي هذا الكتاب إلى إبراز ملامح العمارة اليافعية وهويتها التقليدية وما تمثله من موروث فني أصيل وما تكتنزه من التفرد والجمال والألفة. وآثرت أن أحمل القارئ في رحلة شيقة إلى مرتفعات يافع، حيث تشمخ ناطحات السحاب الحجرية، وحيث العمارة الحجرية موحدة الطابع، متشابهة الروح، وإشراكه معي في ارتشاف المتعة التي أثملني رحيقها في عناصر ومواطن الجمال في هذا المعمار والغوص في مفرداته وتفاصيله وأسراره، وكذا لفت الانتباه لأهمية الحفاظ على هذا الطراز الأصيل والفريد والتحذير من المخاطر التي بدأت تهدده، قبل فوات الأوان، حتى لا نفقد هويتنا المعمارية وبالتالي تفقد البشرية جزءاً متميزا من تراثها العمراني وذاكرتها الحسية المشتركة.

[1] - العمارة في يافع، إعداد المهندس: علي مسعد عثمان، شعبة المعمار - الدائرة الهندسية ، وزارة الإنشاءات والإسكان، عدن، 1989م.(بحث مطبوع بالإستنسيل).



نقش حميري في قطعة حجر

فوق بوابة مسجد بني بكر

قطعة أثرية من الحجر الجيري مستطيله

الشكل عنصر معماري على واجهته

الاماميه نحت يمثل قنوات راسيه

وبجانبها خطان افقيان خلفيه القطعه

غير مهذبه (خربة هديم –الحد)



قطعه من الحجر شبه مثلثه عباره عن عنصر معماري على واجهتها نحت عباره عن مستطيلين بقايا نحت لابواب وهميه

(خربة هديم – الحد)



نقش حميري في حجرة

بجدار مسجد الفيض– الحد

الفصل الأول

يافع.. لمحة تاريخية وجغرافية

أولا: لمحة تاريخية:

عُرفت يافع في التاريخ القديم باسم "دهس" أو "دهسم" كما جاء في نقش النصر[1] الذي سجله "كرب آل وتر" في القرن السابع ق.م. وذكر فيه جبل العر و(هجر علت) وجبل ثمر ضمن المناطق التي احتلها في دهس(يافع) وهي مواضع ما تزال تحتفظ بنفس الأسماء إلى اليوم. ، وتدل الآثار التي تم العثور عليها في يافع على أنها عرفت النشاط الإنساني والحضاري في وقت مبكر من تاريخ اليمن القديم[2].

وتُنسب يافع، القبيلة والمنطقة، إلى يافع بن قاول بن زيد بن ناعتة بن شراحيل بن الحارث بن زيد بن يريم ذي رُعين الأكبر. ورغم اختلاف تسلسل وترتيب بعض الأسماء لدى النسابين، زيادة أو نقصاناً؛ إلاَّ أنهم يتفقون في نسب يافع إلى رُعين، وصولاً إلى حِمْيَر بن سبأ[3]. ويستفاد من النقوش ومن"صفة جزيرة العرب" للهَمَداني أن أرض حِمْيَر الأصل هي سَرْو حِمْيَر، وقلب سَرْو حِمْيَر هي بلاد يافع وهي تلك الجبال التي تؤلف سناد دلتا واي أَبيَنْ[4]. ويرى جواد علي المختص في

---

(1) ذكرت يافع باسم (دهس أو دهسم) في النقش RES. 3945 ، المعروف بنقش النصر.

(2) انظر: د.محمد عبدالقادر بافقيه ود. أحمد باطايع: نقوش من الحد، حولية ريدان، العدد الخامس، 1988، ص61-80. وكذا نقشان جديدان من الحد، ريدان، عدد 6، 1994م، ص 89-99. وكذا: د.أحمد باطايع: أهمية موقع هديم قطنان(هدو) في الحد من خلال المعطيات الأثرية والنقشية، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد 5، العدد 9، يناير-يونيو2002م، ص265-277.

3- تنسب يافع عند ابن الكلبي (ت 204هـ) إلى يافع بن يريم (ذو رعين، بطن عظيم) بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حِميَر بن سبأ (انظر: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي: نسب معد واليمن الكبير، الجزء الثاني، تحقيق: ناجي حسن، عالم الكتب- مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1988م، ص534-537). وعند الهمداني إلى يافع بن قاول بن زيد بن ناعتة بن شرحبيل بن الحارث بن زيد بن يَريم ذي رُعَيْن الأكبر بن سهل بن زيد الجمهور بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس(انظر:الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني: الإكليل، الجزء الثاني، حققه وعلق عليه:محمد بن علي الأكوع، القاهرة، 1966م، ص335-343).

4- الموسوعة اليمنية، إصدار مؤسسة العفيف الثقافية - صنعاء، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1/ 425.

تاريخ العرب قبل الإسلام أن يافع تشكل المسكن القديم للحِمْيَريين، وذلك قبل نزوحهم منها إلى مواطنهم الجديدة قبل القرن الأول قبل الميلاد [1].

وحينما بدأت الدعوة الإسلامية سارع اليمنيون إلى اعتناقها ونصرة الرسول ﷺ ودعوته الخالدة، وكان زُرعة بن سيف بن ذي يزن أول ملوك حِمْيَر إسلاماً وهو نجل الملك سيف بن ذي يزن وكان معه لما بَشَّرَ سيفُ عبد المطلبَ بن هاشم بالنبي محمد ﷺ، ثم صار زُرعة ملكاً لمخاليف ومناطق أبين والصعيد ويافع وغيرها من مناطق سرو حِمْيَر [2]. وجاء في السيرة النبوية أن النبي ﷺ كتب إلى زرعة بن ذي يزن: " إنّ مَالِكَ بْنَ مُرّةَ الرّهَاوِيّ قَدْ حَدّثَنِي أَنّك أَسْلَمْتَ مِنْ أَوّلِ حِمْيَر ، وَقَتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ فَأَبْشِرْ بِخَيْرٍ وَآمُرُك بِحِمْيَر خَيْرًا"[3].

وكانت قبيلة يافع من أهم القبائل الحِمْيَريّة اليمنية التي هبت لنداء الإسلام، فعندما كتب الخليفة أبوبكر الصديق إلى أهل اليمن لاستنفارهم للجهاد كان من أوائل من استجابوا لذلك ذي الكلاع الحِمْيَري، وقد كان قائد كتائب حِمْيَر، وكان معه فرسان ذي رُعين والكلاع ويافع الرُعينية؛ لأنهم قبائل مناطق حِمْيَر الرئيسية باليمن والتي كان ذو الكلاع قائدها[4]. وقد انضم اليافعيون إلى جيوش الفتح في عهد عمر بن الخطاب، بعد أن تشربوا مبادئ الإسلام مع إخوانهم اليمنيين وكانوا في طليعة الجيوش الإسلامية الفاتحة للشام ومصر.

وتتيح التراجم وأنباء فتوح الشام ومصر معرفة أن من الأذواء والبيوت الرئاسية الحِمْيَرية الذين كانوا مع ذي الكلاع الحِمْيَري لما قدم بكتائب ومواكب حِمْيَر إلى المدينة المنورة من قبيلة يافع الرعينية الحِمْيَرية: الصحابي مبرح بن شهاب اليافعي الرعيني، وحسان بن زياد اليافعي، والصحابي عمرو بن شعواء اليافعي، ودِرْع بن يشكر اليافعي. إلى جانب بقية قادة وقبائل بطون حِمْيَر من آل الصباح وآل ذي رعين وآل ذي ظليم والكلاع وآل ذي يزن [5].

1- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، الطبعة الثانية،1993م، 517/2.

2- يمانيون في موكب الرسول، محمد حسين الفرح، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة-صنعاء، 14025هـ-2004م. ج2،ص 15.

3- السيرة النبوية: ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِمْيَري البصري (ت 218هـ)، 588/2

4- يمانيون في موكب الرسول 25/2.

5- يمانيون في موكب الرسول، ج1،ص 224-225.(أورد مسعود بدلاً من شعواء وهو خطأ).

في ظل الدولة الاسلامية الموحدة قسمت اليمن إلى ثلاثة اقسام إدارية "مخاليف" وكانت يافع تنتمي إلى أكبر تلك المخاليف وهو مخلاف الجند الذي يضم تهامة وعدن وأبين أيضا.

وفي الفترة التي ضعفت فيها دولة الخلافة الإسلامية وشهد فيها اليمن ظهور عدد من الدول المستقلة لعبت يافع دوراً سياسياً مهماً في معظم تلك الدول ومنها دولة علي بن الفضل والدولة الرسولية والدولة الطاهرية. ومع تفكك ونهاية آخر تلك الدول (الطاهرية) ظهر نظام السلطنة، كقمة هرم للنظام القبلي التقليدي في يافع، ويبدو أنها كانت استمراراً لتاريخ محلي اتَّسَم بالنزوع إلى الاستقلال وعدم الخضوع لأي سلطة مركزية. فقد ظهرت السلطنة العفيفية نسبة إلى مؤسسها محمد عبدالله بن اسعد الملقب "عفيف الدين" وبسطت سيادتها على الجزء المسمى " يافع بني قاصد" وحاضرتها "القارة". وسلطنة آل هرهرة في الجزء المسمى "يافع بني مالك" وعاصمتها "المَحْجَبَةْ". وبرزت هاتان السلطنتان في يافع على حساب مقاومتهما لجيوش الأئمة القاسميين. وانضوت تحت لواء كل سلطنة خمسة أقسام قبلية عسكرية - إدارية عرفت باسم "المكاتب".. وكان طابع نظام العلاقات المتبادلة بين الحكام (السلاطين، الشيوخ، العقال) وبين القبائل تقليدياً، حافظ على بعض عناصر الشورى- القبيلة، وسيادة مبادئ التبعية الطوعية. وكانت القبائل تدفع للسلطان أو الشيخ الذي تخضع له، جزءًا من المحصول عبارة عن العشر (العَشِيْر) أو ما يعرف بـ (المغرم).

وبحكم طبيعة منطقة يافع الجبلية من جهة وشحة مواردها من جهة أخرى، فضلا عن نزعتها الاستقلالية المتوارثة، فقد قاومت الدول الكبيرة التي حاولت أن تسيطر عليها وتجمع الضرائب منها، فلم يستطع العثمانيون إخضاعها رغم إمكاناتهم الكبيرة فبعد أربع سنوات من القتال أجبر العثمانيون على مغادرة حصن (الخلقة) في منطقة الحد – يافع الذي حاولوا منه بسط سلطتهم على المنطقة. ولم تتمكن الدولة القاسمية التي خلفت الحكم العثماني في اليمن أن تمد سيطرتها على المنطقة إلاّ لفترة زمنية محدودة حيث قاومتها القبائل في عدة مواجهات شرسة داخل المنطقة وخارجها أسفرت عن تراجع سلطة الدولة من يافع والمناطق المجاورة لها.

والمكاتب التابعة ليافع السفلى هي: كلد، يهر، الناخبي، السعدي، اليزيدي. والمكاتب التابعة ليافع العليا هي: البعسي ، الموسطة، الضُّبي، الحضرمي، المفلحي. وفي الوقت الحاضر تتوزع مناطق يافع بين محافظتي لحج وأبين، منها أربع مديريات في محافظة لحج هي: لبعوس، المفلحي، يهر، الحد. وأربع مديريات في إطار محافظة أبين هي: جعار، رصد، سرار، سباح.

الموقع الجغرافي[1]

تقع يافع شمال شرق عدن بين خطي طول 45- 46 درجة، وخطي عرض 13- 14درجة، ويحدها من الجنوب ساحل البحر، ومن الشمال البيضاء، ومن الشرق لودر(مكيراس)، ومن الغرب الضالع وحالمين. وبشكل عام تمثل الجهة الغربية لمحافظة أبين، والجهة الشمالية الشرقية لمحافظة لحج. وجغرافيتها في معظمها جبلية شديدة الوعورة والتضرس، ويتميز مناخها بالبرودة شتاءً وبالاعتدال صيفاً، عدا المناطق الساحلية منها كجعار والحصن. وتشكل يافع تقريباً نموذجاً مصغراً لسطح اليمن العام، فهي تنقسم - كما هو حال اليمن- إلى ثلاثة أقسام طبيعية مختلفة هي:

أولاً منطقة الهضبة:

وهي عبارة عن لسان تأتي امتداد لهضبة اليمن من جهة البيضاء ويقع في إطارها كل من مناطق الحد، الضبي، ولبعوس والموسطة وتنتهي في منطقة المفلحي حيث يختفي السطح المستوي، وتظهر الجبال الحادة، خصوصاً باتجاة مشألة. ورغم صغر مساحة منطقة الهضبة نسبيا إلا أنها تحتوي على أهم المواقع والقرى الكبيرة في يافع، كما أنها تمثل أكثر المواقع ارتفاعا في يافع ومنها جبل ثمر الذي يصل ارتفاعه إلى حوالي 6900 قدم عن سطح البحر، ويتميز مناخ تلك المنطقة بالبرودة شتاءً وبالاعتدال صيفاً وبانخفاض معدل المطر السنوي مقارنة بالمنطقة التالية.

---

[1] - من موقع كلية التربية – يافع، على شبكة الانترنت(بتصرف).

ثانياً المنطقة الجبلية الوسطى:

وهي تلي منطقة الهضبة، وتقل ارتفاعاتها كلما اتجهنا جنوباً، وتمتد إلى محاذاة الساحل. وتتميز بسطح جغرافي شديد الانحدار والوعورة وتتخلل جبالها الكثيرة العديد من الوديان الضيقة ومنها وادي حطيب، وادي يهر، وادي ذي ناخب، وادي حمومة، وادي سلب، وادي حطاط وغيرها. وهذه المنطقة تستقبل معدلات أمطار سنوية بشكل أفضل، وتحتوي وديانها على العديد من الينابيع والغيول الموسمية أو الدائمة لكن بحكم طبيعتها فإن المساحات الزراعية فيها محدودة فهي أما عبارة عن مدرجات صغيرة على جوانب بعض الجبال أو عبارة عن مساحات ضيقة في جوانب الوديان، ويزرع في اطارها البن والحبوب والقات وغيره ويتركز النشاط والكثافة السكانية فيها في نطاق المناطق المرتفعة المجاورة لمنطقة الهضبة وعلى امتداد الحد المائي الفاصل بين المياه التي تتجه غرباً باتجاه وادي يهر ووطن والتي تتجه شرقاً باتجاه سباح وسلب نظراً لكثرة امطارها من ناحية ولاتساع مساحة مناطقها النسبية من الناحية الثانية مثل رصد والسعدي وسرار.

ثالثاً المنطقة الساحلية:

وهي أصغر المناطق الثلاث مساحة وتقع في ساحل أبين في المنطقة الممتدة بين مصب وادي بنا وساحل البحر وتتميز بسعة الأراضي الزراعية وبخصوبة تربتها وأهم مدنها جعار والحصن وباتيس.

وهكذا: فمعظم مناطق يافع جبلية وفيها يعيش غالبية السكان في المدن الصغيرة والقرى المتناثرة على جوانب الوديان وقمم وسفوح الجبال حيث يتوفر من الأرض ما يمكن زراعته في قطع صغيرة أو في تلك المدرجات الزراعية التي تكثر في بطون الجبال ومنحدراتها. وقد مارس اليافعيون منذ القدم الزراعة، وتطلبت الخبرات المتراكمة طوال قرون في المدرجات الزراعية، ضرورة الاختيار الأمثل لمواقع المدرجات الزراعية، ووضع حائط من الأحجار يسمى (ضبرك) بحسب الارتفاع المطلوب، وتجميع التربة من الوهاد. وما تزال زراعة الأرض حتى اليوم تتم بصورة رئيسية يدوياً، وتستخدم في الري مياه السيول التي تتدفق من الجبال المنحدرة إلى الوديان.

واشـتـهر اليـافعيون بقـوتهم الجـسدية، وبالجَلَـد والثبـات وقـوة التحمـل، وقـد دفعتهم محدودية الأراضي الزراعية الى الهجرة خارج يافع، لكسب لقمة العيش، كمـا أن مـن بـين أهـم أسباب الهجـرة الرغبـة في تحقيـق حلـم الأسـرة ببنـاء بيت حجـري يـأويهم ويحمـيهم مـن ظـروف و تقلبـات الحيـاة. وينتـشر اليـافعيون في عصرنا في كثير من بلدان العالم، وهم يعملون بالتجارة ويمتهنون الجنديـة منذ القدم ويتقنون استخدام السلاح وتاريخهم العسكري معروف في حيدر آباد بالهند وحـضرموت وعـدن ودول الخلـيج العربـي، واسـتاثرت التجـارة علـى اهتمامـات الأجيال الجديدة منهم ممن انتشروا في اصقاع الأرض ووصلوا إلى الصين وغيرها من المهاجر الجديدة.



الا تستحق ناطحات السحاب الحجرية القديمة هذه شيئا من العناية وان تكون ضمن التراث المعماري الإنساني- انها (ذي صُرا) القديمة، حاضرة مكتب (الضُبيّ).

الفصل الثاني

مميزات وأنواع الطراز المعمار اليافعي



آل أحمد – لبعوس



قرية جبل الشبر ومحيطها (المفلحي)

الفصل الثاني

مميزات وأنواع الطراز المعمار اليافعي

مدرسة المعمار اليافعي:

يُراد بالمدرسة أو الطراز كل نوع متميز من الفن تسير عليه جماعة من الفنانين وتؤثره على غيره أو يشيع في قطر من الأقطار لكل منها خصائصها. فالطراز المعماري هو شكل متكامل حققت العلاقات التناسبية بين مفرداته قمة تكاملها فثبتت عند هذا الحد وأصبح طرازها المعماري مدوناً ومعروفاً[1].

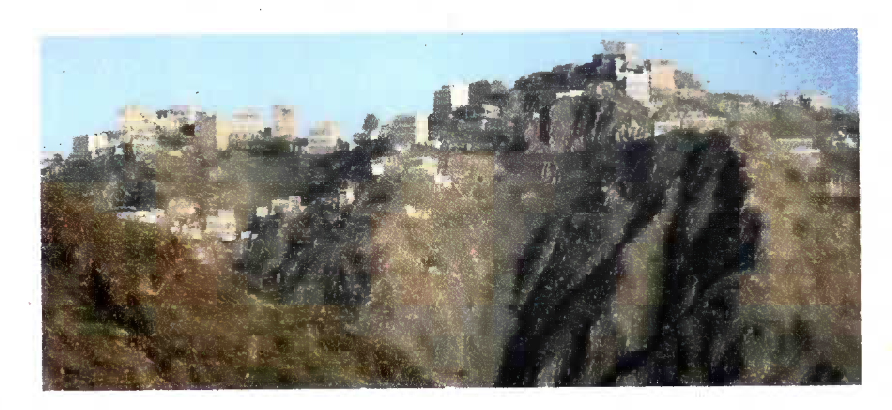
وعند النظر إلى المعمار اليافعي نجد أنه يتميز بطراز خاص وفريد، في البناء والتشكيل والتصميم لبنايات عالية من الأحجار مع سقوف حجرية، لا نظير لها في العالم العربي والإسلامي، بل وفي العالم أجمع. الأمر الذي يدعو إلى التساؤل عن مصادر هذا الطراز المعماري والزخرفي المتميز، الذي يضرب بجذوره في عمق الحضارة اليمنية الحِمْيَرية القديمة التي ما تزال شواهدها باقية حتى اليوم في الآثار الباقية وفي النقوش المحفورة على واجهات الأحجار التي انتزعت من مواقع أثرية وشيد بها بعض المواطنين بيوتهم.

وقد لفتت عمارة يافع الحجرية بهندستها العجيبة وبارتفاعاتها الشاهقة التي تصل إلى ستة وسبعة طوابق وبنمطها الفريد، لفتت اهتمام المتخصصين بفنون العمارة اليمنية، حيث يضعونها إلى جانب عمارة الياجور الصنعانية وعمارة الطين الحضرمية كأنماط معمارية متميزة تزين لوحة الفن المعماري اليمني وشواهد أثرية على حضارة الأجداد العظيمة. وتقول المهندسة المعمارية سلمى الدملوجي أن أشكال العمارة وأنماط البيوت في يافع تتميز بالثراء مثلها مثل تلك التي في مدن حضرموت، فكلا المنطقتان تتباهيان بالأبراج الحصينة أو المساكن المرتفعة المتعددة الطوابق التي ترتفع إلى سبعة أدوار، ومع ذلك فإن مواد البناء المحلية ومبادئ التصميم تختلف كليا، بل إن تخطيط المدن في يافع

---

1 - الفنون القديمة، عفيف البهنسي، دار الرائد اللبناني، بيروت، 1982م:ص395. الطابع المعماري بين التأصيل والمعاصرة، ألفت يحيى حمودة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1987م: ص63.

أكثر صعوبة لأن تجمعات البيوت مقيدة بالتضاريس الجبلية التي تفصل القرى ومجموعات البيوت والحقول والمدرجات الزراعية[1].



تبدو القرى والبيوت اليافعية للناظر إليها من بُعد وكأنها ثريات معلقة في قمم الجبال المهيبة الشامخة، تجاور القمر وتطاول عنان السماء، وما أن يقترب منها حتى يشعر بعظمة اليافعيين الذين أخضعوا تلك الجبال بجبروتها وجعلوها طوعاً لهم وشيدوا منها وفيها حصونهم وقلاعهم المانعة لهم من كل خوف، ويزداد الإعجاب أكثر حين يعرف المرء أن صناع تلك الحصون والقلاع التي قُدَّت أحجارها من الصخور الصلدة المحيطة قد صاغها وأبدع في تشييدها وتشكيلها وتزيينها بناؤون مهرة وبطرق بدائية ووسائل يدوية بعيداً عن تكنيك العصر، وبخامات محلية كاملة من أحجار وأخشاب وطين ومياه، متغلبين على صعوبة الجغرافيا وقسوة الطبيعة الجبلية بحيث تبدو في غاية الجمال بهندستها وشموخها.

وصدق الأستاذ فضل النقيب إذ قال: "مهما وصف الوصّافون، وقالوا وأعادوا حول المعمار والعمارة اليافعية، وكيف ملأت الأرض واستوت مثل سفينة نوح على (الجودي) فتزينت بها سفوح الجبال وقممها ومنحدراتها ووديانها وشعابها كأنها تيجان على رؤوس الملوك، فلن يعطوها حقها من الوصف والتوصيف والإحاطة والتشريف، وهي فريدة ليس في اليمن بأسره وإنما في المعمورة"[2].

1 - العمارة اليمنية من حضرموت إلى يافع، د. سلمى سمر الدملوجي، الفصل الخاص بيافع، ترجمة : محمد محسن محمد العمري (الترجمة غير منشورة). ص4.
2 - ص "الأيام" العدد (4709) الأحد 12 فبراير 2006م.

معلمو مدرسة البناء اليافعي

يعكس البناء في يافع بهندسته مستوى راقٍ من فنون المعمار التي اشتهرت بها أسرٌ محددة من اليافعيين على رأسهم معلمو البناء الشهيرين من (آل بن صلاح) الذين يسكنون عدة قرى في هضبة يافع العليا، ممن لم يبلغوا هذه المكانة عشوائياً، أو بالصدفة، بل بتجارب متراكمة، عبر أزمنة متعاقبة، مكنتهم من الإحاطة بقوانين ومقاييس وابعاد وزوايا وفنون بناء هذا النمط من العمارة الحجرية الفريدة، حتى امتلكوا زمام هذه المهنة، واضحت حكراً عليهم، يتوارثون تقاليدها وأسرارها خلفاً عن سلف بإتقان وتفوق، وبحسابات ومقاسات فطرية جُبَلوا عليها وتناقلوها جيلا بعد جيل، وكأنهم تخرجوا من أرقى كليات الهندسة الحديثة المتخصصة في هذا المجال، فضلا عما تتراكم لديهم يومياً من خبرات فنية تضاف إلى رصيد تجاربهم وتقاليدهم الثرية الموروثة.

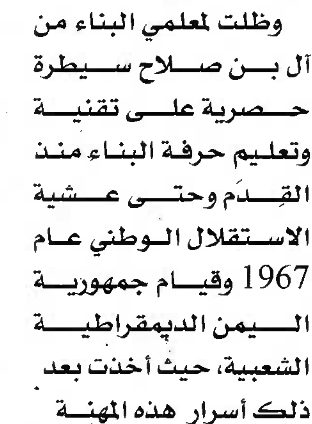


وقد قامت على أيدي أجيال عديدة منهم الدور والقصور المترفعة ليس فقط في يافع، بل وامتدت مهاراتهم إلى المناطق المجاورة كالبيضاء وحالمين والشعيب وردفان والضالع وبلاد العواذل، وصولا إلى شبوة ومناطق أخرى. وتشمُخ قصور سلاطين آل العواذل في قمة (زارة) القريبة من لودر التي شيدها معلمو البناء من

آل بن صلاح عام 1920م وفقاً لمعايير البناء اليافعية وبالتعاون مع بعض البناة المحليين هناك.

بل إننا نجد أثراً لأسلافهم من البنائين اليافعيين المهرة في تهامة، يتمثل في قبة معظمة متقنة مُحكمة بُنيت على قبر الشيخ علي بن عمر الشاذلي الولي الشهير في مدينة المخا، بناها قوم من يافع، القبيلة المشهورة من قبائل حِمْيَر الأكبر سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان، يقال لهم آل سَلاَّم، وهم فخذ من كلد، قريتهم في يافع تسمى "بركات" غربي جبل "موفجة" وهم فيها إلى الآن منهم آل سلام العبادلة في لحج[1].





وظلت لمعلمي البناء من آل بن صلاح سيطرة حصرية على تقنية وتعليم حرفة البناء منذ القِدَم وحتى عشية الاستقلال الوطني عام 1967 وقيام جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، حيث أخذت بعد ذلك أسرار هذه المهنة وخفاياها تنتقل من آل بن صلاح، بصورة بطيئة ومحددة، إلى أسر أخرى في مناطق مختلفة من يافع ممن تتلمذوا على أيديهم، أمثال "آل الوردي" و"آل عماري" و"آل السرحي" (انظر مساكنهم في الصورة). وغيرهم.

ورغم أن أعداد هؤلاء البنائين المَهَرة، سواء من آل بن صلاح أو غيرهم، بدأت تقل عاماً بعد عام في الآونة الأخيرة، وأخذ البعض يغادرون هذه المهنة الرفيعة، التي ورثوها واتقنوها، إما إلى المهجر أو إلى أعمال أخرى لا صلة لها بهذه الحرفة، وهو ما يهدد مستقبل العمارة اليافعية ذات الطراز الأصيل . إلاّ أن ما يثير الاطمئنان، ويبعث على الفخر أن الإنسان اليافعي ما زال مرتبطاً بهذا التراث المعماري الإنساني الفريد ومحافظاً عليه إلى اليوم. فرغم دخول الأسمنت الذي

1 هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، أحمد فضل بن علي محسن العبدلي، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ/1980م: ص 39.

أخذ يغزو عمارة يافع التقليدية ويلحق بها بعض التشوهات، إلاّ أن المباني والقصور الحديثة ما تزال تشيد وتنتصب شامخة تجمع بين الأصالة والحداثة، بل أن تحسن الأحوال المعيشية للكثير من أبناء يافع من التجار والمغتربين، جعلهم يتنافسون على إنشاء المباني الحديثة الضخمة بتكاليف باهظة ، بنفس الطراز المعماري المميز مع مراعات السعة الداخلية ومتطلبات الحياة العصرية، وفي مثل هذا الميدان فليتنافس المتنافسون.

وتحظى حرفة البناء بتقدير عال، وينال العاملون فيها أجوراً مغرية مقارنة ببقية المهن، فضلا عما يحظون به من عناية خاصة في مأكلهم ومشربهم من قبل صاحب العمل. وهم يجمعون بين القدرة البدنية والمهارة الهندسية المكتسبة بالوراثة والتجربة، حيث يحولون قوالب الحجارة إلى بنيان مرصوص مذهل بتقاسيمه ومقاساته وأوزانه المتناهية الدقة. بل ويتنافسون في إضفاء لمساتهم الفنية التي تميز كل منهم عن غيره، وتجعل المتميزين منهم محل فخر وتقدير سواء بين أقرانهم أو في أوساط المجتمع، ويتجه الناس إليهم لبناء بيوتهم الجميلة.

ويقوم البناة بنقل خبراتهم وتجاربهم إلى أبنائهم، إذ يتناقل الأبناء هذه الحرفة عن جيل الآباء، ويبدأون بتعلمها منذ طفولتهم، حيث تعهد إليهم في البدء بعض الأعمال المساعدة أو المكملة، كتعبئة الفراغات بين الحجارة بقطع صغيرة من الأحجار تسمى (مِيظار) ثم تدريبهم تدريجيا ببعض أعمال البناء تحت إشراف البنائين المهرة وصولا إلى أعقد وأدق أعمال البناء المتمثل ببناء الأركان والعقود.

يصف المناضل صالح فاضل الصلاحي، كيف تعلم هذه الحرفة في طفولته عام 1940 تقريباً بقوله[1]: " كانت مهنة البناء شبه محتكرة وشبه متوارثة فالآباء يعلمون الأبناء هندسة وتنفيذ البناء على مدى سنوات عدة يتعلمون فيها أبجديات قواعد البناء، فالحصول على لقب الباني في هذه المهنة معناه إن من أشرفوا على تعليمك قد رأوا فيك وخبروا عنك القدرة على الهندسة والتنفيذ معا. كان العم عاطف حسين (شقيق والدي) يصطحبني برفقة حَسَن إبنه للعمل معه وأعمارنا لم تتجاوز الثامنة، وكان في البدء يوكل إلينا مهمة سد

1 - من مذكرات المناضل صالح فاضل الصلاحي، التي يعدها للنشر بمساعدة نجله الصديق الدكتور محمد صالح فاضل الصلاحي(بتصرف).

الفتحات بين الأحجار غير المتجانسة حتى تظهر واجهة البناء الخارجية متساوية، وأيضاً كان يعلمنا القواعد العامة للهندسة المعمارية ولكن بالمفهوم البسيط والبداني. وكان لتعلمي البناء لمدة عامين في طفولتي المبكرة أساساً لنجاحاتي في سنوات غربتي في المملكة العربية السعودية، حيث عملت في نفس مهنة البناء، وكذا الحال في فترة إقامتي في منطقة أبيَن قبل وأثناء مرحلة الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطاني".



أبرز مميزات العمارة اليافعية

رسَّخت يافع بفنها معنى وفكرة عن فلسفة الصمود، وبأهلها رسَّخت ثمار الإصرار على الإبداع بمهارة عالية حذقت ترويض الصخور، فحصونها المتشابهة والمتناثرة في كل اتجاه تراها إما متشبِّثة بسيقان وأفخاذ الجبال، أو مضاجعة للروابي وعالقة بأثواب السحاب في قمم "الشماريخ" على شكل تجمعات تشبه العناقيد رأسية البناء. وكل هذه الحصون، التي تشكل القرى، تأتي على مقياس فني يعتمد على طراز متقارب ومتماثل يعبر عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ويلبي احتياجات الإنسان المختلفة حسب مفهوم تقليدي متعارف عليه، الأمر الذي جعل الدارسين يؤكدون أن العمارة اليافعية حققت مقومات النجاح والبقاء، ناهيك عن اقتران هذا النموذج بقدر من التميز والتفرد الذي ترصده العين من أول نظرة. لذا يصح القول إن طابع العمارة اليافعية اتّصف عند الذين

شيدوه بشكل عام – كما هو في بقية فنون العمارة المعروفة – بالموهبة والذوق الرفيع، إضافة إلى التلقائية والبساطة والعمق والدلالة[1].

تعد يافع من المناطق الغنية بتراثها العمراني الفريد ، فبيوتها الحجرية الفخمة ومساكنها الجميلة ترتفع عاليا إلى ستة وسبعة أدوار، وتتميز بنسيج عمراني فريد يمثل وحدة عمرانية منسجمة ومتناسقة تنبض بالأصالة والعراقة والروعة. ومن أهم المميزات أو الخصائص المعمارية الفريدة التي لا تخطئها العين من الوهلة الأولى، ما يلي:

أولاً: تشابه البيوت من حيث الطراز:

تتميز المباني اليافعية بتشابهها من حيث طرازها وهيئتها المعمارية، وتختلف فقط من حيث تفاوت أحجامها وسعتها، ولا شك أن من يزور يافع للمرة الأولى يصاب بالدهشة والانبهار ويقف متعجباً حين تفاجئه لوحة معمارية فريدة بتجانسها وتماهيها من حيث لونها وشموخها مع البيئة المحلية ورواسي الجبال الشامخات، فتبدو له وكأن حصونها تَوَائم لأُمّ واحدة اغتسلت بلون الجبال التي اعتنقت اليفوع لتبدو سامقة في فضاءات الجمال والخلود، تعلو كل المناطق الشرقية والجنوبية، متربعة بين الضالع ولحج وجبال البيضاء في منطقة عرفت قديماً بـ"سرو حِمْيَر"[2].



1- المعمار اليافعي.. فنّ برائحة النيازك، محمد محمد إبراهيم، ملحق الثورة الثقافي، الاثنين 5 فبراير 2007م، العدد (15426) ص10.
2 - المرجع السابق.

ولا شك أن من شاهد وعرف العمارة اليافعية، ستلصق صورتها المميزة والفريدة في ذهنه ولن تبارحه ولا يمكن له أن ينساها، بل ويستطيع أن يميزها بسهولة وقد يصرخ وهو يراها مباشرة:"هذا البيت يافعي"، وذلك أنها تتماثل في هيئتها المعمارية وفي ارتفاعها السامق الذي يصل إلى الخمسة والستة والسبعة طوابق، ووجود الحزام الناصع البياض الذي يلتف حول خاصرة البيت اليافعي ويفصل بين الطابق والآخر ويعتبر علامة مميزة تبين وتميز عدد طوابق كل بيت، فضلا عما يضفيه من طابع جمالي على هيئة ومظهر البيت اليافعي . ويتم وضع هذا الإطار الجميل عند استكمال سقف كل دور جديد ، وفي الماضي، كما في البيوت الأكثر قدما، كان هذا الحزام يوضع من تشكيلات حجرية زخرفية متنوعة الأشكال والأحجام أو من أحجار المرو البيضاء أو من خلال طلاء الحزام الفاصل بالنورة البيضاء وكان يطلق عليه(صَفَة النُّورة)، أما الآن فيتربع الحزام الأسمنتي المطلي بالطلاء الأبيض، وقد احتل مكانته منذ أن دخل الاسمنت والطلاء إلى المنطقة في منتصف القرن الفارط.

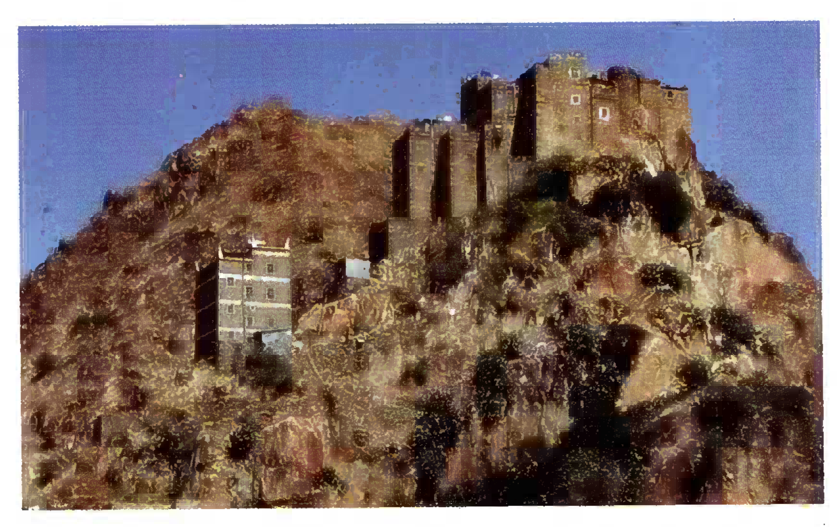
ثم تتوج البيوت الشاهقة بأكاليل تزدان بها في أعلى السطح، تُسمى (تَشَاريف- مفردها:تشريفة) وهي علامة على اكتمال بنيان طوابق البيت، ولا توجد هذه (التشاريف) فوق البيوت التي تقل عن ثلاثة أدوار، لأنها تنتظر البناء فوقها في فترات لاحقة.

ثانياً: التوافق مع البيئة المحلية:

توافق العمارة اليافعية مع البيئة المحلية التي تعد الرافد والأصل الأساسي لهذا الفن المعماري، بل يجوز القول أن هذا الفن المعماري حصيلة تفاعل ذكاء الإنسان مع البيئة الطبيعية وتطويعه لها من أجل استيفاء حاجاته الجسمانية والروحية، المتمثلة بهذه التكوينات المعمارية التي يأوي إليها ويحتمي بها. ولمواد البناء أهمية بالغة في تشكيل المميزات العامة للعمارة اليافعية التي تعتبر انعكاساً للبيئة والتضاريس والمناخ، وبالتالي تتشكّل تبعاً لتلك المؤثرات وتحاكيها الأمر الذي يؤثر في التصميم الإنشائي .

يستخدم اليافعيون في تشييد بيوتهم الأحجار الجرانيتية المنحوتة بألوانها المختلفة وهي تتوفر في بيئتهم المحلية بوفرة وكذا الخشب والطين. والحجر هو أهم مواد البناء وهو يستخدم في جميع أنواع المباني السكنية وغير السكنية في

يافع، بما في ذلك السقوف الحجرية المَدّ المكونة من ألواح وصفائح حجرية رفيعة تُسمى "الصَّلا" تُرص متلاصقة ومتقاربة من أطرافها فوق الأخشاب.



قصور السلاطين آل هرهرة السامقة.. كأنها نبتت من الجبل وأكتست لونه وشموخه

تُختار أفضل الحجارة وأصلبها لبناء المساكن الرئيسية وهي تستخدم بسُمك كبير، بالكاد يحملها المرء وقد يتعاون في حمل بعضها أكثر من شخص أو عدة أشخاص خاصة الأحجار المستطيلة (السحابيل) أو حجارة المدماك الضخمة، ويستخدم البعض قوائم خشبية قوية تسمى (المَعَشّة) توضع عليها الحجارة الكبيرة لحملها بيسر من قبل شخصين أو أكثر، حسب حجم الحجر.

وقد أثبتت التجربة أن الحجارة أفضل مواد البناء صلابة ومقاومة للزمن. ولعل الطبيعة الجبلية القاسية لمناطق يافع والمناخ البارد شتاءً قد جعل المسكن يكتسب أهمية بالغة عند اليافعيين منذ القدم، فنحتوا أحجاره يدويا من الجبال المحيطة بهم ثم حملوها على الأكتاف والظهور أو على المطايا وشيدوا بها تلك القصور والحصون الشاهقة التي يعجز الوصف من رآها، ويزداد المرء انبهارا عند رؤيته لتلك الدور والقلاع القديمة المشيدة على بواذخ الجبال والقمم الشاهقة، التي تحاكي البيئة المحلية بلون حجارتها، ويعجب كيف برع الإنسان في اتقان

فن البناء وزخرفته وكيف نقل الأحجار إليها وهي في أماكن لا يمكن وصفها إلا بأنها ذات وعورة .



قصور نائفة تتسلق الجبال السامقة وتعتلي قممها

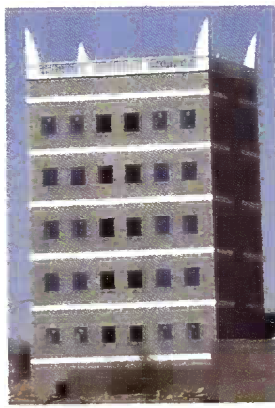
تقول أستاذة العمارة بجامعة لندن سلمى سمر الدّملوجي عن تقييمها للفن المعماري اليافعي مقارنة بالفنون المعمارية في المناطق الأخرى:" إن عمارة يافع هي عمارة حضرية (أي مدينية urbon) تضاهي عمارة مدينة صنعاء وعمائر مدن شبام وتريم ووادي دوعن. طبعا هي بالنسبة للبناء بالحجر الأكثر تعقيدا وتطورا إذ إن حضرموت مبانيها من المدر وصنعاء من الياجور. وفنون هذه العمارة ترتبط بحرفة البناء وتتمثل بأشكال متغايرة من تجذيب الحجر ونحت أنواعه المختلفة من بناء قباب المساجد وقبور الأولياء وأشكالها البيضوية إلى حفر باطن "الخلل" وزخرفة السقوف، ولعلها فنون تجريدية إلا أنها تنصهر مع العمارة فتضفي عليها الصفة النحتية، وهذه صفة وميزة متفوقة في العمارة وخاصة عمارة القرن العشرين التي فقدت ملكة النحت والفن والروح"[1].

1- انظر : صحيفة "الأيام" ، العدد(704)، 13 مارس 2000م، ص:3.

ثالثاً: الارتفاع الشاهق وتعدد الطوابق:

من سمات المعمار اليافعي ارتفاعه الشاهق وتعدد طوابقه، التي تصل إلى خمسة وستة وسبعة طوابق حجرية وربما أكثر، ويُراعى عند التشييد السماكة التي تتناسب مع هذا الارتفاع. ومن نافل القول أن تفرُّد يافع بالعمارة الحجرية الشاهقة يرجع في الأساس إلى تموضع القرى على الجبال والآكام القادرة على تحمل ثقل البناء المرتفع، على عكس الأماكن السهلية أو ذات التربة. وما يزيد هذا المعمار مهابة وشموخا أنه ينتصب غالباً فوق الآكام وقمم الجبال وفي الأماكن التي لا تصلح للزراعة، واتجهوا للبناء الرأسي لتقليص المساحة التي تحتلها البيوت وبجانب مساكنهم جمعوا التربة الصالحة للزراعة في مدرجات جبلية أحاطوها بجدران واقية من انجراف التربة، إضافة إلى طبيعة الحياة الاجتماعية والارتباطات الأسرية التي كانت تقوم على تجمع افراد الأسرة الأبوية الكبيرة في بيت واحد وتجمع في بعض الأحيان عدة أجيال: الجد والأب والأحفاد وأحفاد الأب..الخ. وربما سكن الدار الواحدة عشرات الناس. وحتى بعد أن تنفصل الأسرة الأبوية إلى أسر فرعية فأنها تظل في نفس المسكن الكبير وتتعايش مع بعضها، ويطلق عليها في هذه الحالة (حُلَل) أي يحلون في منزل واحد بكاملهم، بعد أن تقاسموا غرفه المختلفة، ومثل ذلك كثير في المناطق والقرى. بل وكانت البيوت القديمة مسكناً يضم البشر والحيوانات، فالطابق الأسفل كان يخصص اصطبلاً للماشية ومستودعات للأعلاف.







ولا غرابة أن أطلق الباحثون العرب على هذه القصور المنيفة أوصافاً تليق بسموها وشموخها وقوتها وفرادتها، حيث وصفها الشاعر العراقي الكبير سعدي يوسف بـ"قصور حِمْيَر المترفعة"، أما المهندسة المتخصصة بالعمارة الاسلامية سلمى سمر الدملوجي فقد وصفتها بـ "ناطحات السحاب الحجرية الفريدة في العالم"، ففي رسالة وجهتها إلى معلمي البناء من (آل بن صلاح) تحذر فيها من الأخطار المحدقة التي تهدد هذا الفن، قالت مخاطبة إياهم:"أما زال جبل (ثمر) شامخاً؟ وأما زلتم حاملين سر هندسة عماراتكم بنفس الروح التي واصلت حضاراتكم المدنية المميزة؟ أتدرون أنكم أصحاب ناطحات السحاب الحجرية الوحيدة في عالمنا هذا المتفشي بأشكال الإسمنت العقيمة وسمسرة البناء المرتدية اسم الحداثة عبثاً؟!".



ويصف الأستاذ خالد عبدالله الرويشان وزير الثقافة السابق يافع ومعمارها الفريد بقوله:" كأن عزائم أبنائها قلوبٌ مسافرة في الآفاق وبيوتها قصورُ أساطيرٍ، وأصداءُ حُلمٍ سامقٍ!. بلادٌ معجونةٌ بالحلاوةِ والجمال والكمال. حلاوة بُنٍّ، وقاتٍ، وجمالُ معمارٍ وفنٍ، ووجوهٍ وعيونٍ، وكمالُ أرواحٍ تقتاتُ الصّعودَ، والعلوّ، والعزم والنجاح"[1].

---

1 - انظر كتاب (الايام الثقافية ليافع – صنعاء – بيت الثقافة 2007/4/8م)

أما اليافعيون فيطلقون على قراهم وبيوتهم الشاهقة "الشوامخ" أو "المصانع" أو "الحصون". وفي الفصيح فأن "مصانع" تعني المباني من القصور والحصون والقرى والآبار وغيرها من الأمكنة العظيمة، وجاء في التنزيل العزيز {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}. ويتباهى اليافعون بمصانعهم وحصونهم الشامخة، كما في الزامل التالي:

سلام ما لَمْلَمْ ومَا يرخِيْ وِلَمّ   مَتْشَرَّعْ الجاهم وله بَرَّاق لاح

تسليم يتقسم وللزائر قَسَم   وزن المصانع ذي على شُمّخ صحاح



ويقول زامل آخر:

يا ناشر الليله برأي المعتلي   وبرأي ذي يكتُب شَقِي والاّ سعيد

وبرأيكم يَهْل الحصون النائفه   وأهل المصانع ذي بَنَوْهَا من جديد

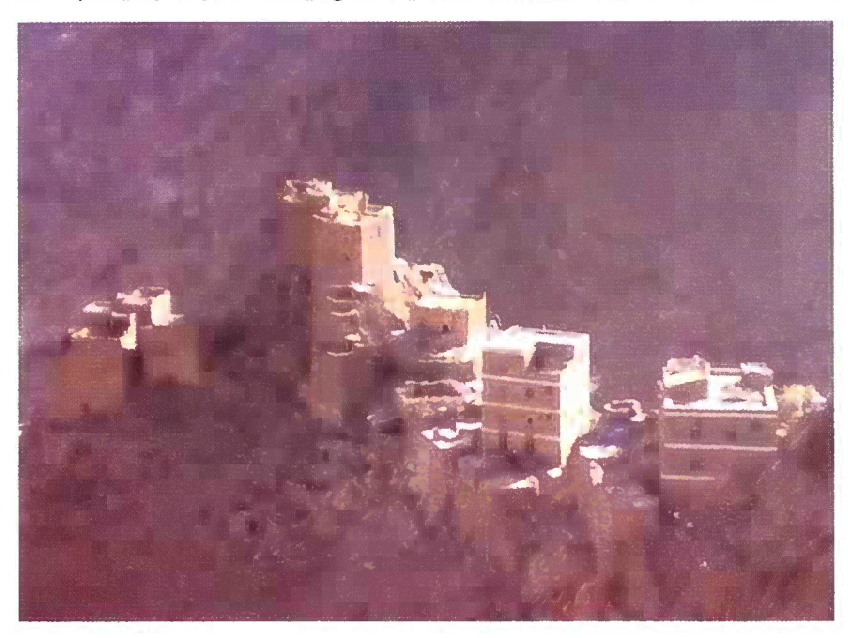
ويقول زامل ثالث:

حيَّا بكم يا ذي ولبتوا عندنا   يملا المصانع ذي على الحيد الذليق

رَحَّب بك القاهر وشُمَّخ قاهره   ذي يقهرين النار ذي تعلق عَليق

رابعاً: النظام الدفاعي المُحكَم:

أكثر ما يميز العمارة اليافعية القديمة هو النظام الدفاعي شديد الدقة، فقد اتسمت منذ القِدَم ببناء القلاع والحصون في الأماكن المرتفعة، لمراعاة الأمان، لأن طبيعة الحياة وقساوتها في الماضي، وأخطار الغزوات الخارجية والحروب والفتن وأخطار السيول الجارفة، جعلتهم حذرين دائماً ومن يكون بيته في الأعلى يشعر بأمان كبير، ويمتلك أفضلية تجاه جاره الأسفل فيما اذا نشأ بينهما خلاف أو نزاع. وقد كانت معظم القرى تُشيَّد على نُشوز عالية أو على قمة أو أكمة (لَكَمة) أو قُلَّة جبل مرتفعة معزولة يصعب الوصول إليها وهذه الحماية الطبيعية تُعزَّز ببناء أسوار وحصون لحمايتها من أية مخاطر خارجية مباغتة.



الخلوة – إحدى قرى العياسى المحصنة طبيعيا

ويمكن القول أنها أشبه بحصون وقلاع عسكرية منيعة فيها جميع الاستحكامات الدفاعية، بما في ذلك وجود فتحات أو مَزَاغل خاصة لرمي الرماح أو توجيه البنادق منها، تُعرف بـ"العُكَر"، بما في ذلك مزاغل أفقية لصب السوائل

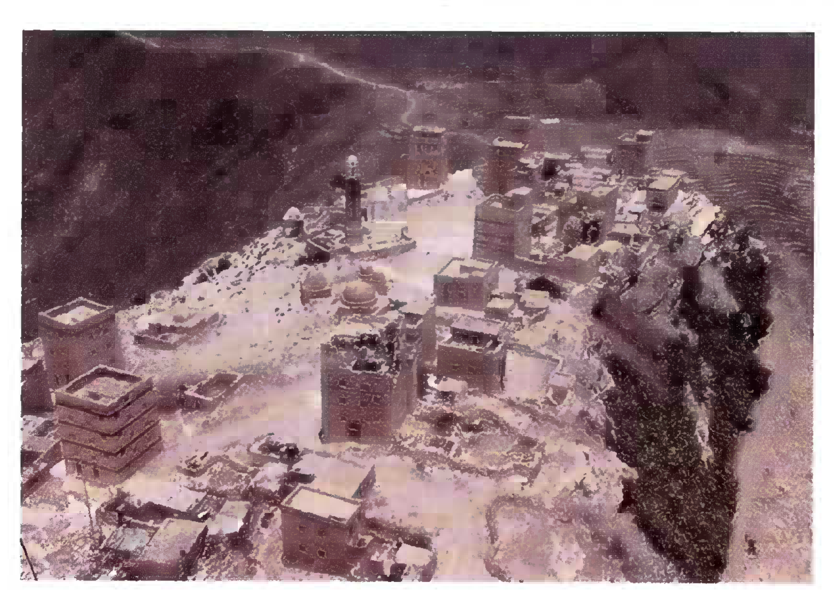
المحرقة او الزيوت الحارقة على من يحاولون تحطيم باب البيت أو محاولة اقتحامه. كما كانت البيوت القديمة عبارة عن كتل معمارية متراصة ومتلاصقة بجانب بعضها البعض لمقتضيات الأمن والتعاون عند الخطر، بحيث يمكن للمرء أن يتنقل من سطح لآخر بسهولة عند الحاجة، وكانت الأسوار أو كما تُسمى محليا "الدَّرب- وجمعها درُوب" من أهم التحصينات الدفاعية تحوطاً من التعرض لهجوم مباغت، ولهذا كانت الحصون أو القرى تُحاط بسور طبيعي يُستكمل في بعض جوانبه بالبناء، وكانت لبعضها بوابات تتحكم بالدخول إليها أو الخروج منها، بل أن لبعضها بناء مسقوف يسمى (سّقيفة) تمتد تحت بيت أو أكثر ولها بوابتان، داخلية وخارجية، يعلو كل منها عقد حجري يسمح بدخول الأحمال على ظهور الحيوانات كالإبل والحمير. وكانت تتواجد فيها صهاريج المياه ومدافن الحبوب وكل مستلزمات الحياة. ونادرا ما ينفرد البعض في الماضي في البناء بعيداً عن القرى خوفاً من عواقب الحروب الثأرية التي شملت القبيلة والأخرى والقرية وجارتها[1].



قرية القود- العياسى مثال للقرى المحصنة

1 - الأصالة في المعمار اليمني ، علي صالح الخلاقي، صحيفة 14 أكتوبر، 26 أغسطس 1990م، ص 6.

كانت المناعة الدفاعية هي الاهتمام الأساسي، لهذا السبب كان يتم بناء بعض المدن والقرى في مواقع لم يكن الوصول إليها ممكنا إلا عبر طرق شديدة الانحدار (بعضها ما زال قائما حتى اليوم) وتم تبليطها بالحجارة المرصوصة في الحيود أو الجبال على ارتفاع عدة مئات من الأمتار. وتوجد براعة جديرة بالاعتبار في تخطيط مواقع البناء ومهارة في تكييف مختلف المواقع بصورة خاصة. وذلك ما زال ملاحظاً في البناء الحديث إلى حد كبير نتيجة الرغبة لزيادة الخصوصية والخلوة واحترام تقليدي لعُرف اجتماعي يمنع التعدي على المنازل المجاورة، فضلا عن ذلك فإن البيت الذي يشرفٍ على مناظر فريدة فوق المرتفعات الجبلية والمنحدرات الخطرة يحظى دائماً بمقام ومنزلة رفيعتين. ويعتبر موقع مباني القرية القديمة للعياسى وموقع منزل الشيخ علي عبدالله العيسائي في جبل أحرَم أمثلة رائعةٍ على تفضيل اليافعي للارتفاعات الشاهقة. لهذا السبب فإن المدن والقرى نادرا ما تحتاج إلى أسوار حماية، كل منزل كان محصن مسبقاً بالجدران الحجرية والصخور الطبيعية. وكان بناء الدَّرب يضيف طبقة حماية إضافية حول المنزل[1] .



في الصورة جزء من مدينة القارة وتبدو حصانتها الطبيعية المنيعة

1 - العمارة اليمنية من حضر موت إلى يافع:ص 4-5 .

ومثال ذلك أيضاً قلعة (القارة) الحصينة، حاضرة السلطنة العفيفية على مدى أربعة قرون منذ تأسيسها سنة 942هـ /1535م وحتى عشية الاستقلال 30نوفمبر 1967م فهي تقف فريدة الشكل على ذروة جبل شاهق، وتبدو من بعيد كإناء مقلوب ذو قاعدة دائرية، نحتت جوانبها عمودياً، بحيث يتعذر تسلقها، عدا في الجزء الشرقي من الجهة الشمالية ، عند الصخور أسفل "دار الدَّرك"، وقد تم تحصين هذا الجانب وحمايته بجدار حجري. ويتم الصعود إليها عبر (السدّة) البوابة الوحيدة بواسطة درج منحوت في الصخر في بعض أجزائه والأخرى مبنية، وكل هذا أعطى القارة وقمتها التحصين الطبيعي وجعل منها قلعة حصينة على مدار تاريخها[1].

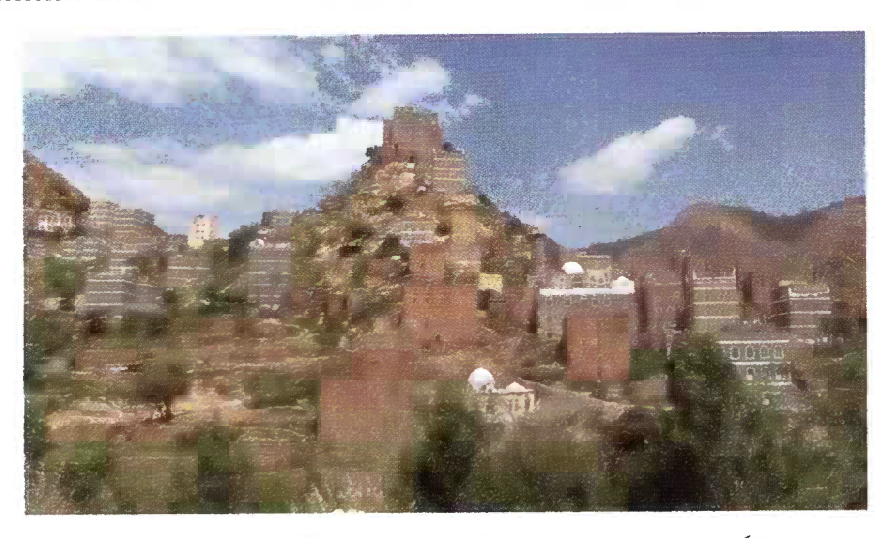
وللأسف أن أغلب مباني وحصون القارة التاريخية هي الآن عرضة لمخالب الإهمال التي تعبث بها دون رحمة، خاصة منذ أن هجرها أصحابها ولم يعد أحد يلتفت إليها حتى تصدعت بعض جدرانها وتساقطت حجارتها، وتهدمت بعض السقوف بسبب سقوط الأمطار واحتقانها فيها، فضلا عن العبث بمحتوياتها من أبواب ونوافذ وأخشاب السقوف، حيث تُنزع منها ويتم نقلها لإعادة استخدامها في مبانٍ أخرى أو للوقود، ولا بد من التحرك لوقف مثل هذا العبث بمعالمها المعمارية والتاريخية قبل فوات الأوان.





تبدو علامات الاهمال واضحة في منازل القارة من الخارج والداخل

1 - مقدمة في تاريخ القارة وتوثيق معالمها التاريخية، د.أحمد بن أحمد باطايع، إصدار الصندوق الاجتماعي للتنمية، عدن، 2013م. ص 61.



المَحجَبَة- حاضرة سلاطين آل هرهرة ، تحجبها الجبال المحيطة بها

ومن القلاع الحصينة أيضاً قصور سلاطين آل هرهرة التي شُيدت في حاضرتهم "المَحجَبَة" في أعلى قمة جبلية حصينة، خطرة المرتقى، ولا يمكن الوصول إليها إلا من بوابة واحدة، فيما بنيت في أسفلها بقية مباني سكان المحجبة وكذا المسجد القديم بمئذنته التاريخية ذات النقوش والزخارف الجميلة. أو عاصمتهم الأخرى في جَبَل (حِلْيَن) المجاور لجبل العر، حيث شيّد السلطان صالح بن عمر في قمته قصراً حصينا، قبل اغتياله عام 1949م بسنوات قليلة، وظل ذلك القصر قائما مع ملحقاته حتى هدمته فرقة من الجبهة القومية مطلع عام 1967م أثناء سيطرتها على السطلة في المنطقة.

وتتميز بعض الحصون في القرى القديمة بمسمياتها الخاصة التي عُرفت بها، ففي القارة نجد اسماء "دار السعادة، دار السعد، دار الدّرك، دار غمزان، دار لقواد" وفي السائلة- ذي ناخب "دارالمشتبح" وفي معزبة آل بن علاية، في وادي العرقة، بذي ناخب، نجد اقتباس بعض مسميات حصون القارة، ففيها أيضا :"دار السعد، دار الدّرك" ، وفي " تي اللب" تشمخ قصور قديمة يتراوح عدد طوابقها ما بين تسعة إلى عشرة طوابق بنيت فوق جبل صخري، ويزيد عمرها على ثلاثة قرون، ولها اسماء خاصة بها مثل: الزاهي ، الباهي، الناهي..الخ.

ونجد في معظم القرى الجبلية القديمة، التي اندثر بعضها، أن البيوت كانت متلاصقة ببعضها وكل منزل فيها يشكّل جزءا من السور، حتى لتحسب القرية القديمة بناء واحداً لتقاربها واشتراك معظمها بالجدران، وهذا يعود لروح التكافل والتآلف الاجتماعي وانحصار القرى ضمن الموقع الجبلي الحصين الذي يمثل سورا طبيعيا، كما تعكس أسلوب الحياة غير الآمن في الفترات التاريخية السابقة، ولهذا السبب كانت الأدوار الأولية تخصص للمخازن واسطبلات للماشية، وتكون الأدوار العلوية للسكن والضيوف.



بيوت (سَلَفَة) القديمة، مثال للحصون المتلاصقة ببعضها البعض

أما في البناء الحديث فلا يفضل الناس الأماكن المرتفعة كثيرا، إلاّ فيما ندر، لتواجد شروط الأمان الذي ارتبط بنشوء الدولة الحديثة بعد الاستقلال الوطني، وهم الآن يتجهون إلى جوانب وضفاف الأودية والمواقع المستوية بالقرب من طرق السيارات وأضحت بعض القرى المشيدة في القمم المرتفعة شبه مهجورة، وبيوتها وحصونها عرضة للإهمال، ومع ذلك نجد أن الناس في الوقت الحاضر يؤثرون العزلة والبعد عن الجيران، أو إحاطة البيت بسور عازل ، يفصله عن محيطه.

خامساً: تمحور واجهات البيوت اليافعية نحو القِبلة:

مما يميز العمارة اليافعية أنها تتمحور في واجهاتها وهندستها نحو القِبلة (المسجد الحرام)، ويلفت نظر الزائر إلى يافع وهو يتطلع إلى مباني قراها العديدة ذلك الاتجاه الموحد الذي تتخذه الزوايا الأربع لهذه البيوت جميعها دون انحراف أو التواء، والغرض من ذلك معرفة اتجاه القِبلة التي تعني البيت العتيق في مكة المكرمة، وهي جهة الصلاة وناحية الكعبة المشرَّفة، وهي عادة متوارثة منذ ظهور الإسلام وميزة حميدة تنطبق على جميع البيوت بغض النظر عن موقعها أو قربها أو بعدها عن بعضها البعض، وهو الأمر الذي يسهل معرفة اتجاه القبلة عند الصلاة مباشرة، ولا يحتاج المرء للانحراف يميناً أو يساراً ، أو السؤال عن جهة القبلة كما هو الحال في عمران المدن حيث لا وجهة ولا قبلة، ويجد المرء صعوبة إذا ما أراد الصلاة خارج المسجد وقد يصلي في غير اتجاه القبلة إن لم يكن على دراية مسبقة باتجاهها الصحيح، وهذا ما تنبه له اليافعيون منذ مراحل الإسلام المبكرة حيث تستوي وجهة البيوت والمساجد في يافع في التوجه للقبلة كأحد الثوابت التصميمية، وذلك مصداقاً لقوله تعالى:(فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ).





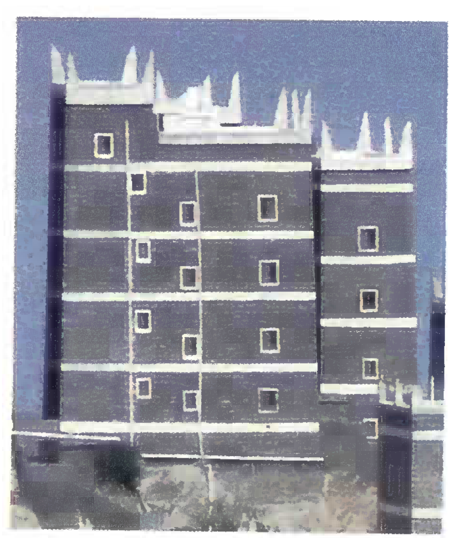
وفي كل مناطق يافع يحتل كل منزل أو مسجد نقطة على محيط دائرة مركزها الكعبة لأن الناس يصلون في المساجد وفي بيوتهم. وارتباطاً بقداسة القبلة فإن اليافعيين يحرصون أن تكون وجهة دورات المياه والصرف الصحي التي تسمى (مغاسيل/مطاهير) في غير اتجاه القبلة، حتى لا يستقبلها أو يستدبرها المرء أثناء استفراغه، وهو ما يحث عليه الدين لإسلامي الحنيف.

سادساً: ارتداد المدماك:

تُتَّبَع عند بناء البيوت الشاهقة طريقة ارتداد المدماك الأعلى للداخل عن المدماك الموجود أسفلها ببضعة سنتيمترات، وتُسمى هذه الطريقة (السَّحبَة)، حيث يكون سُمك المدماك الأسفل كبيرا ويستمر ارتداد المدماك الأعلى للداخل عن المدماك الموجود أسفل البيت، حتى نهاية المبنى، وينتج عن ذلك بناء مائل للداخل ببضعة سنتيمترات.



وفي الماضي لم يكن لدى البنائين أدوات القياس والتوازن، وكانوا يقيسون جدار المدماك المكون من صفين من الحجارة ببنانهم، حيث ينقصون سُمكه بمعدل بضع بنان تقريبا في كل دور علوي مقارنة بالمدماك الأساس، ويدققون ذلك من خلال الملاحظة بالنظر. ومع دخول وسائل القياس الحديثة فإن الارتداد في كل طابق يساوي 5 سم، أي بمعدل 25 سم إذا كان البيت يتألف من خمسة طوابق، وهذا هو الفرق بين سُمك المدماك الأرضي وسُمك مدماك الطابق الخامس.



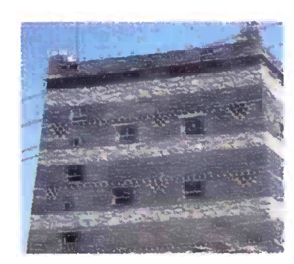
ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح فقط في العمارات الشاهقة، أو عند تقارب رُكْنَي دارين كبيرين حيث يبدو الفرق واضحا من الخارج(انظر الصورة)، أما المساحات الداخلية للغرف فلا تتغير وتحتفظ بنفس مقاساتها المتساوية في كل طابق، ولا تتاثر جدرانها العمودية الداخلية بهذا الارتداد، ولهذا فأن مساحة الغُرف تتطابق مع الغرف التي فوقها في كل الأدوار. وهذه الطريقة اهتدى إليها مهندسو العمارة وبُناتها بالبَدَاهَة والفطرة وبالمهارات المكتسبة، وهي ما تُعرف هندسيا بفكرة "الهرم الناقص". ويرجع سبب بناء الجدران بهذا الأسلوب إلى محاولة الاحتفاظ بصلابة الحجر ومتانته وبالتالي صلابة الجدران، لأن الجدران العمودية أضعف من الهرمية الشكل، كما إن التدرج في الارتداد يوزع الضغط على الحجارة وبالتالي لا يرتكز على نقطة معينة مما يؤدي إلى زيادة الصلابة وطول عُمر المبنى وتماسك جدرانه وعدم تعرضها للتصدع.

ولا تزال هذه الطريقة متبعة حتى اليوم في يافع، خاصة في البناء التقليدي الذي يعتمد على الحجر دون أن تدخل فيه أعمدة الحديد والإسمنت(البناء الخرساني)، وهنا يكمن سر عمر المباني التي يرجع عمر بعضها إلى عدة قرون.

سابعاً: تناسق ألوان حجارة الواجهات:



يتم غالبا اختيار لون موحد لأحجار الواجهات، ففي البيوت الحديثة نجد أن لون الحجارة الشائع هو الرمادي المائل إلى الأزرق. أما في البيوت القديمة فتتباين ألوان الحجارة ويغلب عليها اللون الترابي الداكن الذي يحاكي لون البيئة المحيطة ويكوّن معها وحدة متكاملة. وإلى جانب ذلك توجد بدرجة أقل واجهات تُبنى بلونين من الحجارة، الرمادية والبيضاء أو القريبة من اللون الأبيض، وتُبنى على شكل صفوف متناسقة بعضها فوق بعض.



كما تتفرد مدينة "القارة" بلون خاص من الحجارة الجيرية البيضاء تُسمى (يَاجُور) وتزدان واجهات البيوت بصفوف مغايرة اللون من الحجارة السوداء التي تستخدم لتنفيذ العناصر الزخرفية، بما في ذلك الخط الفاصل بين طوابقها، بحيث تحل صفوف الحجارة السوداء محل الحزام الأبيض المعتاد في بقية العمارة اليافعية، ومثلها



عمارة قرية "عَبَر" في السعدي المجاورة للقارة، التي امتهن أهلها من (آل السرحي) حرفة البناء وبرعوا فيها، أسوة بمعلميهم من (آل بن صلاح) الذين تتلمذوا على يديهم وأخذوا عنهم اسرار المهنة، وهو ما تشهد به قصورهم الشاهقة الأنيقة التي بنوها بأنفسهم. ويبدو أن مصدر حجارة قرية "عَبَر" و"القارة" واحد هو (جبل جار) المجاور لكل منهما الذي استخرجت منه هذه الحجارة التي تسمى محليا "الياجور".

ثامناً: السقوف الحجرية الفريدة:

تتفرد العمارة اليافعية بمزيّة خاصة قَلّ أن نجد لها نظيراً في العالم هي استخدام صفائح أو ألواح حجرية رفيعة في الفراغات بين الأخشاب في سقوف غُرف البيت والسلّم، تُسمى(الصَّلا- مفردها صلاءَه/صَلاه).

وتثير هذه السقوف الحجرية غرابة الزائرين ودهشتهم وانبهارهم بهذه الطريقة الفريدة التي اهتدى إليها اليافعيون وابدعوا فيها مستفيدين، بصورة مثلى، من الحجارة الكثيرة في مناطقهم الجبلية، إذ نحتوا هذه الصفائح أو الألواح الحجرية ثم فرشوها فوق الأخشاب بشكل مُحكم ومتلاصقة بجانب بعضها البعض وعلى مستوى أفقي متناسق، بحيث تبدو للناظر إلى سقف الغرفة، من مقعده، وكأنها ذات مستوى واحد، أو أشبه بصفيحة كبيرة، وهي تعطي السقف متانة وقوة. (للمزيد من التفاصيل انظر "بناء السقوف الحجرية").



أنواع المباني اليافعية

تأخذ المباني السكنية التقليدية في يافع طابع المنازل البرجية الحجرية المتناغمة مع طبيعة المنطقة وتضاريسها الجبلية، وترتكز على قاعدة من أحجار الجرانيت الضخمة ويرتفع على هذه القاعدة البيت المكون من عدة طوابق، تصل في بعضها إلى ستة طوابق أو أكثر. وتتشابه أشكال المباني من حيث الشكل وتختلف فقط من حيث تفاوت أحجامها وسعتها، وقد ارتبط تقسيمها الوظيفي في ضوء احتياجات الأسرة وعدد أفرادها الذين كانوا يسكنون بصورة عامة في مسكن كبير واحد يضمهم جميعا.

يمكنٍ حصر المبانيِ التقليدية غالبا في يافع بثلاثة أنواع أساسية، تتخذ تصميماً تقليدياً وشكلا موحداً، وتختلف من حيث السعة والعُرض. وتُستثنى من ذلك الحصون والقلاع القديمة ذات الضخامة الكبيرة والملصيقة ببعضها في البناء. ونتحدث هنا عن الأنواع الرئيسية بالترتيب حسب تطور التصميم ووفقا لشكل المسقط الأفقي للمبنى، وهي[1] :

1- المبنى العادي (مربع المسقط) :

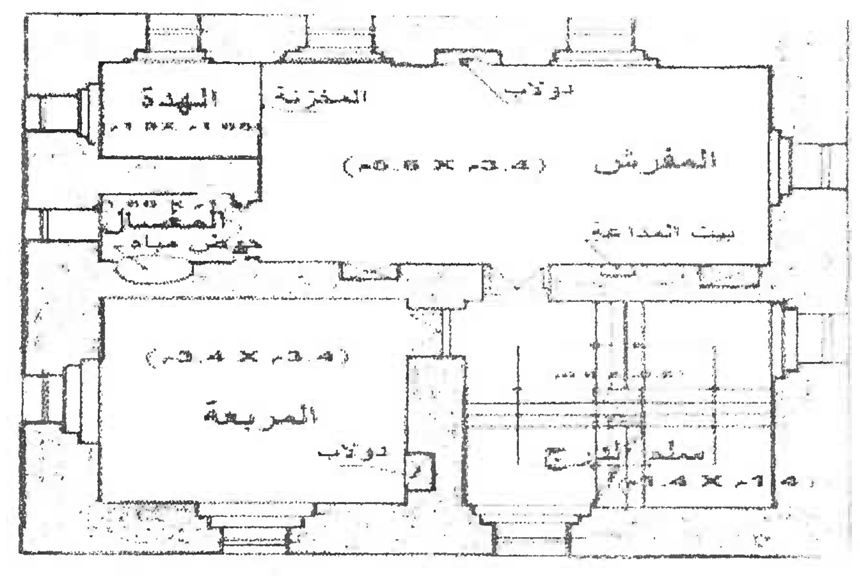


من أقدم أنواع عمارة يافع الحجرية وهو النمط التقليدي الأكثر انتشاراً حتى الآن، ويتألف كل طابق فيه من غرفتين (مفرش وعِليه) ومغسال وسُلّم(دَرَج) ذو ثلاث قلبات تكون فيه الحركة شبه دائرية على رُيَّان السُّلّم، ويتكون المبنى من عدة طوابق قد تصل إلى الخمسة أو الستة أو أكثر، وهذا يتناسب وتكاثر أفراد الأسرة الذي قد يصل عددهم إلى ثلاثين فرداً. ويُبنى هذا النوع كغيره من الأنواع الأخرى إما في فترة زمنية واحدة، وإما

---

1 - مرجعنا هنا في حساب المساحات والأطوال، وكذا رسوم مخططات المساقط الأفقية : المهندس علي مسعد عثمان بن شجاع: العمارة في يافع.

في فترات زمنية مختلفة حسب مقتضيات الظروف والأحوال، ويتم التوسع المستقبلي رأسياً فالأساسات تُبنى بطريقة واحدة على الجبل، سواء كان المبنى مكون من طابق واحد أو طابقين أو ستة طوابق. وابعاده الخارجية 9×9 أمتار مربعة.



رسم يوضح المسقط الأفقي للبيت العادي (مربع المسقط)

وارتفاع كل طابق يبلغ ما بين 2،7 - 3 أمتار من مستوى أرضية الطابق إلى سطح أرضية الطابق الذي يليه.

والمفرش هو الغرفة الرئيسية وتبلغ أطواله(4،3م×60،5م) بمساحة إجمالية تصل إلى

(19،02مترا) . وبالنسبة لأطوال الملحقات الأساسية في (المفرش) فهي:

المغسال أو المطهار= 12،1م×60،1م ، بمساحة إجمالية متران مربعان.

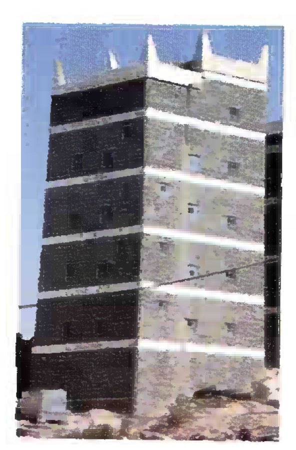
الهدِة: سرير النوم الزوجي65،1م×80،1م بمساحة إجمالية 3 أمتار مربعة.

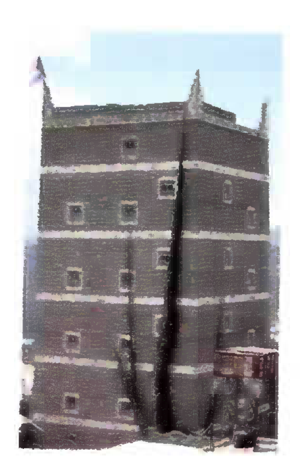
الخلّة: مخزن متعدد الأغراض بأرتفاع 1،4 م. وبنفس مساحة أريكة النوم الزوجية التي تعلوه(الهدِة).

أما الغرفة الثانية فهي (المُربَّعة/ العلّية) وتحتل رُبع مساحة الطابق وأطوالها (3،27م×3،27م) ومن هنا جاءت تسميتها (مربعة) ومساحتها الإجمالية 11،5 متراً مربعاً.

فيما يشغل السلّم (الدّرج) ربع المساحة الاجمالية للطابق. ومن مآخذ هذا النوع الغالب قصوره على غرفتين (مفرش ومربعة) على الرغم من ارتفاعه الراسي الشاهق وتعدد أدواره.







صور لنماذج من المبنى العادي- المربع



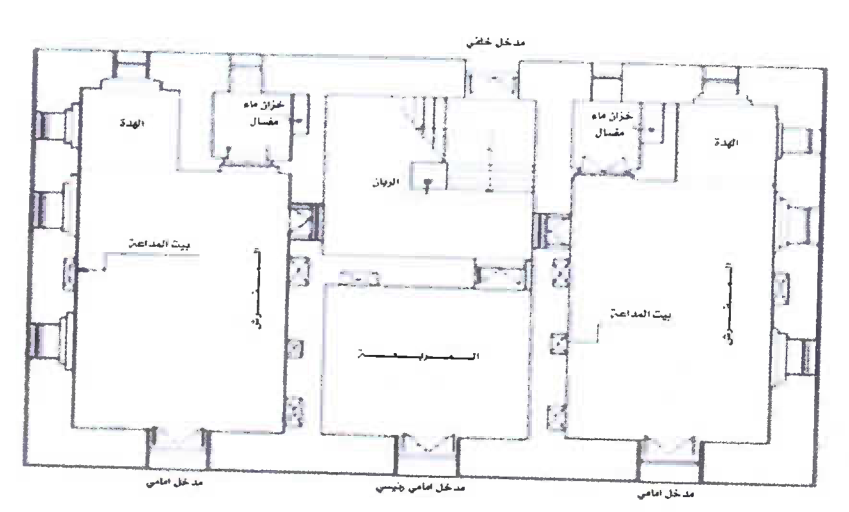




3- المبنى العَدَيْل (مستطيل المسقط)



في الفصيح:" عَديل: نظير ومثيل"[1]. وهذا النوع من المباني مستطيل المسقط واسع المساحة، وجاءت تسمية هذا النوع من المباني من تصميمها المتناظر والمتماثل في (المفرشين)، فقد جمع في هندسته النمطين السابقين(المربع، والمربع مع التطليعة)، وبعدد غرف مماثلة لهما حيث يتكون من مفرشين ومربعة(عليّة). ويشمل نفس الأحواز التقليدية من مرافق ومنافع وتقسيمات داخلية.



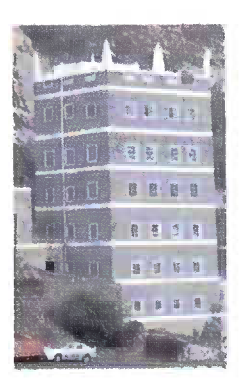
رسم يوضح المسقط الأفقي للبيت العديل (مستطيل المسقط)

1 - معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب،ط1، 2008م: 1468/2.

ظهر هذا النوع قبيل الاستقلال الوطني بسنوات قليلة، وهو شكل متطور في تصميم المباني السكنية، ويمتاز بكبر مساحته نسبيا، وارتفاع طوابقه، وقد يكون له مدخلين جانبيين إلى جانب البوابة الرئيسية، كما أنه إقتصادي من حيث تكلفة البناء، إذ يحتاج بناء المفرش الزائد فيه عن المبنى العادي إلى ثلاثة حيطان فقط ، لاشتراكه مع المربعة والدرجة في حائط واحد.

أما عيوبه فأنه يحتاج لمساحة كبيرة، كما أن الدرجة لا تكون مضيئة بنفس جودة النوع العادي لكونها محصورة بين المفرشين والمربّعة، وليس لها نوافذ إلا من جهة واحدة فقط.

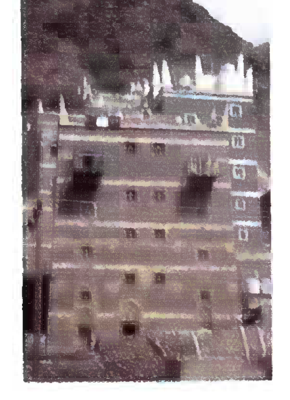












نماذج للبيت (العَديل) المفضل غالبا، وتظهر شرفتان مستحدثتان في المبنى الأخير

الهجرة وتأثيرها على التوسع العمراني

يشتهر اليافعيون في عصرنا بالهجرة إلى أصقاع مختلفة من الأرض، وقد عرفوا المهجر الهندي والأندنوسي، قبل أن تتعدد وجهتهم بعد ذلك إلى دول الخليج وبريطانيا وأمريكا ووصلوا إلى الصين وكندا وغيرها من المهاجر الجديدة، ويعملون غالباً في التجارة، ويتميزون بالقدرة على التكيف عند هجرتهم مع المجتمعات التي ينتقلون إليها ويظهرون تفوقهم وقدراتهم ومهاراتهم في تكوين أنفسهم واحراز النجاح في المجالات التي يختارونها لعملهم وحياتهم.

وهناك علاقة ارتباط حميم ووشائج محبة بين اليافعي ومسقط رأسه، الذي يُختزل بمسكنه الذي يأويه مع أفراد أسرته، ولهذا كان من بين أهم دوافع هجرته أن يشيد قصرا حجريا متميزا يُشار إليه بالبنان ويتألف من عدة طوابق يأوي أُسرته ويحميهما من ظروف وتقلبات الحياة.

وقد أثرت هجرة أعداد واسعة من اليافعيين إيجابا على التوسع العمراني، الذي ازداد بشكل ملحوظ خلال العقود الماضية، حيث تعطي عائدات الهجرة زخما وقوة لاستمرار النمو والتوسع العمراني، والتنافس في بناء القصور الحديثة الضخمة والجميلة، رغم انتقال الكثيرين للاقامة والسكن في بلاد المهجر أو في المدن داخل البلاد، إلا أنهم يشيدون مساكن فخمة، لا يأتون إليها إلا نادرا في إجازاتهم فقط.



ولا ندري ما سر تمسك اليافعي بالبناء في منطقته، رغم هجرته واسرته، هل نوع من الوفاء أو نوع من الاعتزاز والفخر، أو ربما لعوامل أخرى روحية ونفسيه ووجدانية، أو لأن ذلك جزء من شخصية الإنسان وانتمائه أو لمفعول الجمال الآسر للطبيعة الساحرة المتمثل بالارتفاع الشاهق والزراعة الأصيلة المتنوعة، أو لأن المنطقة تعتبر نقطة تجمع والتقاء موسمي لأبناء المنطقة بعد غربة وفرقة وبعاد فرضته لقمة العيش، أو أن قساوة الطبيعة انعكست في شخصية الإنسان اليافعي مما ولد عنده نوعاً من التحدي النفسي والفخر المتولد عن انتصار هذا الإنسان على هذه الطبيعة الوعرة الشاهقة، ربما هذا هو التفسير لهذا الهوس عند الناس بالبناء في تلك المنطقة للارتباط العميق في الوطن بشكل عام وبمنطقتهم بشكل خاص. وأيضاً هناك عوامل ساعدت على استمرارية هذا البناء، وهي: وصول الخدمات مثل: الطريق والكهرباء والمياه والتلفون وغيرها مما جعل يافع مصيفاً، فنجد المنطقة تزدحم بالسيارات الكثيرة، خاصة في الإجازة الصيفية، مما يجعلك تشعر بأنك لست في منطقة ريفية بعيدة وعرة.. ومعظم هذه السيارات لا تحمل لوحات الجمهورية اليمنية بل لوحات من دول الخليج والسعودية [1].



1 - طراز المعمار اليافعي في فن العمارة اليمنية، محمد محسن العمري، لقاء أجراه معه: محمد دحان و نُشر في صحيفة 26 سبتمبر ، العدد رقم 1147 ، الخميس 9 سبتمبر 2004م.

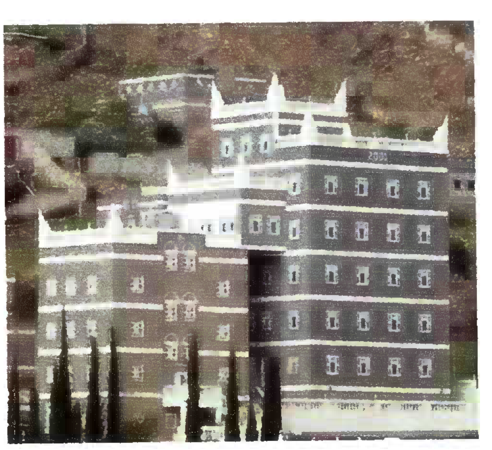
وارتباطا بالهجرة وتأثيرها على التوسع العمراني الملحوظ الذي لم ينقطع حتى اليوم، بل يزداد بقوة وبشكل ملحوظ، بحكم وصول طرق المواصلات الحديثة التي يسرت كثيرا من الأمور، فضلا عما اسلفنا من ارتباط اليافعيين الحميم بمسقط رأسهم وتنافسهم في تشييد القصور تجسيداً لهذا الارتباط. وإذا ما القينا نظرة على تلك الدور والقصور الحديثة الضخمة، التي شُيّدت في كثير من المناطق خلال الثلاثة أو الأربعة العقود الماضية، فسنجد أن أصحابها غالبا هم ممن يعيشون أو يعملون في المهاجر المختلفة، وفي النادر من التجار المحليين. ويمكننا الحديث عن نموذجين من هذه القصور الحديثة بإيجابياتهما وسلبياتهما، على النحو التالي:

(1) قصور حديثة تجمع بين الأصالة والمعاصرة



وهي تلك المباني الحجرية الحديثة المتميزة بضخامتها وسعتها وارتفاعها وبنمطها المعماري اليافعي بما تحمله من تطورات وتحسينات عديدة في الشكل والمضمون، منها ما هو في الجانب الوظيفي أو في تقسيم الفراغات الداخلية، مع المحافظة على أسس البناء والنمط الخارجي للمبنى ومثلت بذلك امتدادا متطورا للعمارة التقليدية الأصيلة، وهذا مؤشر مثير للإطمئنان، حيث نجد أن تلك العمارة الحجرية الحديثة استخدمت مواد البناء التقليدية (الحجر والأخشاب) إلى جانب مواد البناء الحديثة (الأسمنت والحديد)، وهذا النوع بدأ يحتل مكانة ملفتة للنظر، وميزته أنه زَاوَج بين الأصالة والتجديد، حيث احتفظ في هيئته الخارجية بالطراز المعماري اليافعي الأصيل، فيما أخذ بمتطلبات التطور من حيث سعة المساحات المستخدمة للبناء وتقسيم الفراغات المعمارية لتكون امتداداً لسابقاتها في المعمارة التقليدية مع اختلاف من حيث المساحة وزيادة عدد الغرف التي تتراوح

بين أربع وست وربما أكثر في كل طابق حسب إمكانية وقدرات أصحابها، وإدخال الخدمات الأخرى أسوة بالمدينة كالمياه والصرف الصحي والكهرباء، بما في ذلك المصعد الكهربائي، كما في قصر المرحوم الشيخ محسن عبدالرب الحريبي في "مسجد النور" الذي قُسّم من داخله على شكل شقق متكاملة هي الأولى في هندسة البناء اليافعي. وعلى مقربة منه في قرية "الطف" المجاورة لـ "مسجد النور" يرتفع قصران شاهقان، لأولاد عبدالحافظ الفقيه، غاية في الجمال، يجتذبان الأنظار ويثيران الإعجاب. وفي جبل اليزيدي يرتفعٍ في قرية (الشَّرف) قصر "الصهيبي" متربعا بضخامته وارتفاعه السامق ومطلا على قرى الجبل المتناثرة من حوله.



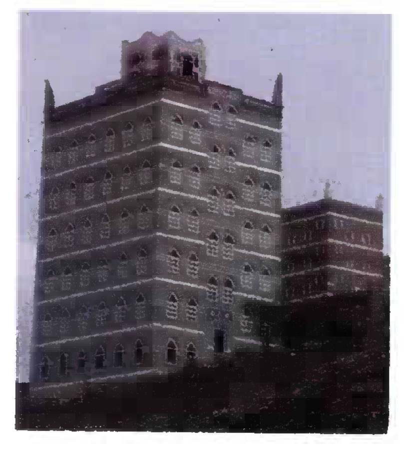
وفي القعيطي (قرية بُعالة) شيد أولاد عبيد ناصر عام 2001م قصراً تقليدياً في الشكل ولكن مع تحديث داخلي، وعلّق المُلاّك على ذلك بقولهم:"البيت هو ملك للكل من الخارج، ويخص ملاكه من الداخل"[1].

وفي قرية (شرف أوسان) الجديدة التي خرجت عن إطار القرية الأثرية القديمة شيَد الشيخ قاسم عبدالرحمن الشريف قصرا جميلا بالنمط اليافعي، وفي طرف مدينة الجُرية، حاضرة مكتب المفلحي، يستقبلك قصر (آل بَن ويس) الجديد بروعته وتناغمه مع قصرهم السابق المنيف المجاور له. وبالمثل تشمخ الدور والقصور الحديثة والجميلة ذات الارتفاع الشاهق والسعة الكبيرة كما في قرى: آل بن صلاح (الخلوة ،القندول، السُّحِلة ،البعلسية، ورساب)، وكذا قصور آل العبادي في قريتهم (رباط العبادي) وقصور آل عمر وهجر لبعوس النائفة وقصور جديدة كثيرة في (يهر) و(المفلحي) و(الموسطة) و(ذي ناخب) و(السّعدي) و(اليزيدي)، وقصر بديع في قرية (تُبرق)،

---

1 - العمارة اليمنية من حضرموت إلى يافع، ص23.

وهناك الكثير من الدور والقصور التي يتنافس في ابرازها المقتدرون وهو ما ينم عن إدراكهم لأهمية الحفاظ على الهوية المعمارية وخصوصيتها المميزة والفريدة وفي هذا فليتنافس المتنافسون.



قصر منيف في شرف أوسان



قصر حديث في قرية (ثبرق)

ولولا كثرة هذه القصور الحديثة الملتزمة بالنمط المعماري الأصيل لذكرت أصحابها جميعا، وهؤلاء يستحقون أن نشيد بوعيهم وإدراكهم لأهمية الحافظ على النمط المعماري اليافعي الأصيل بطابعه المميز الذي لا نظير له على مستوى العالم. وبمثل هذه القصور الضخمة التي استلهمت المعمار اليافعي الأصيل وتشهر ثقافته لقرون قادمة، يحق لنا أن نفخر ونتباهى، ولهذا نحيي ونقدر أصحابها ممن حافظوا على العراقة والأصالة دون أن يتخلوا عن ركب التطور ومساره الذي لا يعرف التوقف والجمود.

وهكذا بدأت تتبلور عمارة حديثة تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتتناسب مع التطورات التي يشهدها المجتمع في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية وتتلاءم مع البيئة المحلية والعادات والتقاليد،رغم بعض الملامح العابثة التي تضاف في بعض السطوح، مثل تغيير نمط التشاريف ببدائل اسمنتية وأشكال القبب وغيرها من الإضافات العشوائية التي يعتقد أصحابها أنها تميز بيوتهم، فيما تشوه جمالها الأصيل.



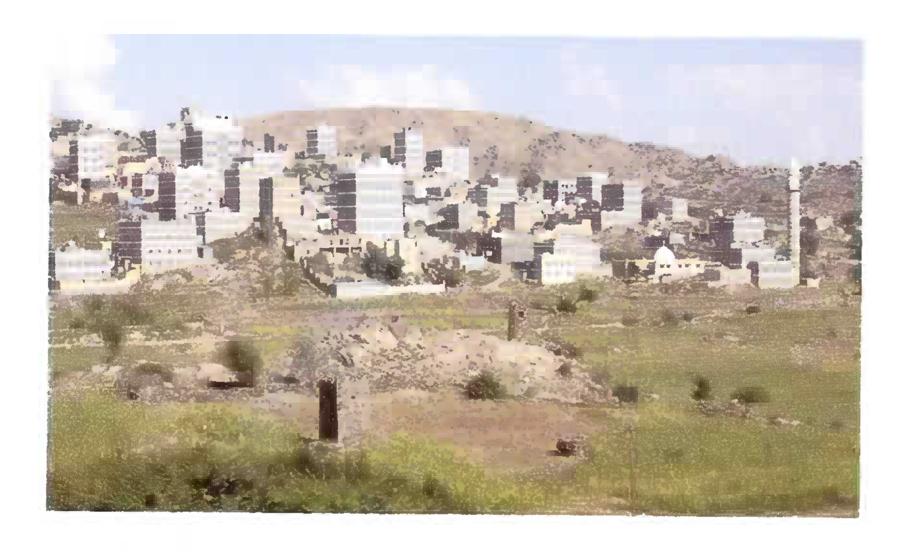
قصور حديثة جمعت بين الأصالة والمعاصرة- مسجد النور



قصور حديثة تزين موطن معلمي البناء آل بن صلاح



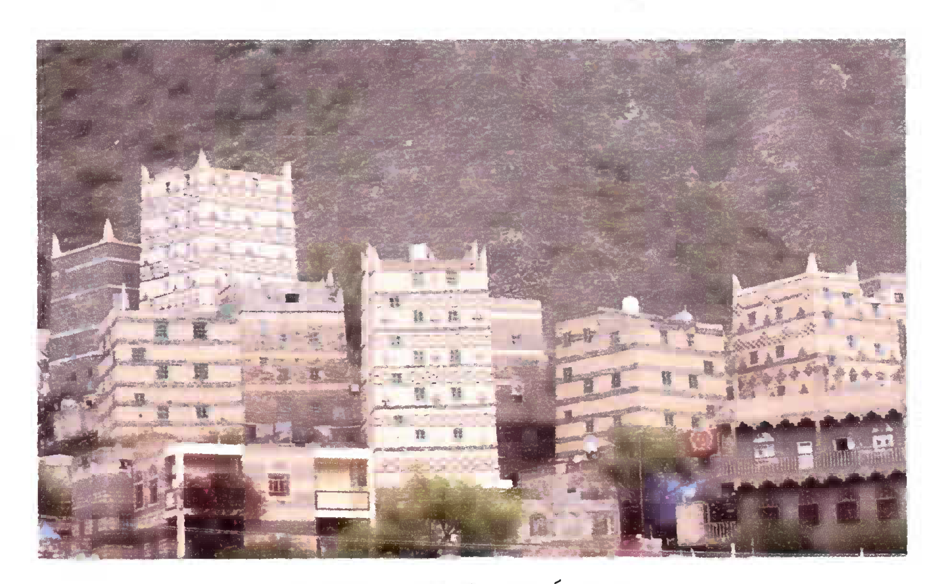
لقمر آل سعيد قصور حديثة بالمعمار اليافعي مع طغيان للبناء الاسمنتي



الخلوة (آل بن صلاح)- اصالة المعمار الذي لم تشوهه البنايات الاسمنتية



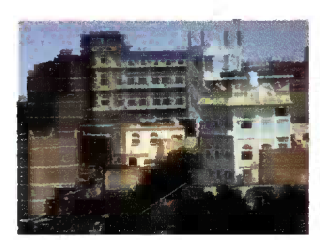
قصر الصهيبي الحديث يشمخ في أعلى جبل اليزيدي- قرية الشرف



عَبَر - موطن معلمي البناء المَهَرة من (آل السرحي) فرادة وأصالة- السعدي

(2) قصور أسمنتية حديثة مشوهة للطراز المعماري الأصيل

هذا النوع من العمارة الأسمنتية الدخيلة غيرَ مألوف ولا مأنوس ويختلف جذريا عن العمارة التقليدية والتراث المعماري اليافعي الأصيل من كافة النواحي سواءً في الشكل أو الوظيفة ويعتمد على الاقتباس الكلي أو الجزئي لكل ما هو مستورد من العمارة الغربية (العمارة الخرسانية) الذي لا يمت للبيئة المحلية والنمط المعماري اليافعي بأي صلة، ويعتمد كلياً على مواد البناء المستوردة والطرق الإنشائية الحديثة، الأمر الذي أدّى إلى إنتاج عمارة غريبة عن المنطقة تشكل كتلا معمارية تعتمد في إنشاءها على الخرسانة المسلحة (الحديد والاسمنت)، جعلت من الاقتباس العشوائي للعمارة الأوروبية والغربية أساساً في تكوينها وهيئتها وطابعها المعماري ونمطاً معماريا لا يستطيع التلاؤم مع بيئة معمارية خصبة ذات طابع فريد ومتناغم مع كل النواحي[1].





قصور اسمنتية حديثة لكنها في غير بيئتها، بل تشوه جمال الطراز اليافعي الأصيل





والحقيقة إننا نشعر بالأسى والحسرة ونحن نشاهد غزو البنايات الخرسانية الغريبة على هويتنا المعمارية المميزة، بل أنها تشذ وتتنافر مع محيطها البيئي

1 - العمارة الحجرية في يافع: أحمد ابراهيم حنشور، مجلة جامعة عدن للعلوم الطبيعية والتطبيقية، المجلد (16)، العدد(3)، ديسمبر 2012م، ص 545.

والحقيقة إننا نشعر بالأسى والحسرة ونحن نشاهد غزو البنايات الخرسانية الغريبة على هويتنا المعمارية المميزة، بل أنها تشذ وتتنافر مع محيطها البيئي وتبتعد عن أصولها سواء في المواد المستخدمة أو في الشكل الخارجي. ويمكن القول إن هذا اللون من العمارة الاسمنتية الذي اتجه إليه البعض من الميسورين والمقتدرين ومشايخ وأعيان ووجاهات اجتماعية، يمثل كما قالت المهندسة المعمارية سلمى الدملوجي " إنحراف وإهانة للبيت اليافعي"[1]، فهل يرضينا أن نهين أنفسنا أو نشوه هوية معمارنا الأصيل؟!.. وهل من العراقة والأصالة أن نتنافس على بناء قصور خرسانية من الاسمنت والحديد؟!. وهذه الظاهرة بدأت تغزو مدننا وقرانا اليافعية وإذا ما استمرت دون أن نتنبه لمخاطرها فقد تقضي تدريجيا على خصوصيتنا المعمارية الأصيلة.

وهذا ما نلحظ بوادره جليا في معقل معلمي البناء اليافعيين (آل بن صلاح) حيث اتجه البعض منهم، رغم قلتهم حتى الآن، إلى بناء عمارات خرسانية – اسمنتية متعددة الأدوار.. ربما بدون وعي منهم، وينطبق عليهم في هذا المضمار القول اليافعي: "اختسف من حيث الوثيق". وقس على ذلك قرية "عنتر" التي تكاد تفقد اصالتها المعمارية لطغيان العمارات الاسمنتية الدخيلة ذات الاتفاع الشاهق التي أخفت كثيرا من بيوتها الحجرية الجميلة ومسجدها التاريخي، بحيث تسيّدت البنايات الخرسانية الغريبة والمغايرة لملامح وطراز معمارنا اليافعي الأصيل، وتبدو، رغم ضخامتها، شاذة تفسد جمال ما حولها من معمار أصيل وعريق.. وهذا التشويه.. يفهمه أصحابه، مع الأسف الشديد، وكأنه تحديثٌ.. دون وعي منهم أنهم بذلك يشوهون قراهم ويقضون على جماليات الطراز المعماري الأصيل..وبالمثل نجد العقود والزخارف الحجرية الخارجية تستبدل بالقمرية المجلوبة من (الجص) أو (الألمنيوم) وهكذا نخشى أن يختفي تدريجيا النمط الأصيل الذي ساد لقرون طويلة إذا لم نتنبه لذلك.

كما يلاحظ أن البنايات المتبعة للمحلات التجارية في الأسواق العامة في عموم يافع (سوق السلام، سوق 14 أكتوبر، سوق بني بكر، سوق يهر وسوق رُصد)، تشذ بمعمارها الخرساني الدخيل وبصورة قبيحة وفجة عن محيطها المعماري بنمطه التقليدي الأصيل، يضاف إلى ذلك مباني المؤسسات الحكومية والمدارس والمستشفيات والمساجد الحديثة التي تُبنى على انقاض القديمة إلا فيما ندر.

---

1 - انظر : العمارة اليمنية من حضرموت إلى يافع، ص23.

نماذج لبنايات حديثة لا تمت بصلة للمعمار اليافعي – أسواق ومباني خاصة



سوق الصفاة - كلد



سوق 14 أكتوبر- الموسطة



سوق رصد



منظر من العرقة –ذي ناخب



مجمع المَحمَل التجاري الحديث ومحيطه في سوق 14 أكتوبر- الموسطة



الفصل الثالث

طُرُق وتقنيات

بناء البيت اليافعي



ختيار الموقع على جانبي مجرى السيل - وادي حطيب



اختيار مواقع البناء دون المساس بالأراضي الزراعية _ بعض قرى القعيطي

الفصل الثالث

طُرُق وتقنيات بناء البيت اليافعي

طُرق أو تقنيات البناء هي الأساليب المستخدمة في العمارة بجوانبها المختلفة، وتبدأ باستخراج أو قطع الحجارة من المحاجر ونقلها، مروراً بعملية تشذيبها وصقلها، وتنتهي باستخدامها في عملية البناء، إلى جانب الأساليب المستخدمة في بناء الجدران ورصف الأرضيات والتسقيف وما يشمله من تثبيت العوارض وتصريف مياه الأمطار من السقوف[1].

يجسد المعمار الحجري الشاهق الذي تتميز به يافع حقيقة أن اليافعيين الذي شيدوا تلك الدور والقصور الحجرية المتشابهة أصحاب مهارة وذوق في هذا الفن المعماري الفريد الذي يتجلى فيه الإبداع والأصالة والإتقان في التخطيط والبناء وأساليب التزيين والزخرفة، فضلا عن القدرة في المزج بين كل هذه العناصر وتحقيق الانسجام فيما بينها، وكان وما يزال محتفظاً بأصالته وعراقته وتميزه بخصائص فنية ظاهرة وصفات رئيسية استمدت أصولها من البيئة والطبيعة المحلية منذ أقدم العصور.

ومما يثير العجب والدهشة أن مواد البناء كانت إلى ما قبل بضعة عقود محلية بالكامل 100٪، وأن الأحجار التي بنيت بها على اختلاف أحجامها، بما في ذلك الصخور الكبيرة المستطيلة (السحابيل)، قد استخرجت من المحاجر الجبلية(المناقيش) ونُقلت بطرق بدائية من الوهاد أو سفوح الأودية وفي طرق جبلية صعبة الارتقاء حتى تستقر في مواضعها على جدران البيوت المشيدة بطريقة يدوية أيضاً. وأتذكر أن أحد الزوار الأجانب في مطلع السبعينات من القرن الماضي انذهل ولم يصدق أن (ناطحات السحاب الحجرية) التي أدهشته وأسرت لُبّه، قد بنيت بطرقٍ يدوية، وحجر فوق حجر، دون استخدام أية تقنية حديثة بكامل مراحلها، بدءا من نحت الأحجار وتسويتها ثم نقلها وحتى تشييد البيوت الشاهقة، وبقيت علامات الشك والريبة على محياه، ولم يتخلص من

1 - الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم، د.منير عبدالجليل العريقي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2002م: ص149.

دهشته إلا حين رأى بأم عينيه عملية تشييد أحد القصور في معقل معلمي هذه الحرفة (آل بن صلاح) ورأى كيف يحمل الناس الحجارة على ظهورهم.



وعلى الرغم من دخول الآلات المساعدة في تفتيت مقالع الحجارة وفي النقل، في الوقت الحاضر، إلا أن طريقة البناء ما تزال تقليدية، ويظل العمل اليدوي هو الأساس في تشييد المباني الجديدة التي ترتفع أعمدتها وجدرانها حجرة فوق حجرة حتى تصل إلى خمسة أو ستة طوابق أو أقل أو أكثر من ذلك، وقد يتم البناء كاملا أو على مراحل حسب طلب وقدرة صاحب البيت.

وللتعرف على تقنيات ومواد البناء التي تهيمن على نسق وملامح هذا الفن المعماري الفريد والرائع، نلج بالقارئ في مفردات البيت اليافعي لنتعرف على طُرق وتقنيات البناء منذ الخطوات الأولى التي يتم فيها اختيار موقع البيت ومن ثم الحصول على الحجارة اللازمة للبناء، مرورا بوضع حجرة الأساس وحتى شموخ (التشاريف) في أعلى البيت وإيقاد النار في مطبخه (الدَّيمة) وإضاءة الأنوار في نوافذه (اللِّهُوج) عند سكنه.

(1) اختيار موقع البناء (العرصة)

العرصة وجمعها عِرَاص، هي المساحات التي يملكها المرء سواء بجانب بيته أو في حدود أرضه الزراعية مما لم يتم البناء فيها بعد. وفي الفصيح: "العَرْصة وجمعها عَرَصاتُ كل بُقْعةٍ بين الدور واسعةٍ ليس فيها بناء. وقيل هي كل موضع واسع لا بناء فيه". وكان اليافعيون يعتنون في اختيار العرصة، ربما قبل مدة طويلة على شروعهم في البناء، ويراعون اعتبارات عدة، منها قربها من البيت القديم إن كانت هناك مساحات واسعة تفي بالغرض، أو الانتقال إلى موضع أفضل يوفر السعة والراحة إن كانت المساحات المجاورة للبيت القديم ضيقة، كما يراعى استواء المكان، وموقعه المرتفع على ربوة جبلية أو في بطن الجبل، أو على متنة صلبة وهو ما يوفر لساكنيه الشعور بالأمان والمنعة والسيطرة على المبنى وما يحيط به.

وإجمالاً كان الناس في الماضي يفضلون الأماكن المرتفعة، على سفوح وقمم المرتفعات الجبلية، وكان ذلك مصدراً للفخر والاعتزاز، وضرورة تفرضها دواعي الأمان بحكم الحروب والفتن القبلية التي كانت سائدة، وهو ما تؤكده القرى والحصون القديمة المشيدة في شناخيب الجبال وشماريخها العالية التي أهمل الكثير منها خلال العقود الأخيرة وانتقال الناس إلى الأماكن المنخفضة وعلى ضفاف الأودية لتوفر شروط الأمان والقرب من طرق المواصلات.



ولا يبني اليافعيون بيوتهم في الأراضي الجبلية الرخوة (المتنة الرَّاخي) لعدم صلابتها أو في التربة الصالحة للزراعة، لندرة مثل هذه الأراضي ولحاجتهم لها لاستغلالها في الزراعة التي كانت عمود حياتهم ومعيشتهم، ولذلك يختارون الأرض الصلبة المستوية التي لا تحتاج إلى الحفر العميق لأساسات البيت لأن الصخور تكون واضحة على سطح الأرضية (العرصة). أما في الأودية العميقة حيث تقل المساحات المستوية، فقد كانوا يؤثرون، في الماضي، القمم والتلال الجبلية والهضاب المرتفعة، كما هو الحال في الأودية العميقة (يهر، حطيب، ذي ناخب، معربان، العرقة).

أما في الوقت الحاضر فقد هجر معظمهم الأماكن المرتفعة، ونزلوا أكثر إلى الأسفل، بعد أن توفر الأمان وطرق السيارات، لكنهم لا يمكن أن يأمنوا جانب السيول الغادرة التي تجرف في طريقها كل عام قطعا عزيزة عليهم من

مـدرجاتهم الزراعيـة الـشهيرة بانتـاج البُـن، رغـم مقـاومتهم بوضـع حـواجز ومـرادع يكـون الـسيل العـارم في بعـض الحـالات هـو المنتـصر عليهـا[1]، ولهـذا الـسبب فـإن النـاس في هذه الأودية يراعون عند تشييد بيوتهم الابتعاد قدر الإمكان عن مجـرى الـسيول في الأوديـة أو المواقـع المعرضـة لانـدفاع الـسيول الجارفـة. ونظـرا لانعـدام المـساحات المـستوية، فـأنهم يـضطرون لنحـت مواقـع البنـاء (العرصـة) في بطـن الجبـل، وتكـون تكـاليف تـسوية الأرضـية في مثـل هـذه الحـالات باهظـة. وتـشغل مساحة البيت اليافعي التقليدي عادة ما بين 10- 12 متراً مربعاً، ويُستثنى من ذلـك البيـت (العـديل)، أو البيـوت الحديثـة الأكثـر اتـساعا. وباختيـار العرصـة وتمهيدها تتم الخطوات اللاحقة.





تكاليف تسوية العرصة والحفر في المواقع الصخرية مكلفة جدا



1- الأصالة في المعمار اليمني، ص 6.

كيفية الحصول على العرصة:

فرضت الحاجة للبناء على السكان عادات وممارسات اجتماعية، فلكل قرية حدودها المقدسة، وساحاتها الفاصلة، وهناك أراضي لا تُمس ولا يعتدى عليها أو يتم البناء فيها، منها الأراضي المخصصة للزراعة، وأراضي الوقف(سبيل)، والمقابر..الخ. ولكن في إطار القرية وفي المساحات والمواقع غير الزراعية فإن البناء متاح لأفراد العشيرة كافة، ويكون لصاحب الأرض مجرى الماء فقط، وليس من حقه أن يحتكر الأرض أو يبيعها، إلا فيما ندر. وإذا بنى الشخص في مسقى غيره فأنه يحرص أن يكون مسار الماء في اتجاه صاحب المسقى، وإذا كان المبنى بين مسقى مشترك لشخصين فأنه ملزم أن يراعي هذه المسألة ويكون ميلان سقف المنزل موزعا في اتجاهين لتصريف مياه الأمطار حسب حصة أصحاب المسقى.



وكانت عملية الحصول على المساحة التي سيقام عليها المبنى(العرصة) لا تكلف طالبها أي عناء معنوي أو مادي، بل كانت غالبا تمنح هبة من قبل المالك لصاحب الحاجة. وكان صاحب الحاجة يتجه بطلبه إلى جاره القريب أو صاحب الموقع بشكل مباشر حيث يتجه إليه شخصيا ويقدم طلبه مشفوعاً بدّلة (قهوة) من البّن اليافعي الشهير، وهذا تعبير رمزي وعادة متعارف عليها يبادر بها صاحب

الحاجة فلا يُرد طلبه. وقد يتطلب الأمر عند ممانعة البعض لأي سبب اللجوء إلى وسيط من ذوي التأثير فيطرح الجاه وهو عُرف قبَلي يلجأ إليه ذوو المكانة والمنزلة الاجتماعية عند مبادرتهم في مثل هذا الأمر ونحوه لإقناع صاحب الأرض حيث يرمي الوسيط شيئاً من مقتنياته كعمامة الرأس أو الشال أو الجنبية، بين يديه ويقول مخاطباً إياه: بذا الجاه عليكم، وعادة ما يتم قبول الجاه. وإذا لزم الأمر وكان صاحب الأرض في حاجة مادية يتم شراء الأرض بثمن معقول[1].

وفي ظل سيادة سلطة الدولة الوطنية منذ الاستقلال الوطني وحتى تحقيق الوحدة عام 1990م آلت مسألة توزيع قطع البناء إلى الدولة، مقابل تراخيص موثقة ورسوم معقولة، أما بعد ذلك وتحديدا بعد حرب صيف 94م، فقد تغير الوضع وأصبح أصحاب الأرض ومساقي المياه هم المتحكمون بها، وفي ظل اللهث على تسوير واقتطاع مساحات أكبر، سواء للحاجة الملحة للبناء أو لمجرد حجز المساحات والبسط عليها، أصبح سعر الأرض عرضة لسياسة العرض والطلب، فلا بقي العُرف القبلي ولا ساد نظام الدولة، حتى أن قطع الأراضي بجانب الأسواق الرئيسية خاصة في هضبة لبعوس- الموسطة – المفلحي تضاهي أسعار العقارات في المواقع الهامة في عدن، فضلا عن العشوائية في البناء التي لا يحكمها قانون أو يردعها رادع، مما أدى إلى تضييق طرق السيارات في داخل الأسواق والقرى والتجمعات السكانية إلى حد كبير.

التعريص:

من العادات التي كانت شائعة في الماضي ما يُسمى بـ"التَعْرِيْص" وهي أول خطوة يتم الإقدام عليها بعد اختيار العرصة المخصصة، حيث يتم استشارة خبير يدعي معرفته بالنجوم والطوالع ويقوم بفحص العَرَصَة وتحديد مدى صلاحيتها للبناء من عدمه، وقد تكون البقعة المختارة مناسبة جداً من الناحية الطبيعية ، لكن هذا لا يكفي، فلا بد أن تكون خالية من كل شرور المس والجن، وبعد أن تجدد العرصة يتم ذبح فدية راس غنم قبل وضع حجر الأساس[2]. ومن طرق التحقق من صلاحية الموقع الخاص بالبناء أنهم كانوا يضعون في مساء اليوم الأول، وتحديداً وقت صلاة المغرب، بيضة في كل ركن من أركان أساس

1- انظر :الحضارة اليمنية وناطحات السحاب الحجرية ، عبداللاه سالم الضباعي، د ار الوفاق، عدن، ط1، 2011م، ص209.
2 - ناطحات السحاب الحجرية(استطلاع صحفي)، قاسم عبد المحبشي، نُشر في (الثقافية) الملحق الأسبوعي لصحيفة (الجمهورية)، تعز، العدد 48، 49، يونيو 2000م.

الموقـع الـذي وقـع عليـه الاختيـار، خاصـة في المواقـع ذات الأرضيـة الرخـوة غـير الصلبة، فإذا جاء صباح اليوم التالي وقد فقست البيضة أو تغير لونها أو انتقلت من موقعها إلى مكان آخر فأنهم لا يحبذون ذلك الموقع ويختارون غيره.

وممـا كـان يـدخل الـشكوك في نفوسـهم بعـدم صـلاحية (العرصـة) وجـود نملـة(ذَرَّة) سـوداء يتشاءمون منهـا، أمـا النملـة الحمـراء فيستبشرون بهـا خـيرا، ويرجـع الـسر في ذلـك كـون النمـل الأسـود ينخـر في التربـة وتتخلخـل الأساسـات أما الحمراء فلا خوف منها[1].

في الوقـت الحاضـر، ومـع ظـروف الأمـان والتطـور الـتقني، لم يعـد أحـد يلتفـت لتلـك العـادات، فالمهم الحصول على الأرضية (العرصة) المناسبة للبناء، خاصـة في منـاطق الكثافـة الـسكانية، كمـا هـو الحـال في هـضبة لبعـوس- الموسـطة – المفلحي، وكذا في مرتفعات جبل اليزيـدي أو جبـل لَمْطور أو علـى جـانبي الأوديـة الزراعية التي تنعدم أو تضيق المساحات المتوفرة للبناء فيها، مثل: وادي يهر، وادي ذي ناخـب، وادي حمومـة، وادي حطيـب، وادي معريـان، وادي تـي اللـب..الخ. بـل وللأسـف الـشديد أن الـبعض قـد لجـأ إلى البنـاء في القطـع الزراعيـة، خاصـة في المناطق المجاورة للأسواق الرئيسية لاسعارها المغرية التي لا تقاوم.

(2) استخراج الحجارة وتشذيبها (النقاشة):

النِّقَاشة: هـي نحـت أو اسـتخراج الحجـارة وتـشذيبها وتجهيزهـا للبنـاء بطريقـة فنيـة بحيـث تـنعكس في لوحـة الجـدران بغايـة مـن الدقـة والإتقـان. وفي الفـصيح، نقَش الحجـرَ ونحـوَه: نحتـه، والنقّـاش: مَـن حرفَتُـه النَّحـت والحفـر، قـال تعـالى {وَتَنْحَتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا} .

والنِّقاشـة هـي الطريقـة الـتي يتبعهـا اليـافعيون في اسـتخراج الحجـارة اللازمـة للبناء بمختلف مقاساتها وأحجامها من "المِنْقَاش"، وهو المحجر الذي تُقطع منـه الحجارة، ويُفضَّل أن يكون في مواقع قريبة من قراهم وتجمعاتهم السكنية، ومثـل هذه المحاجر كثيرة في يافع التي تتميز بكثرة سلاسلها الجبلية التي تـستخرج منها الأحجار ذات الأشكال والألوان المختلفة فمنها الرمادي الداكن المائل إلى الأزرق ومن أهم أصناف الحجارة: الحجر الجيري والرخام والمرو..الخ.

1- يافع بين الأصالة والمعاصرة اليمنية، محسن بن محسن ديان، إصدار منتدى يحيى عمر الثقافي، 1995م: ص144.

وقد مَهَر اليافعيون منذ أقدم العصور في نحت الأحجار والصخور الجبلية بأنواعها، ولانت قساوتها أمام هممهم وعزمهم وتفننوا في تهذيبها وتشكيلها.



يقوم النقاش باستخراج الحجارة ذات الأشكال والأحجام المختلفة حسب الحاجة إليها عند البناء فمنها: حجارة الوجه(الظهارة)، والبطانة، والركن، والصَّلا، والأعمدة الحجرية المستطيلة (السَّحَابيل- كما في الصورة). ثم يقوم بعد ذلك بتسوية وتهيئة واجهات الحجارة، وتُسمى هذه العملية "تمثيل الحجر" وهو ما يُعرف في لهجة مناطق أخرى "توقيص الحجارة". يقال: مَثَّل الحجر، أي أتقن تهذيبها وتسويتها والتخلص من زوائدها لتتجانس مع بعضها، خاصة "الظهارة" التي تكون في واجهة المنزل .

وقد تغنى الشعراء بذلك، كما في قول الشاعر طاهر عثمان السليماني:

وبن عثمان طاهر قال ببدع وطرَّحَتْ المباني والحجاره

وبيدي مطرقه لوشي تصرَّع ومثَّلت الحجر ذي هي ظهاره

ويقول الشاعر قاسم عوض المحبوش القعيطي:

عاد للحيد نَقَّاشَه وباني يجانس والمعاني مَبَاني والمباني على الساس

وكانت طُرق استخراج الحجارة عملية شاقة، وهي من أصعب الحرف ويضطلع بها خبير ماهر يسمى (النَقَّاش)، وهو متخصص في فلق ونحت الأحجار وتسويتها وتهذيبها، وإلى جانب قوته البدنية يمتلك الخبرة اللازمة في تطويع الحجر، وأجره مُغرٍ ، إذ لا يفوقه إلا الباني، وكلما كان النقّاش ماهرا

كان أجره أكثر. ويوجد في كل قرية حرفيون متخصصون في هذا العمل الشاق، كما في كل الحرف والمهن الضرورية الأخرى.

أما الأدوات التي يستخدمها النَّقّاش فتتمثل في الزُبرة وهي كتلة كبيرة من الحديد، والصَّبرة وهي قضيب معدني طويل وسميك، ملء قبضة اليد، يستخدم لـ(تعويد) الكتل الكبيرة من الأحجار أي زحزحتها وقلعها، والمطرقة، والفَرَاصْ (الأزميل) وهو خابور أو قضيب من الحديد مستدير ومدبب من أحد طرفيه ويُنْقر به الحجر عند نحته من الجبل بالضرب عليه بواسطة الزُّبرة.



وغالباً ما يكون إلى جانب (النقاش) شخص آخر يعاونه في عمله يُسمى (بَتُول) ومهمته أن يمسك بيده (الفراص) أثناء الطرق عليه بالزبرة من قبل (النقاش) ومساعدته في قلع الأحجار من منبتها بواسطة الزبرة،ومن مهامه تقليب الحجارة المنحوتة وتجميعها جانباً أو فوق بعضها البعض.

يتحاشى النقّاش الجبال الصلدة الملتصقة ببعضها لصعوبة استخراج الحجارة منها، ويفضل المحاجر الأسهل في الجبال التي تكون طبقاتها متوازية، إذ يسهل فصلها وقطع كُتل الحجارة بواسطة الزبرة والفراص، ولهذا يبدأ أولاً بكشف الطبقة أو الكتلة المراد قطعها، ثم يعمل تجويفا عميقا، يضع فيه الفِرَاص ويطرق على رأسه بواسطة الزبرة بصورة متكررة حتى تنفصل الكتلة أو يغوص الفرَاص فيلقم الكتلة بحجارة في داخلها ثم يواصل توسيع الفجوة حتى تنفصل الكتلة الحجرية الكبيرة.

أما إذا كانت الكتل الصخرية شديدة الصلابة فإن النقاش يتتبع مسار خط الفلق فيها، وهي ما تُعرف لديهم بـ(الشَّعرة) وهي خطوط من أصل تكوينها، وليست شروخاً أو شقوقاً بيِّنة، لكنه يهتدي إليها بخبرته ثم يواصل الضرب على

نفس مسار خط الشعرة فيفلقها مهما كانت صلابتها، وقد يضطر إلى إشعال النيران في تجاويفها وأخاديدها بوضع قطع القماش الرثة أو الحطب حتى تلين ويسهل فصلها وتقطيعها حسب الأحجام المرغوبة والمطلوبة. كان هذا قبل دخول التقنية الحديثة في مقالع الحجارة خاصة آلة النقر (الكمبريشن) وأصابع الديناميت..الخ، التي يسَّرت قطع الحجارة بصورة أسرع، ومكنت من التحكم بسهولة في حجم وشكل الأحجار (كما في الصورتين أدناه).





وبعد أن تتجمع الكميات الكافية من الحجارة كان يتم نقلها من (المنقاش) إلى عرصة البيت المحددة بطريقة التعاون الجماعي (المَعوَن) على ظهور الحمير أو الجمال وأحياناً على ظهور الناس، خاصة حين يكون مقلع الحجارة قريبا من موقع البناء. وما زال الحال كذلك في بعض المناطق الجبلية الوعرة التي لم تصل إليها طرق السيارات حتى الآن.





خطوات البناء

(1) حجارة الأساس

تُسمى باللهجة (حجرة السَّاس)، أو (الوثر/الموثور)، وهي من الفصيح (الواثر: الثابت على الشيء. والوَثْر: صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت من وثُرَ). والوثر، أو حجارة الساس هي الصف الأساس الذي يثبت عليه بنيان وامتدادات البيت من الحجارة المتراصة. يقول الشاعر محسن محمَّد بن أبو شامه العيسائي:

والساس وثّق لا تخاف الرّدَاف ولا توثر له حجر رقّاله

وتوضع الأساسات عادةً على أرض صخرية، ذات استواء وقد يحفر في التربة بعمق مناسب حتى الوصول إلى الصخر. وفي هذا المعنى يقول الشاعر صالح سند اليزيدي:

يا صاحب العقل سوّس في صفا يابس

من المطر لا يجي وانّه وصل عالساس



وأول حجر يقوم بوضعها الباني في أساس البيت هي حجارة الأركان، حيث يتأكد من توازنها بقياس المسافات والأبعاد بينها، من خلال خيط مشدود يصل بينها طوليا وأفقيا، وقياس أبعاد زواياها بشكل متقاطع، وعلى ضوء ذلك يثبت حجارة الأركان، ثم يستكمل وضع حجارة الصف الأول من البناء.

وانطلاقاً من موقع وزوايا حجارة الأركان يقوم معلمو البناء بعمل واحتساب مقاسات وموازين كل حجر يضعونها في المبنى وصولا إلى كل صفّة والى كل دور بكامله. وتوضع الحجارة فوق بعض بشكل دقيق بحيث تضمن الترابط والتوازن. ومقاسات المبنى مُحكَمة ودقيقة في الأطوال والارتفاعات وقطر الغرف والدرج وفي المبنى بأكمله وبطرق تقليدية حيث يتم ضمان دقتها منذ وضع

حجر الأساس (حجرة الركن). ومع إن كل طابق تقل مساحته كلما ارتفع البناء فان قطر المبنى بين أركانه الأربعة محسوبة بدقة متناهية تضاهي مقاسات المباني الحديثة، علما أنه لا يستخدم في قياسها إلا وسائل قياس تقليدية وخبرة معلمي البناء المتوارثة والمكتسبة. وأهم وسائل القياس كانت الخيوط المربوطة إلى طرفها بثقالة من الحجر وذراع البنَّاء ونظره الثاقب. وتشمل المقاييس ارتفاعات كل دور والتي قد تختلف قليلا عن بعضها وكذلك ارتفاع الدرج ومواقع وارتفاع الأبواب والنوافذ[1] .



والقواعد التي تحمل ثقل البناء تتكون، غالبا، من أحجار ضخمة ذات صلابة كافية أو جلاميد صخرية، وقد يطلب صاحب البناء المساعدة من أهل القرية أو من اقربائه لتحريكها ووضعها في مكانها المناسب في أساس مدماك البيت، وتبدو بضخامتها أشبه بجلاميد صخرية لا يصدق من يراها أنها انتصبت بطُرق يدوية بدائية، وهي تتحمل ثقل البناء الواقع عليها.

وتُعهد مهمة بناء الأركان لأفضل وأمهر البنائين، ويقوم باختيار حجارة الأركان بعناية قصوى من أفضل الأحجار من حيث استوائها وتناسق حوافها التي يتشكل منها ركن البيت، وتكون مستطيلة الشكل، وقد يضطر البنَّاء لتشذيبها وصقلها لتتناسق مع الحجارة المجاورة لها والتي تسمى (عايد الركن، وجمعها عوَائد) وتكون امتدادا لها من الجهتين، وإلاّ اختل البناء. ويقول زامل شعبي يخاطب أحد البنائين من (آل بن صلاح) الذين اشتهروا في هذه المهنة في يافع وما جاورها:

1- المعمار اليافعي طراز فريد في العمارة اليمنية، محمد محسن العمري، مجلة (تراث) العدد 96، نوفمبر 2006م:ص 82-83.

يــا بَــنْ صــلاح إنْ الحجــر عــاجز   هَــاتْ افرصِــهْ للحيــد مــسقِيِّه[1]

ذي يخــرجين الظّبْــر والعايــد   وَا تْعْجِبــك لرْكَــان شــرقيه

وكانت العادة المتبعة أن تُوضع (أحجار الساس) في يوم الأحد، للاعتقاد بأن الله بدأ خلق الأرض في يوم الأحد وانتهى من خلقها في يوم الجمعة، أي في ستة أيام ثم استوى على العرش. وكانوا يذبحون فدية من الأغنام عند وضع حجرة الأساس، وقد تلطخ تلك الأحجار بدماء الضحية لطرد الأرواح والشياطين وعدم تمكينها من سكون أساسات البيت الذي يُشيَّد لتوه. وجرت العادة أيضاً على ذبح رأس غنم على كل عقد يتم انجازه وعند طرح أول (خشبة) في كل سقف كامل للدور الواحد[2]. [كما في الصورة].



وفي هذا المعنى قال الشاعر حسين محمد العارف، يمازح أحد أصدقائه عند تشييد منزله:

ســـلام للعامـــل وللبـــاني   وألفـــين لأهـــل الـــدار تتـــوزع

بحـــسُب لكـــم بالمُعمَلـــه موســـم   عيني علـــى الطاقـــه متـــى تلمـــع

فرد عليه صاحب البناء، معاتبا إياه على غيابه، ومؤكداً أنه قد ذبح أربع أغنام عند وضع قواعد الأساس:

يـــا مرحبـــا حيـــا بـــذي جانـــا   مـــا صـــيَّف الـــوادي ومـــا يـــزرع

1 - مسقية: أي تم وضعها بالماء بعد اخراجها من الكير لتتصلب

2 - يافع بين الأصالة والمعاصرة اليمنية، محسن بن محسن ديان : ص 144.

وين أنت غائب ما تعاونّا   عند القواعد قد ذبحنا أربع

(2) الآرام (البناء التمهيدي)

إذا كان موقع الأرضية (العَرَصَة) في منحدر جبلي أو في مساحة غير مستوية فيتم البدء ببناء تمهيدي زائد أو إضافي لتسوية أرضية المبنى، على شكل منصة، وهو ما يُعرف بكرسي البيت أو الـ(أرام/ غرام، تحل الهمزة محل الغين في اللهجة اليافعية) ويُبنى بسُمك ثلاثة أذرع متكيفاً مع درجة انحدار الموقع الصخري وبأحجار كبيرة وجلاميد صخرية ضخمة، مما لا يقوى أحد على حملها إلى الطوابق الأعلى، ويُطلق على هذه الكتل الحجرية التي تحل محل حجارة الظهارة والبطانة اسم (غلام).

يرتفع بناء الكُرسي بالقدر الذي يكون فيه بناء الطابق الأرضي على مستوى واحد، وإذا كان (الكرسي/الأرام) كبيراً، فقد يستغل حجمه ويُسقف كغرفة أرضية زائدة يستفاد منها كمخزن أو نحوه، ويبدأ من مستوى سطح هذه الغرفة بناء الدور الأول، ونجد مثل هذه الحالات في المواقع الجبلية التي تنعدم فيها مساحات البناء المستوية أو على جانبي الأودية الغائرة بين السلاسل الجبلية، أو في قمم الجبال والآكام التي تضيق فيها المساحات المستوية، لكنها كانت المواقع المفضلة لمواقع البيوت أو الحصون اليافعية لارتفاعها.



و في بعض البيوت وبعد الانتهاء من بناء الكرسي(الأَرام) يُترك فراغ ظاهر في حافة أحجاره بامتداد متناسق بعرض أربع بنان تقريبا، ويبدأ منها بناء مدماك البيت بالحجارة التي تنهض فوق بعضها حتى نهاية البناء، وهذا الفراغ البارز يُعرف بالـ(القَطْفَة) وهي الحد الفاصل بين الدور الأول و"الأرام"، كما في الصورة أعلاه.

(3) المدماك (الظهارة والبطانة)

المدماك هو الجدار الحامل للمبنى ويتكون من صفين من الحجارة (ظهارة وبطانة)، وكان سُمكه في الماضي يصل إلى 91سم(36 بوصة) ولا يقل عن 80 سم(32 بوصة)، تم تقليصه في منتصف ستينات القرن الماضي إلى 76سم (30 بوصة)، والحكمة من سماكة الجدار تمكنه من تحمُّل ثقل البناء الحجري الذي يصل ارتفاعه إلى خمسة وستة أدوار، كما أنه يوفر عزلاً حراريا جيداً للفراغات الداخلية للمبنى، كما أن سُمك المدماك يوفر مجالاً لوضع الأولاج المتنوعة الأحجام التي تولج في جدار المدماك، وكذا المخزنات، ومفردها مخزنه، وهي رفوف جدارية لحفظ الأشياء.



والظُهَارة هي جدار الواجهات الخارجية، الظاهرة للعيان، ومن هنا جاءت تسميتها "ظُهَارة" وتُشيّد بأفضل الحجارة المشذبة والمصقولة ذات الألوان والأحجام التي تتناسق وتتناغم بجوار بعضها البعض، وتعهد مهمة بناء الظهارة لأفضل البنائين المَهَرَة.

أما البطانة فهي الجدران الداخلية، وسُميت بـ "البطانة" لأنها تشيد في الباطن وتكون غير ظاهرة، ويختص ببناء البطانة البنَّاءون المساعدون، وبإشراف مباشر من معلمي البناء. وتتكون صفة البطانة من الحجارة غير المسوَّاة وهي تتداخل مع حجارة الظهارة بالتقاء أطرافها، ومن ثم تُكبس الفراغات في التجاويف الناشئة عن تداخلها بردِمها بقطع صغيرة من الحجارة والحصى (الكَبْس) وتُثبت مع الحجارة بالخِلْبْ وهو التراب الممزوج بالماء وتُضاف إليه كمية من (ضفع البقر) وهو الروث. وتعتمد حجارة الجدران على قوة التصاقها ببعضها ثم حجارة الوَطَف والمَيَاضِير التي تغطي الفراغات في تجاويفها، وحجارة الوطف أكبر حجما من المياضير وتُسد بها الفجوات الكبيرة.



وأساس بناء المدماك وجود لحمة وتشريك أو تعشيق أو تداخل لحجارة جدار الواجهة الخارجية مع بعضها بحيث توضع فوق بعضها وتُثبت وتتماسك كأنها قطعة واحدة، وتتداخل بأن يجعلوا في أحد الحجارة تجويفا، وفي الأخرى رأس بارز يدخل في ذلك التجويف، وكذلك يفعلون بحجارة الظهارة.

وفي المعمار القديم كانت تكثر الفراغات أو الفجوات بين صفوف حجارة الظهارة أو البطانة لصعوبة تشذيبها فتُغطى بحجارة أصغر تسمى الواحدة (وَطفة)، أما في الفراغات البسيطة بين أحجار البناء المتراصة فتُوضع (الميَاضِير، ومفردها مِيضَار) وهي القطع الصغيرة والرفيعة المتكسرة من حجارة البناء وقت تسويتها وصقلها وتكون وظيفتها تماسك وتوازن وترابط أحجار البناء ببعضها البعض وسد الفراغات البسيطة بينها، إن وجدت. وعملية وضع الحجارة الصغيرة "الميَاضِير" في الفراغات بين الحجارة تُسمى "تَلصِيص"، ويقوم بها البناة المساعدون أو تحت التدريب، ويُسمون (مُلَصّصين، المفرد: مُلَصّص" . وفي اللغة، تَلصِيصُ البُنْيَان: تَرْصِيصُه "، والتَّصّ : التَّزَقَ " . وقيل: " لَصَّصَ مِن بُنْيَانِه المُلَصِّصُ "[1].

---

1 - انظر لسان العرب: كلمة "لصص".

وكانت عملية "التَّلصِيْص" تكثر في البيوت القديمة لصعوبة تطويع الحجر، ولهذا يطلقون على البناء (مُرسَل) أي توضع الأحجار كما هي دون تسوية أو تشذيب، أما في البناء المعاصر فتقل كثيرا وتكاد تختفي "ميَاضِير التلصيص" بين حجارة الواجهات التي تُقطع وتُشذب بالآت حديثة وتُعرف بالجناس



أو الجنيس وتتطابق هذه الحجارة فوق بعضها بدقة بدون حاجة لإدخال الميَاضِير الصغيرة بينها، ويطلق على البناء بمثل هذه الحجارة أيضا(بِنَاء فَحْس) أي مترابط الحجارة دون فراغات بينها. (أنظر الصورة أعلاه)

ويعتني باختيار وبناء أحجار الواجهة أفضل وأمهر البنائين، ولا توكل هذه المهمة لقليلي الخبرة والتجربة، ممن يقول فيهم المثل الشعبي اليافعي:" بَانِيْ الوَيْلْ رَدْ البُطانَهْ ظهَارَهْ" أي لا يميز الغث من السمين ويقلب عاليها سافلها، أو ظاهرها باطنها.



كما استخدمت الأخشاب في الماضي ، وإن بصورة قليلة، كحزام بين مداميك البناء، بإدخالها في البطانة، ونادرا في الظهارة، ربما لتوازن الضغط، وتُعرف بالروابط الخشبية وتكون الأخشاب من ذلك الصنف القوي الذي لا يتأثر بعوامل التعرية أو يؤثر فيه التسوس، ونعثر عليها فقط في بعض الأبنية القديمة. (كما في الصورة)

المِـرْدِم:



العتبـــة وباللهجـــة المحليـــة (المردم):أسكفّة الباب التي توطأ. أو عمود حجري مستطيل (سَحبُول) مثبت في عمق الأرض بشكل عرضي أسفل باب البيت يُسمى(مِـرْدِم الـسدّه)، يرتفع حوالي 10سم ، وقد يكون من الخشب. فقبل أن تلج البيت اليافعي من سُدَّته أو بوابته لا بد أن تطأ أو تخطو على المردم وهناك عمود مماثل في أعلى الباب من الحجر أو الخشب، أقل سُمكاً، ويعتبر المردمان السفلي والفوقي حاجزين تتوقف عندهما حركة مصراعي الباب عند الاغلاق والسماح بحركتهما فقط



إلى الداخل عند فتحهما. وهما يحميان المسكن من تسرب مياه الأمطار أو دخول الشوائب والأتربة التي تحملها الرياح. وفي بعض البيوت يكون للباب (كوَيب)، أي أعمدة من الخشب أو الحجارة تُشيد على جانبي الباب أو النافذة، لإسناد البـاب ونحـوه، عـن يمينـه وشمالـه (ج)كوَيب.

ولأن (المردم) أول ما يجتازه من يدخل البيت، فمن عادات الزواج التي كانت متبعة في يافع أن ينحر أهل العريس خروفاً على (المردم) فدية قبل أن تجتازه العروس عند دخولها بيت الـزوجيـــة للاعتقاد بأن ذلك يصرف عين الحسد وشر الشياطين.

(4) القاطعي



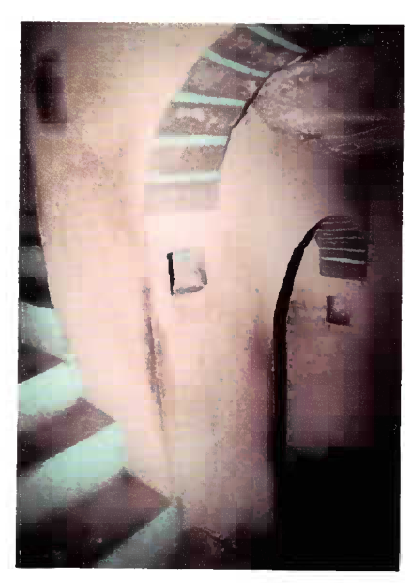
هو الجدار الفاصل بين الغرف والتقسمات الداخلية الأخرى(انظر الصورة)، وتُقسم بواسطته المساحة إلى نصفين، يشغل (المفرش) النصف الأول مع ملحقاته (الهدة ،الخلة، المغسال)، فيما يتوزع النصف الآخر مناصفة بين الدَّرج وهي سلم الصعود في البيت، وبين (المربَّعة)، وهي غرفة صغيرة مربعة الشكل ومن تسمياتها الأخرى حسب كل منطقة(العلِّيه أو المُجَنَّب أو المُسَرّا).

وعلى هذا المنوال يتم بناء الجدران الداخلية الفاصلة (القاطعي) في كل الطوابق العلوية وهي لا تقل سَماكة عن سُمك الجدران الخارجية (الواجهات) ولعل السبب هو تحمل ثقل السقوف والاستفادة من سُمكها لوضع المُخزَنة والأولاج المتعددة التي تتوزع بتناسق جميل في واجهات الغرف بأحجام وأشكال مختلفة وتقوم بوظيفة حفظ الأثاث والأواني المنزلية.

(5) بناء الدَّرَج

الدَّرَجْ هو المعراج أو المصعد والسُّلّم الذي يعرج عليه الصاعد أو النازل بين طبقات البيت، ويحتل رُبع المساحة الإجمالية للطابق الواحد في البيت التقليدي العادي (المربع)، والواحدة تُسمى (دَرَجَهْ). ويرتفع بناء جدران الدرج مع جدران المنزل بعدد الأدوار التي يتم بناؤها على شكل سلّم مربع، فبمجرد ولوج الباب يرتقي المرء الدرج التي تكون على يسار أو يمين البوابة الرئيسية وفقا لوجهة البيت. وفي كل طابق تسع درجات، تفصل بين كل ثلاث منها مساحة فسيحة مربعة تسمى (صَرْحَهْ)، والصَّرْحَةُ في الفصيح ساحة الدار. ومن هذه الساحة الداخلية الصغيرة (الصَّرحة) تكون استدارة الدرج حول محور(الريان، السارية) إما إلى جهة اليمين أو إلى جهة اليسار، عكس موقع (المفرش الأرضي /المنزلة).

ويقوم الريان بحمل قلبات السُّلَّم ويعمل كمقبض يد. وبهذه الطريقة يتحقق الاستغلال الأمثل للمساحات الداخلية والاستغناء عن الممرات بحيث تقوم قلبات السُّلَّم بهذه الوظيفة.





درج بيت بالعقود وتظهر الصرح والريان

يقول الشاعر علي صالح بن طالب السعدي مخاطبا السلطان، ويشبهه برُيَّان الدار المُسوَّس:

أنــت يــا أَبِّنَــا قــاطع ووالـــي	وانت رُبَّان بالـدَّار المـسوَّس
ويش وصّى بِنُــهْ زيــد الهلالــي	قال من جالس العــالم تفــرَّس

وينتهي كل طابق عند الصرحة الثالثة ومنها يكون الدخول إلى بوابتي (المفرش) و(المربعة/ العلية/المُسَرَّا)، ومنها أيضاً يتم الصعود إلى درجات الطابق التالي أو العودة نزولاً.

وفي الغالب كانت تستخدم في سقف الدرج عيدان رفيعة وكثيفة بجوار بعضها البعض تسمى (مَخَازف، مفردها مخزف) أو (نَظَار) وتُضاف فوقها صفائح حجرية غير سميكة (صَلاً) ثم خليط الطين(الخلب) وكانت بعض

سقوف الدّرج قديما ضيقة الارتفاع ولا بد أن تنحني قليلاً فيها حتى لا يصطدم رأسك بسقفها، وكان أفضلها يسقف بأخشاب قوية أو بأحجار مستطيلة ومستوية تسمى (سَحَابيل، ومفرها سَحْبُول).





نماذج من سقوف الدرج في الماضي بأخشاب النظار والصلأ والخلب

ثم تطور الأمر وأصبح سقف الدرج مرتفعاً، حيث تُشيَّد عقودٌ حجرية عند كلّ صَرح، وتستند هذه العقودة من جهة على حائط (الريان، السارية) ومن الجهة الأخرى على الجدار المقابل، وتُسقف الدرج في الوقت الحاضر بنفس الأخشاب التي تستخدم في سقوف غرف البيت، خاصة الحوامل الخشبية (الرَّعايا) وفوقها أحجار(الصلأ)، كما تُسقف بعض البيوت بأعمدة حجرية مستطيلة (سحابيل).



وتكون للدرج في الدور الأول فتحة صغيرة بدون غطاء أو باب لاقفالها تُسمى(لهج/ مُوْشق) لغرض التهوية والإضاءة، أما في بقية الأدوار العلوية فيكون لها في كل طابق نوافذ من الخشب، أسوة ببقية غرف الدار.

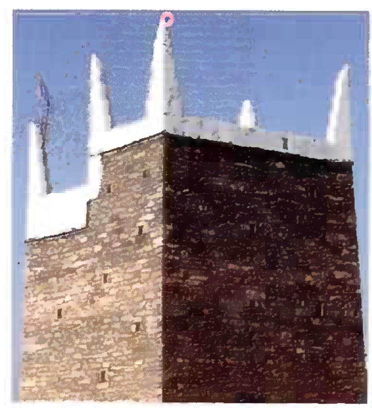
(6) بناء النوافذ (اللّهُوج / الطّوَق)

اللـهج، وجمعها لِهُوج، كانت تطلق في الأصل على الكوة أو الفتحة المربعة صغيرة الحجم التي تخترق الجدار في البيت اليافعي التقليدي، لتمييزها عن النافذة الخشبية الأكبر حجما "الطّاقة"، ثم أخذت كلمة (اللهج) تطلق على النوافذ والشبابيك أي كان شكلها. ويبدو أن هذه التسمية ليست حكرا على يافع، ففي "ريمة" وهي منطقة جبلية في شمال اليمن تُسمى النافذة أيضاً بـ (اللّهج)، وفي ذلك يقول الشيخ محمد بن عمر بن موسى النهاري، وهو أحد مشاهير الصوفية، هذه الأبيات[1]:

ألا يـــا صـــاحب اللّهـــج   خلـــى اللّهـــج مفتـــوح
أشـــاء أنظـــر حبيبـــى   ســـويعة قبـــل مـــا روح
فنظـــرة مـــن حبيبـــى   تـــردّ العقـــل والـــروح

وهناك نوعان من اللهوج في البيوت اليافعية:

الأول: الفتحات المربعة، وهي ما لصق بها اسم (اللّهج) في البدء، ومقاسها في حدود (25×25 سم) وليس لها درفة أو غِطاء مُغلق عليها، وتغلق عند الضرورة بحجرة صغيرة أو بقطع من القماش، وكان هذا النوع ينحصر بشكل أساسي على الأدوار الأرضية التي كانت تخصص في الأساس مأوى للحيوانات المنزلية ومخازن للمؤن والأدوات المنزلية، لدواعي وضرورات الأمان في الماضي، بغرض الحصول على تهوية واضاءة محدودة.

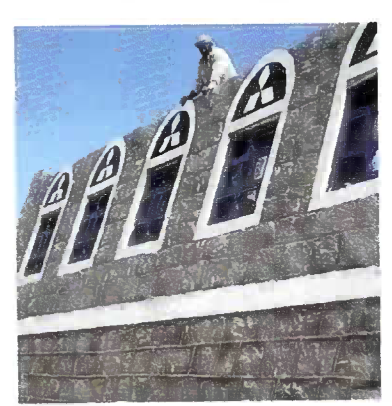


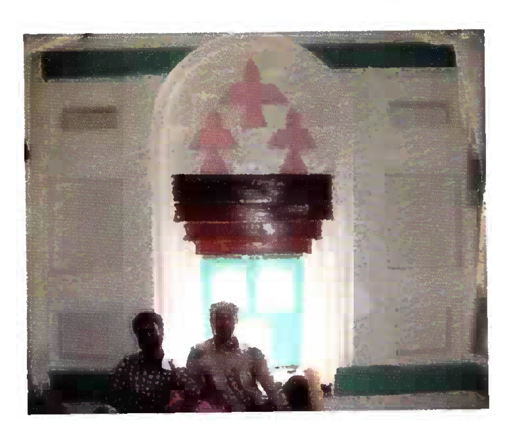
أما الصنف الثاني فهي النوافذ الرئيسية ذات الإطار الخشبي (الطاقة، والجمع طُوَقْ/ طوَيْق) فهي كبيرة الحجم ويتراوح عرضها بين(40 إلى 50 سم) ، وارتفاعها بين (70- 80 سم) وقد أخذت تسمية (اللّهج) تطلق بشكل عام على النوعين كليهما، في كثير من مناطق يافع.

1 - ريمة، محمد علي العروسي، حوليات يمنية 2002، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، ص:63.



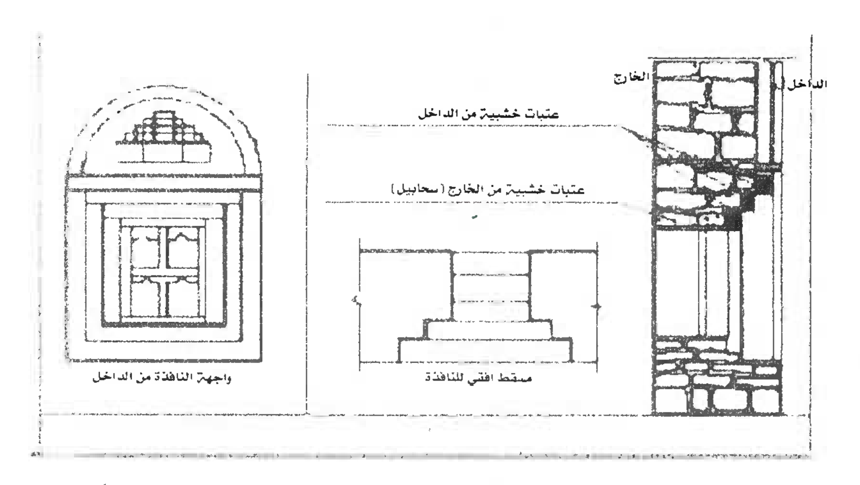
يتم وضع وتثبيت النوافذ الخشبية أثناء البناء مباشرة وعلى ارتفاع محدد عن أرضية المفرش باستثناء نافذة الهدة المرتفعة. فعند وصول البناء إلى ارتفاع 45 سم يبدأ الباني بتسوية أرضية فتحة النافذة التي تُسمى"الفَرشَة" وهي بمثابة سطح عريض وواسع، ثم يثبت النافذة في وضعيتها الصحيحة ويستكمل بعد ذلك بناء الجدران التي تحيط بها من جهتي اليمين واليسار. وفي الأعلى يكون غالبا عمود حجري مستطيل، وهذه الطريقة تجعل من السهل استبدال أو تغيير النافذة الخشبية، عند الضرورة، دون صعوبة.





أما من جهة الداخل فيتفنن الباني في وضع التدرجات (التَنَازيل) على جهتي النافذة، وفي الجهة العلوية للنافذة يتم وضع سلسلة من القطع الخشبية المتدرجة والمطرزة بالنقوش المحفورة على واجهاتها، والتي حلت محل التنازيل الحجرية. وهذا التدرج يجعل محيط النافذة واسعا من الداخل بحيث يسمح

بـدخول الـضوء، كمـا يتـيح للـشخص إمكانيـة الجلـوس والاتكـاء علـى النافـذة للرؤية وإذا ما قام فأن التدرج من الأعلى يحمي رأسه من الاصطدام بالجدار.



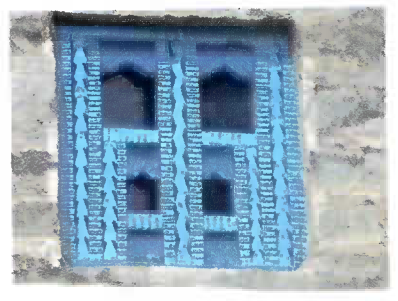
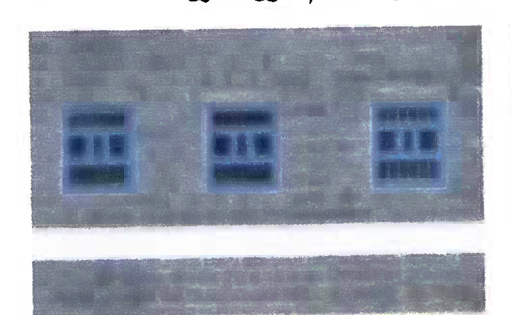
رسم توضيحي للنافذة في العمارة اليافعية (المهندس: علي بن شجاع)

وكانـت فتحـات النوافـذ الخـشبية متوسـطة، تتـسع بالكـاد لـدخول رأس الـشخص، وتـصنع مـن خـشب الـسدر(العلـب) المعـروف بـصلابته، وتجهـز مـسبقا بمقاسات متساوية لكل دور، وتختلف فقط بأشكالها الزخرفية، وتزين عادة بحفر أشكال هندسية وخطوط وثقوب متنوعة تزيدها رونقا وبهاء، ولحماية النوافذ الخشبية من عوامل التَّعرية كالشمس والأمطار والرِّياح التي تؤدِّي إلى تآكلها، كانـت تُطلـى واجهاتهـا الخارجيـة بـألوان محليـة، وعنـد دخـول دهـان الطـلاء الـصناعي المستورد زَيـن اليـافعيون نوافـذ بيـوتهم الخـشبية، غالبـا، بـاللون الأزرق المتناغم مع زرقة السماء الصافية التي تتماهى معها الحصون اليافعية في سموها وارتفاعها.

وللأسف الشديد أن زخارف النوافذ الخشبية وكذا العقود المتناسقة التي تعلو النافذة المطرزة بنقوش وتشكيلات متنوعة قد اختفت، إلا في ما ندر، وحلت محلها في كـثير مـن البيـوت الحديثـة نوافـذ الألمنيـوم الـتي لا تقـارن بتلـك النوافـذ الخشبية الجميلة، وهذا ثمن الحداثة التي تقضي على الأصالة بدون وعي وإدراك لمخاطرها.




شتان بين زخارف النوافذ القديمة والجديدة – اترك الحُكم لذوق القارئ

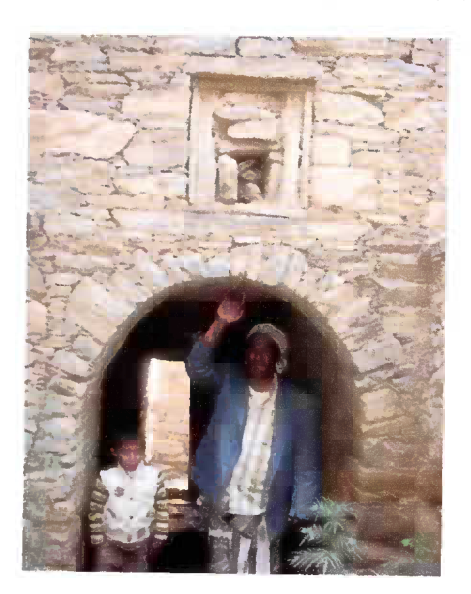





(7) بناء العقود

تنتشر العقود بكثرة في البناء اليافعي القديم من الخارج والداخل، وهي تعود إلى أزمنة قديمة، ولا يخلو منها أي بيت قديم، وتستخدم فيها الحجر بأشكالها المتناسبة مع حجمها ومع الزخارف والنقوش التي تحتويها.

وللعقود وظيفتان انشائية وزخرفية، وهي عنصر معماري مقوس، أو عقود نصف دائرية، تعتمد على نقطة ارتكاز واحدة أو أكثر، ويشترط أن تكون أحجارها متجانسة ومتساوية الحجم وأن تكون موضوعة بالتماثل بالنسبة لمحورها الرأسي ويُركب في وسطها حجر رابط هو مفتاح العقد. وتُبنى العقود من حجارة مربعة يتم وضعها على شكل نصف دائرة بمهارة عالية تجمع بين متانة البناء وجمال الزخرفة. ويسمى صف الحجارة المؤقت الذي يحمل العقد (الحمار) حيث يُرصّ فوق خشبة جانبية عريضة توصل بين جهتي الدرج وتُوزن من خلاله فرمة العقد المعقوفة ، ويُثبّت العقد من الأعلى بحجرة صغيرة، تُسمى (المشحن)، يتم حشوها في الفراغ الناشيء بين حجارة الأفاريز في العقود لتثبيت حجارة الأفاريز، وبعد استكمال بناء العقد يُهدم الصف المؤقت (الحمار).





عقد مدخل سقيفة مؤدية للباب، وعقود نوافذ في بيوت ذي صُراَ القديمة



وتوجد العقود بشكل رئيسي فوق البوابات الخارجية للبيوت "السدة" أو فوق النوافذ "الطِّوَق" في الطوابق العلوية للبيوت القديمة، وتكثر بشكل خاص داخل الغرف وفوق النوافذ خاصة من الداخل ، ويتفنن البناؤون بوضع خارف وتشكيلات فنية متنوعة في إطار العقد.

أما عقود الدرج فإلى جانب وظيفتها الجمالية تقوم أيضاً بوظيفة الأعمدة الخشبية أو تحل محل (السحابيل) الحجرية المستطيلة في تحمل ثقل السقف وضمان متانته، كما توفر مساحة رأسية لسقف الدرج بحيث يمشي الشخص فيها مرفوع الهامة دون حاجة للانحناء.



وتُبنى العقود بكثرة في سقوف المساجد، وكذا في خزانات المياه الكبيرة كبديل عن الاخشاب، ذلك لأن الاخشاب سرعان ما تتآكل عند تعرضها للماء فتفقد قوتها وقد تؤدي إلى انهيار البناء، ولهذا يفضل الناس سقف خزانات المياه بالأعمدة والعقود الحجرية، التي لا تتعرض للتسوس أو التآكل، فضلا عن قوتها ومتانتها.





عقود حجرية معلقة لخزان ماء



في الوقت الراهن أخذت هذه العقود تقل، بل تكاد أن تختفي في واجهات البيوت الخارجية والداخلية، عدا فوق البوابات الرئيسية للبيت (السدة) أو في سقوف سلم "الدّرج"، أما فوق النوافذ فللأسف أخذت تحل محل العقود الحجرية المزخرفة القمرية التي تصنع من الجص والزجاج وغالبا من الألمنيوم بمختلف الوانه(كما في الصورة).





(8) بناء السقوف الحجرية الفريدة

للسقف اليافعي خصوصية فريدة، كما أسلفنا، إذ لا يستخدم فيه سوى الأخشاب والصفائح الحجرية(الصَّلأ) والطين. فبعد الانتهاء من جدران كل طابق يتم وضع المرابيع الخشبية الرئيسية التي تسمى (الرواكب/الفوالق)، وهي أخشاب من شجر السدر(العلب) تمتاز بالصلادة والمتانة ومقاومة الأرضة، يتم قطعها من أشجار العِلب، التي يكثر نموها في الأودية العميقة والشعاب، من قبل متخصص يُسمى (الوشَّار) ومن ثم استجلابها وإيصالها إلى القرى بطُرُق بدائية تعتمد على التعاون الجماعي، وعند وصول الأخشاب بمختلف أشكالها وأحجامها التي تسمى (الحِلّة) يتم تجهيزها من قبل النجارين، ويُسمون (وشّارين)، وهم أسر متخصصة بهذه الحرفة(مثال قرية شرف النجارين) ويقومون بتسويتها وتقطيعها حسب الحاجة أو الطلب، كما يتفننون بتزيينها بنحت رسوم وزخارف تُنفذ بطريقة الحزوز الغائرة، ويكون وجه الأخشاب الرئيسية المنقوش أو المطرز إلى الأسفل ليكون شكله مرئياً للناظر، والأعلى بدون نقوش، وتُوضع فوقها المرابيع الخشبية الثانوية بشكل متعامد وتُسمى (رَعَايا- مفردها "رَعِيّة"). (أنظر الصورة).

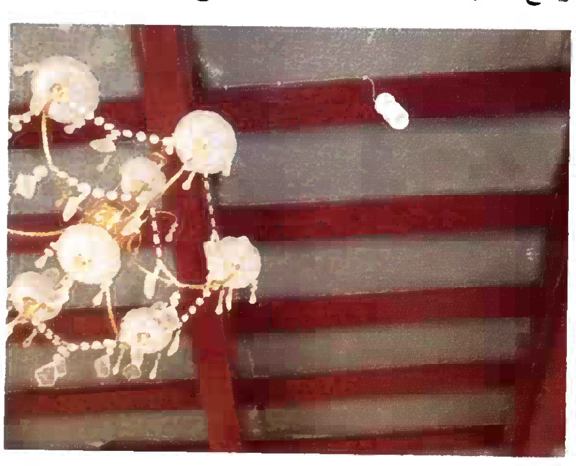


وتوضع في سقف كل مفرش تقليدي أو (مَنزَلة) ثلاث رواكب وفي المربّعة أو العلية (المجَنب) راكبة واحدة فقط. وتُسمى المساحة التي تشغلها الرعايا مع الصَّلا بين كل فالقتين أو راكبتين بـ(السَّرَع).



ويتم تغطية الفراغات بين الرعايا بصفائح حجرية مسطحة رقيقة تسمى (صَلا)، يصل طولها ما بين 40 و 80 سم، وعرضها من 25 إلى 30 سم، ويتراوح سمكها بين 2 إلى 5 سم. ويتم الحصول على حجارةٍ "الصَّلا" من محاجر جبلية ذات طبقات رفيعة متوازية، وتتطلب تبصُّراً ومهارة وإتقان عند استخراجها من قبل النقاش الذي يحرص على أن تكون هذه الصفائح الحجرية ذات سُمك مناسب وحجم كبير، وحدوث أبسط خطأ قد يفتتها ويحولها إلى قطع صغيرة لا يستفاد منها.

ومع دخول التقنية الحديثة أصبح من السهل الحصول على صفائح حجرية (صلأ) كبيرة يغطي طولها مساحة أوسع في السقف، كما رأيت ذلك في بيت حديث في خُلاقة (انظر الصورة). وتُرص الصلا بشكل متعامد على محاور الرعايا، ثم تُغطى طبقة الصلا بطبقة من خُلَب الطين، تُحضر جيدا وتسمى (اللّبنة/الخُلَب)، أما في الوقت الحاضر فتضاف خلطة الإسمنت بدلاً عن الخُلَب.



وتوجد أيضاً في البيوت القديمة أو في المساجد أعمدة حجرية مستطيلة تُسمى (سَحَابيل- مفردها:سَحبول) وكانت تُستخدم عوضا عن الخشب لندرتها، ويصل طول هذه السحابيل في بعض الأحيان إلى عدة أمتار، وقد عُثر في المسجد الأثري في قمة (جبل أحرم) بالعياسى على سحابيل ممتدة فوق السقف طول الواحد منها 4 أمتار، وكانت عقود المسجد مبنية كقناطر تحمل هذه السحابيل[1].

ومثل ذلك رأيته في مسجد عيسى بن أحمد الأثري القديم بالصفأة – كلد فسقوفه من السحابيل وصفائح الصلأ الكبيرة المحمولة على الأعمدة بعقوده الحجرية الستة وسقفه الحجري، ولم تُستخدم أي قطعة خشبية في جدرانه وسقوفه. وبالمثل في مسجد (آل غلاب) القديم في مدينة خُلاقة، كانت برْكة الوضوء فيه





(الهجرة) مسقوفة بكاملها بسحابيل تجاوز طولها الخمسة أمتار، وقد تم تكسيرها بعد هدم الهجرة مع المسجد الأثري القديم حينما بُني على انقاضة مسجد جديد أشبه ببيت من البيوت المجاورة له ودوره الثاني شيد بالأسمنت.





1 - العمارة اليمنية من حضرموت إلى يافع، ص16.

اللِّبنة/ الخُلَب

الخُلَب: هو الاسم التقليدي للطين المخلوط أو التراب المجبول بالماء، أو الملاط الذي يُستخدم كمونة في سقف البيوت وبين الحجارة لزيادة تماسكها، وفي طلاء واجهة الجدران، (محاض) عوضاً عن الإسمنت الذي حل محله في كثير من أعمال البناء في الوقت الحاضر. ويُسمى المكان الذي يُحضر ويُخلط فيه الخلب "مِخلابه". وفي الفصيح "الخُلُب" الطِّينُ الصُّلبُ اللاَّزِبُ وقيل الأَسودُ وقيل طِينُ الحَمأَة وقيل هو الطِّينُ عامَّة.

ويتم إعداد اللبنة (الخُلب) من الطين والماء مع إضافة كمية مناسبة من التبن لتقويتها ويتم خلطها ومزجها بالدوس عليها بالأرجل وتقليبها بالمجرفة. ويشارك يوم السقف عدد إضافي من الناس بشكل جماعي إلى جانب العمال، لاعداد خلطة (اللبنة) وتناولها من شخص إلى آخر، أو حملها بأوعية خاصة، فيما يقوم الباني بوضعها في سقف الغرفة بفرشها بحجم مناسب فوق (الصلأ) وبشكل متوازن في السقف، ثم تُترك بعد ذلك حتى تجف.



المؤلف يشارك أخوانه والعمال في تحميل الخُلب لسقف تطليعة بيتهم في الثمانينات

وقد كانت اللبنة تقوم بوظيفة خلطة الأسمنت أو ما تُعرف الآن بـ(الصَبَّه)التي تُسقف بها حالياً غرف البيوت، كما تستخدم لتسوية وطلاء جدران المنزل الداخلية لملء الفراغات أو الحفر وهو ما يُعرف بـ(المِحاض) وبعد أن يجف يتم طلاء الواجهات الداخلية بخليط مادةٍ بيضاء تسمى(البيَاض) قبل أن يحل محلها الطلاء المستورد. ومن مزايا الخُلِب أنه يكتسب بعد أن يجف صلابة وتماسكاً ولا تؤثر فيه الأمطار، بل أنه يقي البيوت من تسرب المياه إلى داخلها، وبهذه الطريقة يكون سقف البيت اليافعي المسقوف بحجارة الصلأ والطين سميكاً وقويا وغير موصل للصوت.



ومما كانوا يُرددونه بصوت جماعي عند (لِبَّان سقف البيت) قولهم:

قال الباني: ما لبوني،
كمن واني، وا بيحاني،
بعني ثوبك، واشتر ثاني
انه ثوبي، ذي دفاني
ليلة ماطروبه داجن

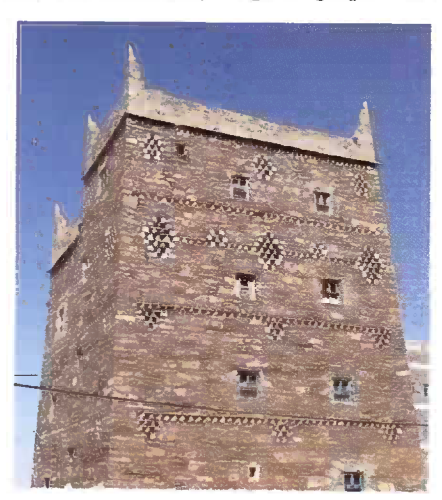
أو قولهم:

قال الباني: من ذي لبن
ماشي تَبَّن، ذي لبَّنها،
ما تَبَّنها، ليته بَنهَا

الزخارف والنقوش

إن العمارة في العالم كله ليست حاجة أساسية للحياة وحسب، يجب أن تراعى فيها رخص التكاليف وبساطة التفكير، ولكنها في نفس الوقت، فن من الفنون التشكيلية والتطبيقية التي تتحقق بها ذات الفرد وذات الجماعة. كما أنها علم من علوم الهندسة، ما أحوجنا للعناية بها كإسهام في التقدم البشري، ودراستها في الحضارات المختلفة، عبر الاثار التي خلفتها، إن أردنا أن نبقي على الروح الفنية الأصلية حية في حياتنا، تستهوي الأفئدة بما فيها من نفع وجمال[1].

واليافعيون بفطرتهم وحسّهم المرهف للجمال أبدعوا العديد من الزخارف المكملة للبناء، والناظر إلى حصونهم الشاهقة من الوهلة الأولى، تأسره وتخلب لُبّه تلك اللمسات الإبداعية الأخّاذة في فنون العمارة اليافعية، التي تستشف ببساطة من مقاييسها الدقيقة، وتناسقها العجيب في الزوايا والمقاطع المختلفة في مكونات البناء، إضافة إلى ذلك الاستعراض الممتع لشتى فنون الزخرفة والنقوش، الذي تزدان به واجهات بيوتهم من الداخل والخارج والتي حوّلتها إلى تحف فنية رائعة وجذابة، غاية في الروعة والإتقان.





1 - العمارة الإنسانية للمهندس حسن فتحي، نبيل فرج، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1977م، ص7

(أ) الزخارف والنقوش الخارجية:

تبدو الزخرفة الخارجية في البيوت القديمة أكثر وضوحاً وثراءً، ويتجلى هذا بوضوح في العقود نصف الدائرية (الثريا) التي تبدو فوق المداخل الرئيسية للبيوت (السدّة) على شكل مقرنصات بما فيها من الأشكال الهندسية المختلفة المكونة غالبا من حجارة المرو الأبيض الصغيرة داخل جسم العقد. كما تُطرز الأبواب السميكة والصلبة التي تصنع من خشب السدر(العلب) بنقوش جميلة محفورة ومنحوتة وبتشكيلات بديعة، ونجد على بعضها كتابات ذات أغراض محددة كدعاء أو حكمة أو تاريخ أو اسم صاحب البيت أو اسم صانع الباب وتاريخ الانجاز.





وتتمثل الزخرفة المميزة الواضحة للعيان من بُعد بالحزام الأبيض المعروف بـ(صفة النورة) الذي يلتف حول كل طابق، وقد حل الطلاء الأبيض في الوقت الراهن محل النّورة، وتُوضع قبله طبقة من الأسمنت ليبدو لمعان الطلاء أكثر سطوعا، ونجد في بيوت "القارة" وكذا في قرية "عَبَر" في مكتب السعدي، أن ذلك الحزام الفاصل بين الطوابق يتكون من الحجارة السوداء، والسبب أن لون حجارة البيوت التي تُعرف بـ(الياجور) يغلب عليها اللون الترابي الفاتح، ولهذا فإن حجارة الحزام الفاصل ذات اللون الأسود تبرز بوضوح في واجهات البيوت.

أما ثراء الزخارف والنقوش فتظهر في الأشكال الهندسية المتناسقة التي تزين واجهات المنازل القديمة من الخارج، وهي عبارة عن مقرنصات بشكل مثلثين متقابلين بالرأس أو دوائر أو معينات ومثلثات منفردة أو نجيمات سداسية أو

مربعات على شكل صليب، وهي تتخذ للزينة فقط دون أن نعرف لها دلالات دينية[1].



ومن بين الزخارف المنتشرة بكثرة في الواجهات الخارجية شريط أفقي من المسننات يحاكي شكل الحشرة المعروفة بـ "العلسة" أي أم أربعة وأربعين ويُسمى باسمها، وغير ذلك من الزخارف، التي يتم تشكيلها، بشكل بارز أو غائر، بالقطع الحجرية صغيرة السُمك والمختلفة في لونها عن لون حجارة البناء، وخاصة أحجار المرو التي كانت أكثر استخداما لصلابتها، ولتميز لونها الأبيض الناصع، عن لون حجارة البناء.

كما تزدان واجهات البيوت القديمة، خاصة في الأدوار العلوية، بعقود حجرية نصف دائرية(قمريات) تعلو نوافذها الخشبية من الخارج، خاصة في الأدوار العليا، ولها وظيفة جمالية فقط، وهي غير مفتوحة إلى الداخل، نظرا لعدم الحاجة لذلك بحكم برودة المنطقة، وتزدان هذه العقود بزخارف وتشكيلات متنوعة من الحجارة الرفيعة وأحجار المرو تضفي عليها مسحات جمالية أكثر بهاءً وجلالاً، وقد أهمل الناس في الوقت الحاضر هذا الشكل الجمالي الأصيل، الموشّى بالزخارف الفنية، واستعيض عنه، للأسف الشديد، بالقمرية المكونة من الجبس الهش، الدخيل على معمارنا، أو بقمرية الألمنيوم المستورد. ولهذا ينبغي أن نحييها في البيوت الجديدة، بل ونستطيع أن نجعلها أكثر جمالا بحكم إمكانيات تشكيل الحجارة بسهولة بالآلات الحديثة المتوفرة.

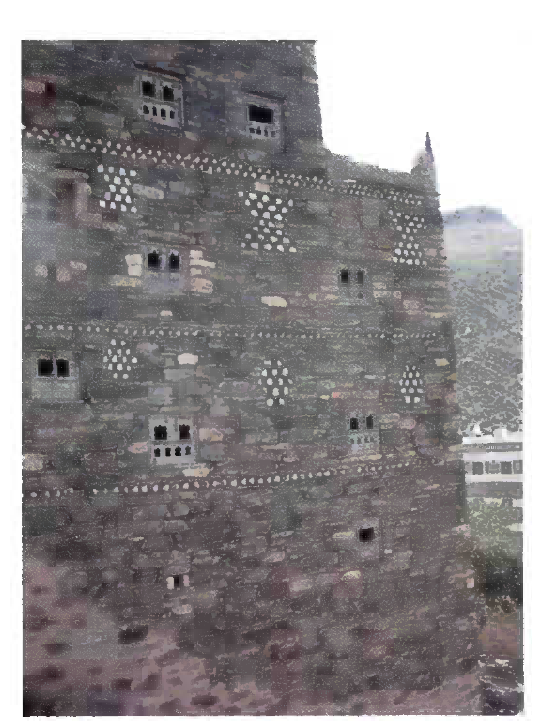
---

1 - من غير المستبعد أن يكون لهذه الأشكال من الزخارف (خاصة النجمة السداسية وشكل الصليب) صلة باعتناق اليهودية والمسيحية في معظم مناطق اليمن، ومنها سرو حمير – يافع، فقد انتشرت الديانة اليهودية مع اعتناق الملك الحميري ذو نواس لها، كما كان اليهود موجودين في كثير من مناطق اليمن شماله وجنوبه، بما في ذلك يافع، إلى منتصف القرن العشرين، وكانت لهم تجمعاتهم وقراهم منها قرية (شعب اليهود) التي تُعرف الآن بـ(شعب العرب) في مكتب اليزيدي، وبالمثل انتشرت الديانة المسيحية في أغلب مناطق اليمن في عهد الدولة الحميرية الثانية، بما في ذلك سرو حمير، وكان الملك الحميري عبد كلال بن مثوب قد اعتنق الديانة المسيحية منصف القرن الرابع الميلادي على يد راهب غساني، وفيه قال نشوان الحميري:

أم ابن عبد كلال الماضي على   دين المسيح الطاهر المساح







ويحرص اليافعيون على تزيين حصونهم وقصورهم المكتملة البنيان بأشكال هرمية متدرجة تُسمى "التشاريف:م-تشريفة" ترتفع بشكل متناسق ومتساوٍ في زوايا أركان السطح، وتنتهي كل منها بقطعة حجرية مثلثة ذات رأس حاد تُعرف بـ"الخُوذي". وتُطلى باللون الأبيض مع الإطار العلوي للبيت (المسعى)، فتبدو بسموها وعلّوها الملحوظ وكأنها أكاليل الغار، وإلى جانب شكلها الجمالي الملفت للعيان فأنها علامة على اكتمال بنيان البيت، ولهذا لا توضع على البيوت ذات الطوابق الأقل من ثلاثة، التي تظل إمكانية استكمالها قائمة وفقا لحاجة صاحب البيت وظروفه المادية.

(ب) الزخارف والنقوش الداخلية

تتميز البيوت التقليدية بغناها في الزخارف والنقوش في واجهاتها الداخلية، وهي تتوزع في جميع أجزاء البيت وغرفه ابتداء من عقود الدَّرج (السّلم) التي تكون في بداية كل صرح، وحتى نهاية المنزل وهي تضفي على سقف الدرج ارتفاعا يجعل حركة الأفراد طبيعية دون حاجة لأن يحنو رؤوسهم.



وتكثر العقود بصفة خاصة داخل المفارش، خاصة فوق النوافذ والأولاج التي يتفنن البناؤون في إتقان بنائها وزخرفتها، بحيث تبدو وكأنها لوحات جدارية تعكس ذائقة الناس الجمالية، ولا تخلو البيوت التقليدية من هذه النقوش والتشكيلات الفنية الناطقة والمعبرة ، وهي عبارة عن أشكال هندسية تتشكّل من الحجارة على هيئة دَرَق (تروس) دائرية الشكل، ومثلثات ومربعات متدرجة وصلبان ونجوم وهيئات عصافير وغيرها، فضلا عن الأشكال التي تزين فتحة (بيت المداعة) المولج في عمق المدماك وكذا أبواب الخِلال الكبيرة والمخزّنات الصغيرة المنحوتة برسوم وأشكال جميلة.

كما كانت تُزيّن الأخشاب الكبيرة بنقوش منحوته في واجهاتها الظاهرة بطريقة الحفر، وحين دخل الطلاء بألوانه المختلفة، بعد الاستقلال الوطني ووصول طرق السيارات، أخذ الناس يتفننون في تزيين الأخشاب والأبواب بزخارف وتشكيلات فنية متعددة ملفتة للانتباه. أما قبل دخول دهانات الألوان الصناعية(الطلاء) فكانوا يحيطون جدار الغرف من الأسفل بارتفاع متر تقريبا بشريط من ألوان غامقة غير الأبيض يحضرونها من الأشجار وغيرها، ويسمى

هـذا الـشـريط باسـمـاء متعـددة في مختلـف المنـاطق، منهـا (الحُـذوة / الحُضوة/الحنوة/الحزمة/ القَطّه).



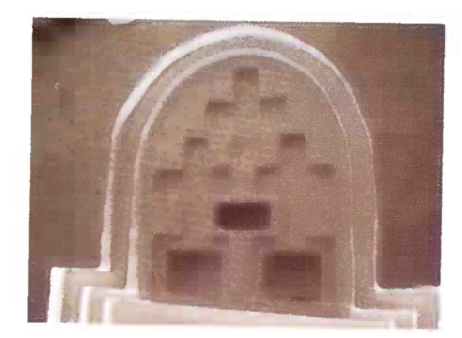
والمتأمـل في جماليـات فنـون وزخـارف المعمـار اليـافعي، يخلـص إلى أن المعمـاري اليافعي قد جال بخياله وتأملاته إلى أبعد مما نتصور، متخذا من محاكاة المرأة طبعا، وليست المرأة العادية بل المرأة الملكة مجسدا لزينتها وجمالها من خلال عمارتـه باعتبارهمـا - البيـت والمـرأة - يحمـلان دلالات الـسكينة والاسـتقرار والجمال والمتعة، أقرب الأشياء إلى نفسه، وهذا ما يفسره انتهاج سبيل المحاكاة، من خلال التمعن والتدقيق في المواءمة بينهما. ولهذا كانت الكواثر أو التشاريف، كما يقال لها، وهي عادة ما يتم بها تشريف البيت أو اكتماله، تمثل دلالات ترمز إلى التاج المتوج على رأس الملكة المرأة. وهذه التشاريف أو الكواثر الست أو الأربع تحاط بمسعى، وهو سترة البيت، وتقام على زوايا البيت وفقاً لنظرية فيثاغورث إضافة إلى كونها في قمتها مدببة وحادة تماماً كتدبيب أطراف التاج.. وفي نهاية إعمار البيت وفي سياق مبنى البيت يتم إبراز الوطاف «أو المطاف» ويمثل العقد الذي تضعه المرأة على جيدها أو عنقها. أما أحجار المرو والصيوان البيضاء التي تمثل بعض الرسوم والنقوش والبراويز على واجهـات





البيت من الخارج، فهي تمثل الجواهر والحلي التي تزين صدر الحسناء، بينما يمثل خط المرو الفاصل أو النورة حالياً حزام الفضة أو النسعة الذي تلف به المرأة خصرها.. وهذا ولا يعني أن المعماري اليافعي أغفل تجسيد شخصية الرجل، إذ عمد إلى ذلك من خلال العكوف والأشكال الموحية لهيئة الرجل، وكذلك بعض رموز الطير في الواجهات الداخلية للبيت، وحول النوافذ من الداخل، وهذا ما يفسره غموض شخصية الرجل، باعتبار أن الرجل يحب أن يحتفظ بزينته لنفسه ناهيك عن أن هذه الأشكال والرموز يكتنفها الغموض والتأويل تماماً كغموض شخصيته وقدرته على الكتمان والتحمل[1].





1 - الفن المعماري في يافع، أحمد يسلم صالح، الثقافية، العدد 258، 2004/9/12م، ص18-19.

ويمكننا القول إن واجهات المنزل التقليدي، الخارجية والداخلية، ثرية وغنية بالنقوش مقارنة بالواجهات المعاصرة الصماء الخالية من أشكال الزخارف والنقوش، بل أن معظم واجهات البيوت الحديثة، خاصة الداخلية منها، لا تعدو أن تكون حيطانا عادية متساوية في الارتفاع، ولا يمكننا وصفها إلاّ بالواجهات الصماء والخرساء التي لا تحمل شيئاً من الفنون الزخرفية مقارنة بالواجهات المماثلة في المباني القديمة، فقد اختفت للأسف الشديد النقوش والزخارف الداخلية، وقلت النقوش الخارجية، ولا نقول انعدامها، كما حل الأثاث الحديث المستورد، مثل سرير النوم والدولاب (الكبت) محل (الهدة) و(الخلة) و(الولجة) وغير ذلك. واختفت أيضاً الزخارف والنقوش الحجرية الخارجية المتمثلة بالدرق والأشكال الهندسية المثلة والدوائر وأشكال الطيور والنجمة السداسية والعلسة والثريا وغيرها من الأشكال الجمالية، بما فيها تلك الزخارف التي تزين العقود فوق السدة الرئيسية، إلا فيما ندر.



يلاحظ ثراء النقوش والعقود في واجهة منزل مرمم بالاسمنت في جبل اليزيدي

المِحَاض والتَّبييض



بعد الانتهاء من تشييد البيت اليافعي، تبدأ عملية (المِحَاض) أي تجهيزه من الداخل بتطيين الجدران الداخلية بمادة (الخلب) أو (اللبن) المخلوط بروث البقر المجفف (الضّفع) لكي يعطيها التماسك، وتُسد بها الفجوات والثقوب والفُرَج بين محال اتصال الحجارة، ومساواة الواجهات حتى تكون ملساء ناعمة، وبعد أن يجف (المحاض) كانت تُطلى الجدران فوقه بمسحوق مادة بيضاء تسمى (البياض) وهي أشبه بالطلاء الأبيض المائي الصناعي المستخدم الآن، تُستخرج من بطون الجبال الجيرية البيضاء. وكان من اختصاص النساء تمليط (محاض) وتبييض الغُرف، حيث يقمن بذلك دوريا، مرة في العام على الأقل، وغالبا يتم تجديد الملاط الطيني وتبييض الجدران الداخلية للغرف مع اقتراب الأعياد الدينية، خاصة عيد لأضحى المبارك، أو الاحتفاء بمناسبة زواج أحد ابناء الأسرة، أو عودة مغترب بعد سنوات طويلة من مهجره.

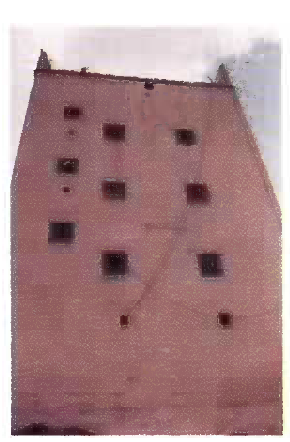


ومن يشاهد جدران المباني القديمة سيجد بقايا طبقة ملساء من اللبن والبياض كُسيت بها تلك الجدران (كما في الصورة). وقد اختفى المحاض والبياض الآن وحل محله الاسمنت والجبس، واستخدام الطلاء المستورد في صبغ واجهات الجدران الداخلية.

وما تزال في بعض البيوت بقايا تلك الزخارف والرسوم التي تزين واجهات الغرف والأخشاب، أو ذلك الشريط من الألوان الغامقة الذي يحيط بالغرفة من

الأسفل، ثم يعلوه اللون الأبيض، ووظيفته إخفاء الأوساخ العالقة جراء اتكاء الناس عليه أثناء جلوسهم، ويُعرف كما أسلفنا بـ(الحُذوة/الحُضوة).







وكان عدد البيوت المطلية بالنورة قليلة: فضلا عن طلاء سقوف المساجد وملحقاتها وأضرحة الأولياء بالنورة وخزانات المياه وغيرها، أما الاسمنت فيستخدم كثيرا في واجهات البيوت القديمة والجديدة وبطرق مختلفة.

الخَتِيْمه/التَخْتيمه:

الختيمة أو التختيمة في اللهجة اليافعية هي مراسيم الاحتفاء باختتام بناء وتشييد البيت الجديد، وجرت العادة أن يكون ختامها مِسكٌ، حيث يقيم صاحب البيت مأدبة عشاء فاخرة، ينحر فيها رأس أو أكثر من الأغنام أو الأبقار حسب مقدرة وسعة ويسر صاحب البيت، ويحضرها إلى جانب المشاركين الضيوف من الشخصيات الاعتبارية والأقرباء، ويباركون لصاحب البيت هذا الانجاز. وإذا كان رب البيت ميسور الحال فإنه يشتري في هذه المناسبة ثياباً جديدة هديةً للبنائين، بشكل خاص، وقد يجود أيضاً بكسوة جديدة على جميع المشاركين في تشييد البيت من البنائين والعمال وأفراد الأسرة من النساء والرجال الذين اسهموا في البناء، كل بقسطه، سواء في جلب الماء أو التراب أو في طهي الطعام وغير ذلك من الأعمال الأخرى.

طُرُق ترميم وصيانة المباني

في الماضي، كانت صيانة جدران البيت الداخلية والسطح (الجُبَا) تعتمد على القيام دوريا بتكسيته بالطين المخلوط بالماء وزبل البقر (الضفع) وهذه العملية تُسمى (المحِاض)، كما أسلفنا. ولم يكن بمقدور اليافعيين إجراء ترميمات لجدران بيوتهم التي تصاب بالتصدع، إلا بطرق بدائية، هي المتاحة حينها، لتدارك التصدعات أو العيوب فور ظهورها، ومن تلك الطرق:

الهدم الجزئي

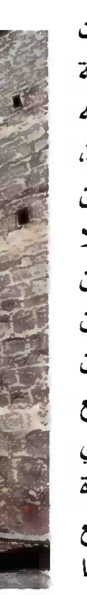
ويتم اللجوء إليه عند ظهور التصدع في جدار البيت من الأعلى، حيث تتم الاستعانة بأحد البنائين المَهَرة ويقوم بالإشراف على الهدم الجزئي لموقع التصدع وتتبعه حتى نهايته في أي من واجهات البيت، ومن ثم يقوم بإعادة البناءٍ بنفس الحجارة وبطريقة تتداخل فيها الحجارة لضمان تماسك الجدار مجدداً.

البَنْلة (أصلها بفلة)



وهي بناء خارجي إضافي أو دعامة تشيد لإسناد أساس البيت عند ظهور تصدع أو بوادر تشقق في حجارة ساس المبنى أو تآكلها بسبب الأملاح وغير ذلك من الأسباب، وتكون (البَنْلَة) على هيئة دعامة متدرجة الميلان وتبدو وكأنها نصف دائرية، وتشاهد مثل هذه الدعامة غالبا في البيوت القديمة المشيدة في منحدر جبلي "ضاحة/ ضَوحَة" أو في أرضية جبلية رخوة "متنه راخي" وتُجدد دائماً بين فترة وأخرى، حسبما تقتضي الضرورة ذلك، للحفاظ على البيت ومنع المزيد من تصدعه أو انهياره.

الترميم باستخدام الاسمنت



سهل دخول الاسمنت كثيرا عمليات الترميم للبيوت القديمة المتهالكة وإطالة عمر بقائها، وأقبل الناس على استخدامه بشكل كبير في ترميم بيوتهم القديمة، باتباع عدة طرق منها: طلاء الجدران الخارجية للبيت بتكسيتها كاملا بالاسمنت بطريقة يختفي معها لون الحجارة، ثم يلوّنها بأشكال هندسية ويلون أيضا الشريط الفاصل بين الطوابق باللون الأبيض، وبالمثل يتم طلاء التشاريف مع (المسعى) باللون الأبيض أيضاً. وقد يكتفي البعض بتكحيل الفراغات بين الحجارة وملئها بطبقة خفيفة من الأسمنت، أو وضع تشيكلات اسمنتية مربعة تُطلى حوافها بالأبيض أو الأسود.

ومن عيوب صيانة وترميم البيوت القديمة بالاسمنت، أنه يفقدها شكلها الأصلي، خاصة حين تطلى الجدران به كاملا، لكنه أصبح مهما لاطالة عمر البيوت القديمة



التي مضى عليها زمن طويل، وينبغي أن يحرص الناس على استخدامه بطريقة متقنة في الفراغات بين الحجارة وبشكل يبرز الحجر ولا يشوه المبنى، خاصة في الواجهات الخارجية، وكذلك ترميم

سطح المنازل القديمة بطبقة من الاسمنت لمنع تشققها أو تسرب المياه من بين فتحات الحجارة إلى الداخل.





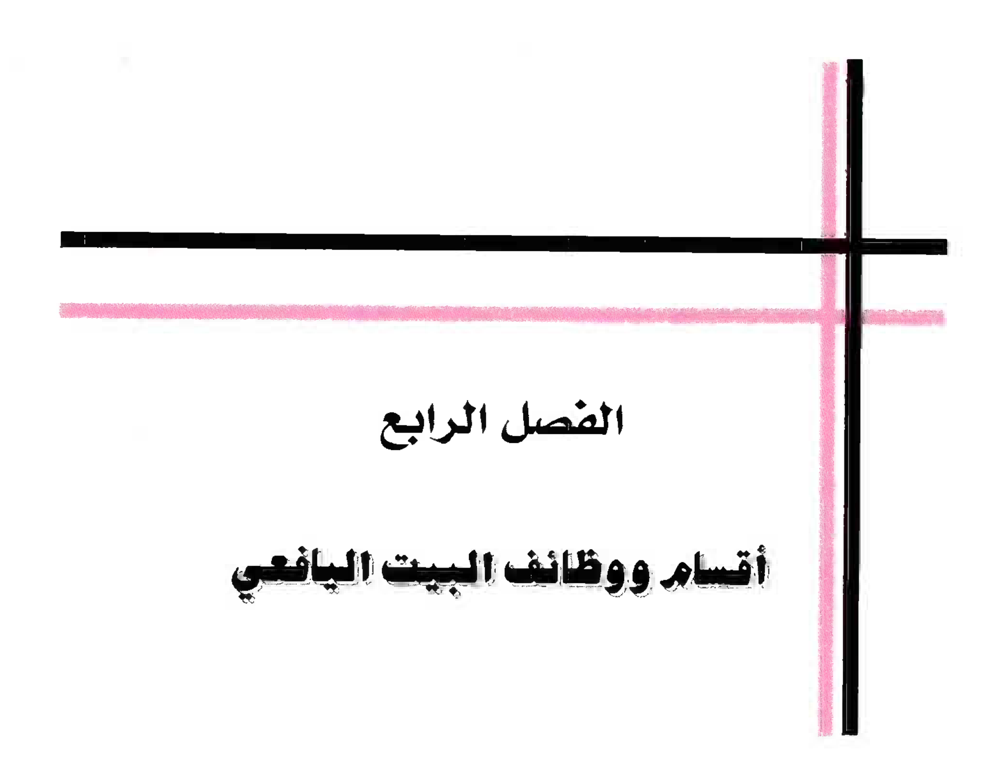
ترميم مسجد (القفلة) الأثري وقد أخفى لون الحجارة بطمسها بالاسمنت والطلاء





الشَرَّابَة

هي حجر في واجهة المبنى تخرج حافتها العلوية قليلاً عن مستوى الحجر التي تحتها فيتسرب منها ماء المطر إلى مدماك البناء، ثم تظهر آثاره في جدران المنزلِ الداخلية، خاصة في مواسم الأمطار المتواصلة، ولا يُدرك هذا الخلل بسهولة إلا للباني الماهر، ويتم معالجته بسد الشقوق الصغيرة حول تلك الحجرة "الشرَّابة" بأجزاء صغيرة من الحجارة وإزالة حافتها المرتفعة لمنع تسلل الماء منها مجددا.



الفصل الرابع

أقسام ووظائف البيت اليافعي



قرية الطف يشمخ فيها قصران حديثان



قرية آل المالكي- في وادي البُن - حطيب

الفصل الرابع

أقسام ووظائف البيت اليافعي

يعد المعمار التقليدي اليافعي استجابة حقيقية لحاجيات المجتمع الفطرية وانعكاساً مباشراً لنمط الحياة الاجتماعية ، وكل جزئية في المعمار تؤدي وظيفة محددة أو ترمز إلى هدف ما . فالمسكن هو فضاء العائلة الخاص ويتلاءم مع مجمل نشاطها وإطار علاقاتها، فالحاجة هي أساس كل بناء، ويتميز البناء القديم بتصاميم بسيطة في أشكالها عميقة في دلالاتها، فلم تُوضع مواد بناء إضافية لا تؤدي دورها أو تفوق مقاييسها الحاجة والاستعمال، فكل الفضاءات مستغلة ومستعملة بصفة دقيقة فلا يكاد يخلو فضاء من الاستعمال(مغسال، هِدِة، أولاج، دولجي..الخ). وقد كان ارتفاع السقف التقليدي لا يتجاوز المترين والنصف، إلاّ في حالات نادرة، وهذه المقاييس ليست دائماً مضبوطة، وإنما تستند إلى عدم الإسراف والتطاول في بنيان السقف فوق الحاجة. ويندمج الأثاث مع بناء المسكن ويدخل في تصميماته: الخلّة، المخزنة، الأولاج، مع ما يحيط بها من عقود وزخارف وتشكيلات فنية وهو ما يضفي على المسكن لمسة جمالية فريدة.

استخدام فضاء البيت الداخلي

أحسن اليافعيون استخدام فضاء البيت الداخلي بصورة مثلى، فجعلوا من كل طابق شقة مصغرة يحتوي على غرفة جلوس(مفرش)، وسرير للنوم(هِده)، وحمام(مُطهار)، ومخزن(خله)، وأكثروا من استغلال نظام التجويف الجداري من خلال الأولاج التي تستخدم لمختلف الأغراض، وهي موزعه بنظام دقيقٍ وتزينها الأقواس والأكاليل والزخارف التي تُضفي على الجدران الداخلية جمالا لا تضاهيه فنون "الديكور" التي يتهالك عليها أجيال اليوم.. بعد أن تخلوا جهالة عن ميراث فن العمارة والتشييد الحِمْيَري.. ويجدر بنا الإشارة إلى أن الاستغلال الأمثل لفضاء البيت الداخلي لم يمكن سكان البيت من حُرية الحركة داخله فحسب بحيث لا يعيقهم متاع البيت وأثاثه، وفي ذات الوقت فإن أيدي الأطفال تقصر عن الوصول إلى الأشياء الخطرة أو القابلة للإتلاف. هذه

المنافع الخدمية وغيرها من الوظائف الهندسية العائدة عن استثمار الفراغ الجداري، التي أدركها الحِمْيَرِيُّون منذ أمدٍ بعيد تكمن في زيادة سعة حجرات الطوابق[1].

ونتعرف فيما يلي على وظائف ومفردات البيت اليافعي التقليدي بدءاً من بوابته التي تُسمى "السدة":

البوابة الرئيسية (السُّدَّة)

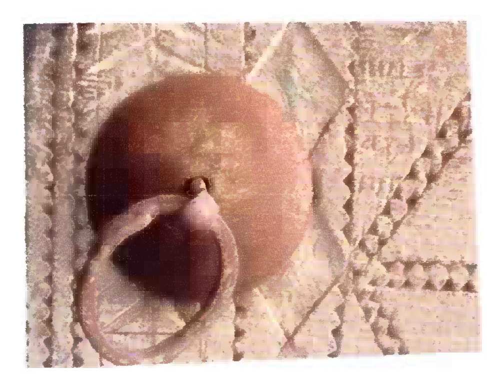


الزائر لمنطقة يافع والمتشوق للاستمتاع بعمارتها الفريدة،سيكون أمام منظر لا أحلى ولا أجمل وهو يقف منبهراً أمام الأبواب الخارجية العتيقة حيث يرى الجمال الآسر والإبداع الزخرفي. وتُسمى البوابة بالمفردة المحلية"السّدة" أي ما يُسَدُّ به المدخل الرئيسي للبيت بهدف تأمين الدخول والخروج وحمايته من المطر والرياح ومانع من دخول الحيوانات وغيرها.

وتتميز "السدّة" بأنها ذات سماكة وقوة لأهميتها في تأمين المنزل، وتمتزج عناصر الجمال بالقوة والفخامة في مكوناتها، إذ كانت تُصنع دَرْفَتَا السدّة من ألواح غليظة ثخينة مستطيلة، يتراوح سُمكها ما بين 10 - 15 سنتيمتراً، وتكون غالباً من خشب السدر (العلب) المعروف بصلابته وقوته، وتصميمها خاص ومزين برسوم وأشكال فنية منحوتة ذات صبغة جمالية، وقد تُحفر فيها بعض كلمات في الدعاء أو في الحكمة، أو ذكر صاحب الدار، أو اسم النجار "الوشّار"، كما في

[1]- مطارحات حميرية في عروبة الثقافة اليونانية، فضل الجثام ، ص 333-334.

بعض بيوت سلاطين "القارة". ولسماكتها وصلابتها تكون السدّة عصية على الكسر، ولا تخترقها الأعيرة النارية، ولها مغلاق خاص يُسمى:أَلَقَة".





وتُثبّت فيها من الخارج قطعة حديدية دائرية الشكل ومجوفة من داخلها، تُسمى "حَلَقَة" ولها مقبض حديدي أيضا يقرع بواسطته القادم في الحلقة ليفُتح له الباب، أي أنها كانت تستخدم بمثابة جرس.



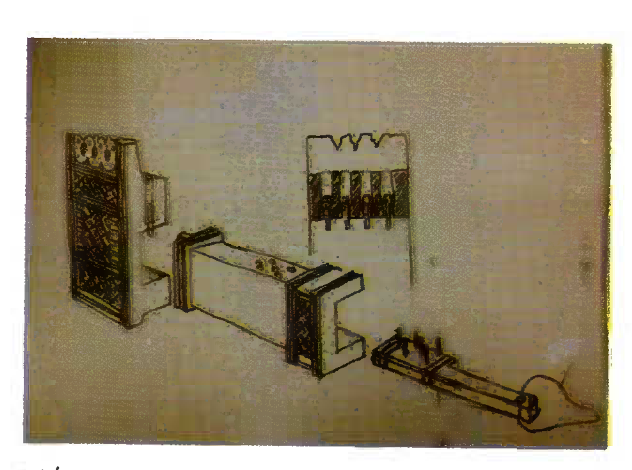




كما تُحاط السدة بعناصر جمالية مكمّلة ومتناغمة معه، خاصة تلك العقود النصف دائرية المتناسقة التي تعلو البوابة والمزدانة غالبا بنقوش وزخارف متنوعة غاية في الروعة هي عبارة عن تكوينات ناتئة من الحجارة أو تجاويف غائرة ذات اشكال مثلة أو مربعة(شكل الصليب) أو النجمة السداسية وغير ذلك من التشكيلات الفنية التي تتخذ للزينة.

وجرت العادة أن يكون اتجاه باب البيت (السدة)، خاصة في المباني القديمة، باتجاه الغرب أو الجنوب، ويتحاشون أن تكون في جهتي الشمال والشرق، إلا عند الضرورة القصوى أو لوجود ساتر جبلي أو بناء قائم مجاور، لأن الرياح الباردة التي تحمل رذاذ الأمطار "الساي" تأتي بشكل رئيسي من اتجاه الشمال والشرق.

الألقة / الغَلَقَة



هي قفل خشبي يُصنع من خشب السدر لاحكام إغلاق البوابة الرئيسية "السدّة"، ويشبه في شكله العام الصليب عند وضع الإغلاق، ولا يخلو هو الآخر من نقوش منحوتة أو زوائد مسننة في أعلى الجزء العمودي منه، بحيث يبدو متناسقاً مع بقية الرسوم والتشكيلات التي تزين (باب السُّدَّة). ويُثبت الجزء العمودي منه على المصراع الأيمن بمسامير حديدية قوية محلية الصنع، لا يقوى أحد على انتزاعها، وفيه فتحة يدخل فيها الجزء الأفقي من شكل الصليب متحركاً في امتداد محدد يميناً وشمالاً، وفي طرفه فتحة خاصة لدخول المفتاح إلى تجويفه، ويتم من خلاله التحكم بالفتح والإغلاق، فعند الإغلاق يُدفع الجزء الأفقي حتى نهايته إلى جهة الشمال فيصل إلى المصراع الأيسر للباب، وحينها تسقط تلقائياً أسنان القفل الخشبية أو الحديدية المتعددة والمثبتة في الجزء العمودي فيدخل كل سن منها مباشرة في البيت أو المجال المقابل له والذي حُفر بدقة متناهية في الجزء الأفقي للقفل فتكبح هذه السنون القوية حركة القفل، وبهذه الطريقة يوصد الباب. ولا يستطيع أحد فتحه إلا بمفتاحه الخشبي الخاص الذي يشبه بشكله فرشاة الأسنان الحديثة، وقد يُصنع من الحديد، وتكون له أسنان موزعة بطريقة حسابية تراعي أبعاد أسنان القفل

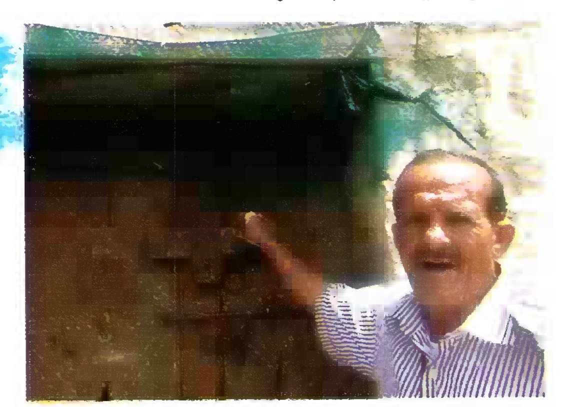


وتساويها بالعدد، وعند الفتح يتم إدخال المفتاح في مجاله الخاص داخل تجويف الجزء الأفقي من القفل، وبتحريك أسنانه إلى الأعلى ترتفع أسنان القفل، ويُسحب الجزء الأفقي إلى اليمين فينفتح القفل.

ويحرص صانعو هذه الأقفال الخشبية على عدم تطابق فتحات أسنانها بحيث يحتفظ كل قفل بخصوصيته "شفرة خاصة" ولا يستطيع أحد فتحه إلاّ بمفتاحه الخاص، وهي تقنية عجيبة تشبه التقنية الحديثة في صناعة الأقفال الحديدية التي نستخدمها اليوم .

ويقال في الأمثال :"ألَقَةْ مِسْجِد"، كناية عمن لا يوثق به في أمر أو سِرٍّ. وكانت ألقة المسجد تفتح بسهولة لكل من يؤم المسجد للصلاة لكثرة استخدامها. وقولهم:" ألَقَهْ خَارطي مارطي"، في وصف القفل الخشبي المتهالك أو الرديء الذي لا يتصف بالمتانة والقوة ويسهل فتحه بغير مفتاحه، ويُطلق المثل على من لا يحتفظ بالسر.





المَوسَكْ



مـزلاج خـشبي للـتحكم بـإغلاق البـاب مـن الـداخل وشـكله كالـصليب في وضـع التقاطع، حيث يغلق مِصرَاعي البـاب مـن خـلال دفـعٍ الجـزء العمـودي منـه يـدويا بـسهولة إلى فتحة في المدماك الأعلى ثم تثبيته بالجزء الأفقي الذي يتم تحريكـه إلى جهـة اليـسار فيثبتـه، وهـو بـدون قفـل. يقـال(وَسِّـك الـسدّه) أي أوصدها بالـ(مُوسـك). وفي الفـصيح (سـكّ البـابَ) أغلقـه بالحديـد أو المسامير "سكَكْت البابَ على من بالدَّار"[1].

المُعلَج:



عمود خشبي قوي، مستدير الـشكل غالبـا، يزيـد طولـه عـن عـرض البوابـة بحـوالي ذراعين، يحكِم إغلاق الـسدّة الرئيـسية للبيـت مـن الـداخل، ولـه فتحـة غـائرة عرضياً في المدماك في إحدى جهـتي البـاب تـسمى (بيـت المعلـج) ، يوضـع فيهـا نهـارا حين تكون السدّة مفتوحـة وعند الحاجة لإحكام إغلاق الباب يُسحَب (المُعْلَج) من مخبأه أو بيته ويُجر على امتداد الباب أفقيا حتى إدخال ذراع أو أقل قليلاً من طرفه إلى الفتحة المقابلة له

[1] انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: كلمة (سك).

في المدماك على الجهة الأخرى من الباب. وبهذه الطريقة يثبت (المِعْلِجْ) كل مساء حين يأوي الجميع إلى البيت، ولا يُفتح إلا في الصباح الباكر عندما ينهض أفراد الأسرة لممارسة أعمالهم الاعتيادية. وكان هذا المزلاج، إلى جانب (الموسَك) من أهم الإجراءات الاحترازية لتأمين (سدة البيت) من أي هجوم مباغت أو سرقة ونحو ذلك في جنح الليل. وفي المأثور الشعبي لغز (محزاة) عن (المعلج) يقول: (أَحْزِيك من شي يظلي في بيت ويمسي في بيتين).

السِّجْف

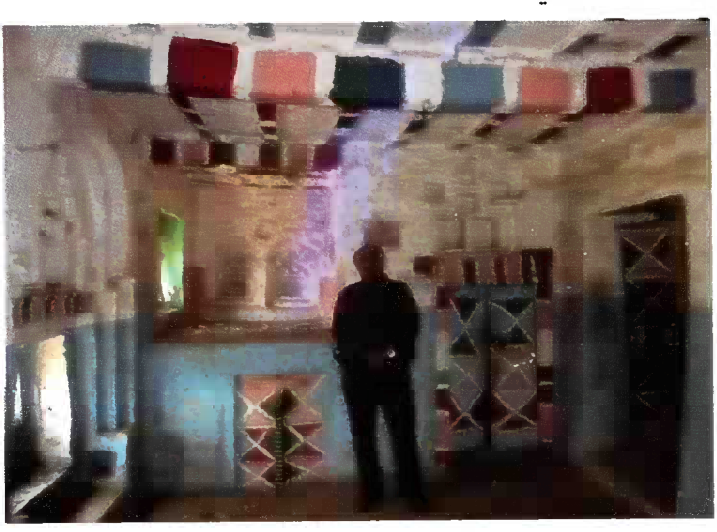
فاصل رفيع وخفيف يُقسِّم غرفة المطبخ (الدَّيمة) أو أي من غرف البيت، خاصة المفرش، إلى قسمين لمواجهة تزايد أعداد الأسرة أو عند انقسام الأسرة الكبيرة إلى قسمين أو أكثر في ظل السكن بالبيت الواحد، ويطلق على الأسر المتعددة في إطار البيت الكبير الواحد اسم (حُلَل) أي أنهم يحلون جميعهم في مسكن واحد، وكانوا يستخدمون في نصب هذا الفاصل (السِّجْف) قصب الذرة الجافة حيث يجمعونها ويضمونها بجانب بعضها البعض ويوثقونها لتستقر رأسياً بحبل مصنوع من الخوص يُسمى (العَطَر)، وبعد أن تستقيم يأتون بخليط الخلب الممزوج بالزبل (الضَّفع) فيغطون به حائط القصب من الجانبين لتثبيته وتمتين تماسكه. وكانوا يشيِّدُون السّجف بهذه الطريقة. لخفة وسماكة القصب حيث لا تأثير سلبي له على السقف التحتي، مقارنة بفاصل مماثل من الحجارة تكون سماكته أغلظ وثقله أكبر ولأنه أيضا لا يشغل حيزاً كبيراً من مساحة الغرفة. وفي لهجتنا يُكنى الشخص الضعيف الذي لا رأي له بالسجّف، فيقال (فلان سِجْف). و(السَّجْفُ) في الفصحى معناه السّتر أو الستارة.

مكونات الأدوار العليا

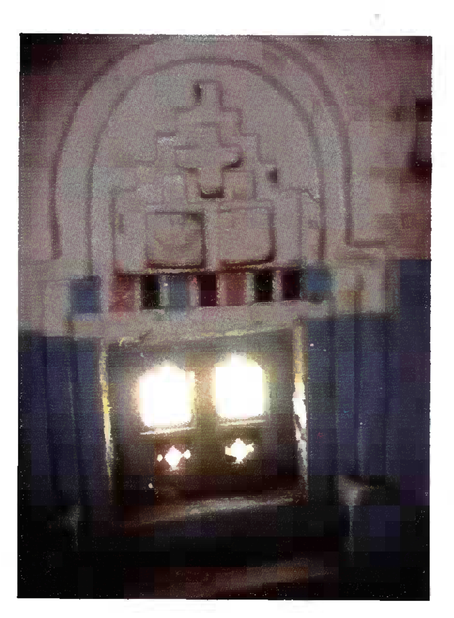
تُخصص الأدوار العليا، ما بعد الدور الأرضي، لسكن أفراد الأسرة. وهي نمطية من حيث عدد الغرف التي تقوم حول السلم، ويتكون كل دور في البيت التقليدي (المربع) من غرفتين هما "المَفْرَشْ" و "العلية/المربعة/ المسَرأ" حيث يُسرى إليهَا للراحة. وتزداد الفتحات والزخارف والنقوش الخارجية في الأدوار العلوية التي تخصص بكاملها لسكن أفراد الأسرة، سواء المفارش أو المربعات.

أولاً: المَفْرَش

يمثل المَفرَش الغرفة الرئيسية في كل دور، وهو يشغل بملحقاته نصف مساحة كل طابق بشكل طولي، ويستخدم بدءاً من الدور الثاني غرفة للمعيشة واستقبال الضيوف وغرفة للنوم، ومكوناته وتقسيماته تتناسب مع وظائفه المتنوعة وتفي بما يحتاج إليه الزوجان وأولادهم. وللمفرش باب خاص به مُحكم الإغلاق، وقد يدعم على جانبيه طولاً بعودين مستطيلين من خشب(العِلب) أو(الأثل) لسد الفراغ بين الباب وعمود الجدار، وهو ما يسمى الآن(فيَّاره).. ومن أهم مكونات المفرش، النوافذ والهدة والخلة والمطهار والأولاج وغيرها، وسنتحدث عنها على النحو التالي:



النوافذ (الطُّوَق)



في الماضي، وفي البيوت القديمة، كانت النوافذ الخشبية تبدأ فقط من الدور الثاني أو الثالث، ثم تزداد مساحتها الخارجية كلما ارتفعنا نحو الأعلى حيث تُخصص الطوابق العلوية كمساكن لأفراد الأسرة. ووظيفة النوافذ بنوعيها هي ادخال نور الشمس المباشر وغير المباشر والتهوية حيث تسمح بدخول الهواء، وإمكانية الرؤية من خلالها إلى الخارج للمراقبة وتوفير المنظر، وتتلائم اللّهوج (الطّوَق) مع هذه الوظائف في ظروف المناخ السائد البارد شتاء والمعتدل صيفا.

توجد في الغرفة الكبيرة(المفرش) في البيت التقليدي من أربع إلى خمس نوافذ خشبية (طُوَق)، واحدة في أعلى المجلس وثلاث في الواجهة المستطيلة، بما فيها نافذة الهدة المرتفعة. وتكون هذه النوافذ ذات فتحتين، أو فتحة واحدة، وبمستوى واحد من الارتفاع والحجم، وتكون لكل فتحة درفة خاصة بها من الخشب تحكم إغلاقها من الرياح والغبار وزخات المطر، وأدخل عليها الزجاج فيما بعد.







(ب) المربعة/ المُجَنّب:

تشغل رُبع مساحة الدور الأرضي، وكانت في السابق تستخدم لأغراض متعددة، إما مأوى للحيوانات أو لخزن المواد الغذائية والممتلكات الخاصة، ولم تكن لها نوافذ كبيرة ، عدا فتحة صغيرة أو فتحتين (لهوج)، أما في المباني الحديثة فتستخدم أسوة ببقية غرف البيت للسكن والنوم، ولها نوافذ كبيرة.

(ت) الدولجي

ومن مكونات الدور الأرضي (الدَّوْلَجي/الدّوْجَلِي)، وهو مخزن صغير، يتكون من الفراغ الناتج تحت سقف صَرحَة الدرج الأولى، ويستخدم لحفظ بعض



الأدوات والمعدات الزراعية وغيرها من الأدوات، وقد يكون له باب خاص أو يترك بدون باب. وفي الفصيح الدَّوْلَجُ: المَخْدَعُ وهو البيت الصغير داخل البيت الكبير، وأصل الدَّوْلَج وَوْلَجٌ لأنه فَوْعَلٌ من وَلَجَ يَلِجُ إذا دخل فأبدلوا من التاءِ دالا فقالوا دَوْلَجٌ (لسان العرب).

(ث) المَدَجْ:

الخُمُّ، محبس الدجاج الذي تأوي إليه وتبيض فيه، وهو مخزن أصغر من (الدولجي) وموقعه عادة في الطابق الأول أو مبنى صغير متواضع مشيد من الحجارة بجانب البيت. وكانت ولا تزال الدجاج تلقى عناية كبيرة ولا يخلو منها أي بيت، ويُستفاد من لحمها وبيضها.

(ج) المخزن وبيت المطحن:

تخصص في الدور الأرضي غرفة لخزن وحفظ المؤن الغذائية وغيرها، تسمى (المخزن/المخزان) ويكون بجانبها مكان للمَطْحَنَه/المَطْحَن، وهي الرّحى، الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران متطابقان يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب خشبي يُسمى (القلب) وهو عود قوي يُثَبَّت في منتصف الحجر السفلية في ثُقب غير نافذ ويوصل إلى فتحة مقابلة في الحجر العلوية فيتيسر دوران الحجر العلوية حول القطب (القلب) ويتم ذلك بتحركيها بواسطة مقبض خشبي يسمى (يد المطحن) يُثبت في فتحة جانبية على الحجر العلوية، كما توجد فتحة صغيرة في الحجر العلوية بجانب (القلب) تُدخل فيها الحبوب التي يتم طحنها بكميات قليلة.



وكانت هذه المطاحن تتواجد في كل بيت قبل أن تحل الطواحين الآلية ويختلف حجمها حسب الطلب، وتُثبت في أماكن خاصة بها داخل البيت، خاصة في غرف البيت الأرضية، أو تفرعاتها الصغيرة، وكانت المطحن تُحاط ببناء دائري من حولها يُسمى (المُهْجُن) يستقر في قاعه الدقيق المطحون، وكان يتم صبغه بمسحوق ورق "العُبب" للحفاظ على تماسكه وملاسته، وكانت المرأة تستخدم (مَلَفَّه) وهي قطعة صغيرة من فرو الضان تجمع بواسطتها الدقيق عند الانتهاء من الطحن.

وفي بعض الحصون توجد مخازن الحبوب (المدافن) في الدور الأرضي.

مكونات ووظائف البيت اليافعي

إن الوظيفة الرئيسة للبيوت، بأنواعها الرئيسية الثلاثة، هي السكن للاستقرار والأمان، أو لخزن المؤن والأدوات المنزلية، كما سنوضح ذلك في البيت التقليدي الأكثر شيوعا (المُربَّع)، على النحو التالي:

مكونات الدور الأرضي

في الماضي، مع ظروف انعدام الأمان، كانت وظيفة الدور الأرضي في البيوت القديمة مخصصة لإيواء الحيوانات المنزلية، وخاصة الأبقار، وكذا لخزن المؤن الغذائية والممتلكات الخاصة، وكان الدور الأرضي غالبا يتكون من :

(أ) العَكَمْ، أو السِّفِلْ:

يُطلق العَكَم أو السّفِل على الغرفة التي تأويها الحيوانات، خاصة الأبقار، وتُسقف بالأخشاب غير المستوية(العوجاء)، فالمهم هنا القوة وليس استواء الخشب أو منظرها، ولهذا يُقال (الخشبة العوجاء بيسوُها بالسفل/العكَم)، وبجانب الدور الأرضي يُبنى مكان خاص تمكث فيه الأبقار في النهار يسمى "مدارة" أو "حويِّة".



وعندما كان الدور الأرضي مأوى للحيوانات كان يُوضع في بداية سُلّم الدَّرج عائق خشبي يُسمى(المُشْجُحْ أو المِشْجَاح) بطريقة أفقية على جانبي جدار الدرج بارتفاع معين بحيث يمنع صعود الحيوانات من الدور الأرضي إلى الأعلى، وكان الكبار يتخطون من

فوقه أثناء مرورهم، أما الصغار فينحنون ويدخلون من تحته. وقد يكون المُشجُح متحركا ويمكن انتزاعه حين تنعدم الحاجة إليه، وينعدم في البيوت التي تخلو من وجود مأوى للحيوانات فيها.

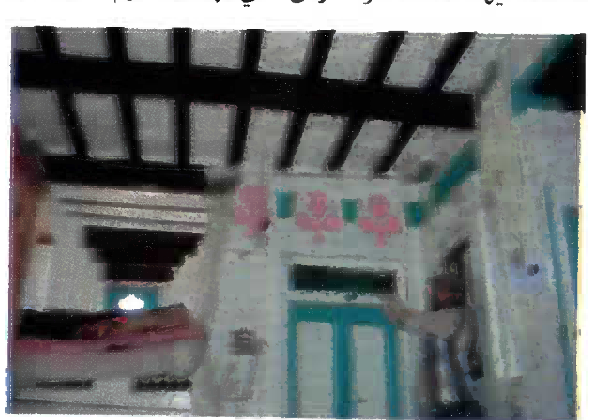
إن هذه العناية التي أبداها اليافعيون بتسكين الحيوانات في الدور الأرضية من بيوتهم تعود في الأساس إلى ما كانت تمثله من أهمية بالغة في حياتهم الاقتصادية بسبب منافعها الكثيرة، فمنها كانوا يحصلون على الألبان ومشتقاتها واللحوم والصوف والجلود، ويستخدمون بعضها، كالثيران والحمير، في حراثة الأرض وسقيها وفي نقل الأحمال والأثقال، بل وحتى روثها (الضفع) كانوا يستفيدون منه في أغراض شتى، فقد كان يُمزج الطازج منه بالطين اللّزج (الخُلَب) فيزيد من تماسكه ثم تُسد به خِلالُ الحجارة وتُطلى به واجهات البيوت الداخلية، وكان يُستخدم ما جف منه في الوقود عند الحاجة، وهو قبل كل شيء السماد الذي تُخلط به التربة الزراعية فيخصب زرعها. ولهذا كان مبلغ حرصهم على إيواء الحيوانات في أماكن آمنة في عقر دارهم لحمايتها من الوحوش المفترسة ومن برودة الطقس الشتوي القارس ومن تعرضها للنهب أو الأذى خاصة في أوقات الحروب والفتن القبلية التي كانت سائدة، ولهذه الأسباب أيضاً كانت النوافذ أو (اللهوج) تختفي بالكامل في الأدوار الأرضية ويستعاض عنها بفتحات أو ثقوب صغيرة تسمح بالكاد لدخول الهواء والأضواء. كما تنعدم فيها الأشكال والزخارف والعقود التي تتميز بها غرف الطوابق العلوية. ولا شك أن ندرة الفتحات والزخارف في الأجزاء السفلية من المبنى يمنح إحساساً بالقاعدة المتينة.

وخلال العقود القليلة الماضية تغير نمط الدور الأول وتبدلت وظيفته، بعد أن أصبح للحيوانات أماكنها الخاصة في الخارج بجوار البيت. وتحول بغرفه إلى سكن للأسرة وفيه تكون غرفة الاستقبال الرئيسية التي تُسمى (ديوان/ مجلس/ مفرش/ مِنزِله) وتشغل نصف مساحة الدور الأول وفيها نوافذ عديدة وكبيرة مشرعة لأضواء الشمس، يتم فيها استقبال الضيوف وجلسات السمر و(مقايل القات) مع كامل المرفقات العصرية، فضلا عن المجالس الخارجية الأكثر سعة ومساحة.

وإذا كانت نوافذ البيت اليافعي التقليدي تبدو صغيرة من الخارج فإن نظام "الأفاريز" على جانبي النافذة من الداخل والأقواس المتداخلة على العارض الداخلي الأعلى لها يجعلها متسعة متدرجة من الداخل إلى الحد الذي يجعل من شكلها أشبه بزهرة ما منفتحة على الداخل .. إلى جانب جمالية الشكل فإن هندسة النافذة على هذا النحو يحول دون تعرض أهل البيت لسياط برد الشتاء، كما يزيد من حجم الإضاءة الداخلة نهاراً في أي فصل من فصول السنة[1].

الهِدة.. سرير النوم العجيب:

نعم إن (الهدة) في البيت اليافعي سرير نوم عجيب حقا، ليس كالأسرة الخشبية المتحركة التي نعرفها، بل هي ميزة تتفرد بها العمارة اليافعية دون غيرها، فهي جزء ثابت في صميم بنيان الغرفة، وتشغل جزءاً من طرف المجلس "المفرش"، فوق سقف (الخلّة) المخصصة لحفظ الأشياء والأمتعة، وترتفع حوالي متر ونصف عن أرضية الغرفة. وتخصص "الهدة" في الغالب لنوم الزوجين، وهي توفر الراحة والنظافة والحشمة والوقار، ففي أثناء النوم تُوضع ستارة تحجب الزوجين في الهدة عن أطفالهما الصغار الذين يتمددون للنوم في أرضية المفرش. وفي أثناء النهار يمكن أن تحفظ فيها الألحفة والفُرْش التي تُبسط لنَوم الأطفال.



ولهذا السرير العجيب نافذة رئيسية أو اثنتان، وتلفت نافذة (الهدة) نظر الزائر وهو يتطلع في واجهة البيت التقليدي من الخارج فيرى جميع نوافذه بمستوى واحد، عدا واحدة ترتفع في المسقط الرأسي

---

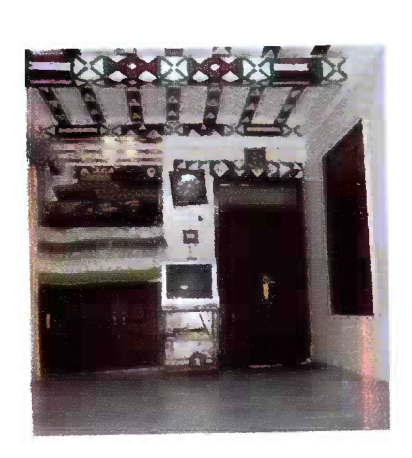
(1) [illegible] ص 335

بمستوى أعلى من بقية النوافذ في كل طابق، لكن استغرابه يزول مباشرة حين يعرف أن تلك النافذة المرتفعة مباشرة تحت خط بناء السقف هي خاصة بسرير النوم الزوجي وتتناسب مع ارتفاع (الهِدِهْ) الواضح عن مستوى المفرش، وقد يكون للهدة نافذتان في بعض البيوت من جهتين مختلفتين للرؤية والتهوية، ويمكن للمرء أثناء استرخائه للنوم أو عند نهوضه أن يرى من خلالها ما يدور في الخارج بدون عناء.

وكانت الهدة تُفرش بالألحفة وبُسط النوم المؤلفة من منسوجات صوف الأغنام ومصنوعات جلدية محلية أهمها (الخُطَّة، الفَرِيقة، البجاد، المثني) وتستخدم حسب الحاجة لها بما يتناسب مع درجة الحرارة أو البرودة، ثم جاءت البدائل الصناعية المستوردة في وقتنا الراهن. وبعض المفارش في البيوت القديمة (العَدَيل) تضم هِدتَيْن، إحداهما في أعلى المفرش بدون حمام، والأخرى في الأسفل بجانبها حمام. وفي بعض الحالات تكون في سقف الحمام فتحة إلى جهة الهدِة فيُتخذ منها سريراً للطفل بالقربِ من أبويه.

وكانت (الهدة) تُستخدم أيضاً منصة تتربع فيها العروس في يوم زينتها ثالث أيام الزفاف وهو ما يُعرف بيوم (البرَاكْ)، فتبدو بهيئتها وزينتها كالملكة المتوجة تجلس على أريكتها وعلى رأسها أكاليل الزينة، وفي هذه المناسبة يراها الناس بدور الزوجة لأول مرة. ويقال في أمثال اليافعيين"بنت العم نَزَلَه من على الهدِه" ويضرب في أحقية ابن العم بالزواج من ابنة عمه، حسب العُرف القَبَلي الذي كان سائداً في الماضي.

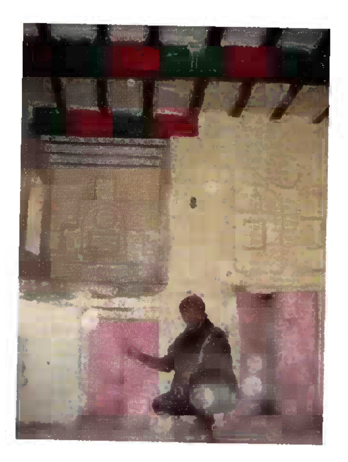
الخَلَّة:



تقع الخَلَّة تحت سقف "الهدة" حيث تستغل مساحتها كمخزن أو مستودع للأمتعة والأدوات المنزلية أو المؤن الغذائية التي تحتاج للحفظ في هذا المكان ولها باب خشبي محكم الإغلاق غير مرتفع ومن يلج منه عليه أن ينحني كثيرا ويثني ركبتيه حتى يتمكن من الدخول، ويوجد في بعضها كوة صغيرة (لهج) يفتح عند الدخول إليها للرؤية ثم يحكم اغلاقه بقطعة قماش أو غيرها.

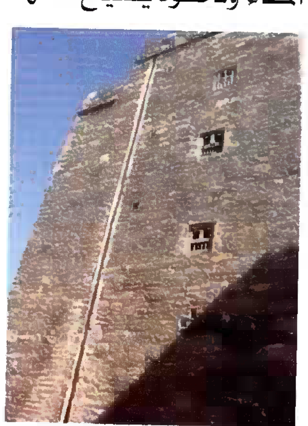
المطهار

في الجزء الآخر من نهاية المفرش وإلى جانب (الهدة) يوجد الحمام (المطهار) أو (المِتْصَال/المِغْسَال) وهو مشتق من الطهارة والاغتسال، وبابه مرتفع بقامة الإنسان أو أقل قليلاً، ويستخدم للتبول أو الاستحمام فقط، وفيه وعاء للماء أو ساقية جانبية مبنية ومكلسة بالنورة أو الاسمنت، وتنفذ منه فتحة يمتد منها لسان من الحجارة المستطيلة الرفيعة أو أنبوبة خشبية أو معدنية إلى خارج البيت يُسمى (مَسْرِيْب) أي الميزاب ويمر من خلاله ماء الحمام بعيدا عن جدار البيت. وكان أحد أهم العناصر في المسكن التقليدي بالنظر إلى الوظيفة المنوطة به، فبواسطته يتسرب أو ينفذ الماء إلى الجهة الخلفية للمنزل لينسكب على الأرض بعيداً عن جدران المنزل وبما لا يلحق ضرراً على الطريق أو البيوت المجاورة. وعند دخول الاسمنت استعاض البعض عن "المسريب" بوضع حواجز اسمنتية هي عبارة عن "قناة جدارية" على طول المنزل تُسمى (سَاحِيَّة)، لأن الماء ونحوه يسيح منها سَيَحَاناً، أي يسيل ويجري في القناةحتى يصل إلى الأرض حيث يترك في قناة أرضية مكشوفة فيتعرض لأشعة الشمس حتى يجف نهائيا.





المساريب لتصريف المياه

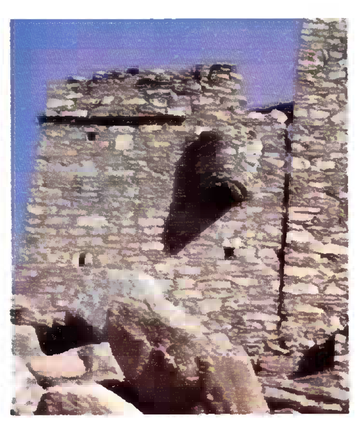


ساحية لتصريف مياه المطهار

وارتباطاً بقداسة القبلة، التي تعني البيت العتيق في مكة المكرمة، فأن اليافعيين يحرصون أن تكون (المطاهير) في غير اتجاه القبلة، حتى لا يستقبلها أو يستدبرها المرء أثناء استفراغه، وهو ما يحث عليه الدين الإسلامي الحنيف، ولذا يكون اتجاهها غالباً إلى جهة الجنوب أو الشرق، ويندر أيضاً توجهها إلى جهة الغرب، ربما لقدسية بيت المقدس.

أما المراحيض الخاصة بالتبرز فلم يكن لها وجود داخل البيوت القديمة، بل كانت تخصص لها أماكن خاصة بجوار البيت في الهواء الطلق. وفي حالات نادرة كانت توجد في بعض البيوت القديمة مراحيض خاص تُسمى (السِّقاطة- انظر الصورة)، تُبنى بطريقة ممتدة من المدماك في أعلى البيت وتبرز إلى الخارج على قاعدة خشبية أو أعمدة حجرية وتكون لها فتحة هي المقصودة بالسّقاطة لأن الفضلات الآدمية كانت تسقط من خلالها إلى موقع خاص خارج البيت وتتعرض لأشعة الشمس فتجف ثم تستخدم سماداً عضوياً أو يسهل التخلص منها لاحقا.





وفي الوقت الراهن دخلت المراحيض الحديثة وأنابيب المياه أسوة بما في المدن ولكن الصرف الصحي ما زال يعتمد على (البيارات) بجانب البيوت التي تستقر فيها مخرجات المجاري، وأضحى ضررها كبيراً في تلويث مياه الآبار القريبة وكذا في زيادة انتشار البعوض(النامس)، والأمل معقود على تنفيذ مشاريع الصرف الصحي في التجمعات السكانية الكبيرة التي يأمل السكان أن يروها في الواقع بعد أن كثر الحديث عنها ووضعت لها الدراسات الأولية أكثر من مرة.

الأولاج



معلـم متميـز وكلاسـيكي للجـدران الداخليـة للمفـارش والعَلالـي، سُـميت ولجـة لولوجهـا داخـل الجـدار. وفي الفـصيح (الولجـة) موضـوع الولـوج وجمعهـا أولاجٌ وَوَلَـجٌ وَوَلَجَـاتٌ. وهـي فتحـات مربعـة أو مسـتطيلة الشكل تلـجُ دون أن تنفـذ في الواجهـات الداخليـة للغـرف، وتختلـف الـولاج مـن حيث الحجـم، بـين صـغيرة ومتوسـطة وكـبيرة، وتقـسم الكـبيرة إلى رَفّـين بواسـطة حجـر رفيعـة أشبه بـاللوح تُسمى(صلائَه) وتحاط بعقـود ذات



زخـارف متنوعـة، وتـوزع الـوِلاج بتناسـق جميل في واجهات الغـرف أو بـالقرب مـن زواياهـا حسـب الوظـائف المحـددة لهـا، وهـي تقـوم بوظيفـة الرفـوف لحفـظ الأشـياء ذات الاسـتخدام اليـومي، مثـل المصاحف القرآنيـة والـصحون والأقـداح الـصغيرة وأدوات الإنـارة كالمـصباح والمسرجة والقـازة والفـانوس و(الموكـف) وهـو يُصنع مـن الخـوص وتحـزم أطرافـه بالجلـد، ويُـستخدم لحمـل صـحن العصيد: "اللقمة". كما تُوضع الأشـياء القابلة للكسـرِ أو الثـمينـة أو الأدوية في الأولاج المرتفعة بالقرب من السقف بحيث تكون بعيداً عن متناول الأطفال.

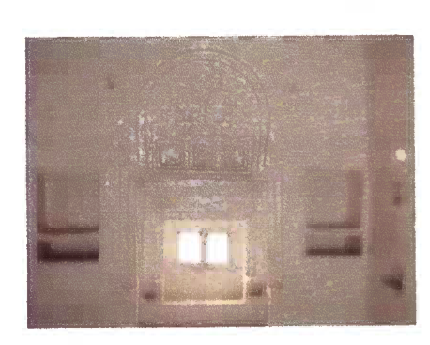
وهناك تسميات خاصة لبعض الأولاج منها (رحول، مفردها رحل) وهي تجويف مستطيل يكون فوق باب الغرفة من الداخل، وتُسمى أيضاً (حقفة)





الأولاج – رفوف البيت اليافعي التقليدي لحفظ الأشياء المتنوعة





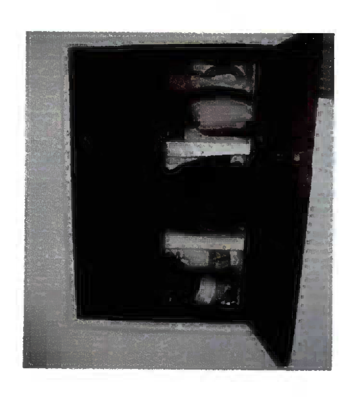




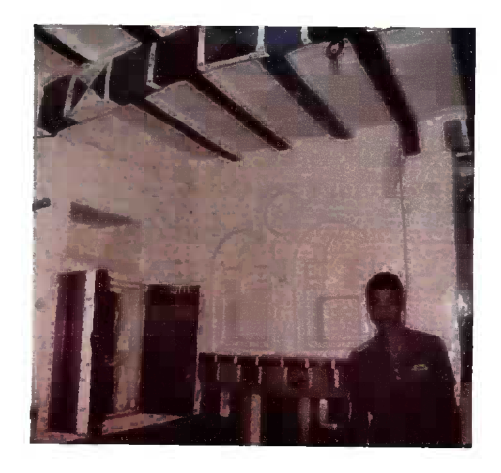
المُخَزَّنـة

فتحات كبيرة داخل الجدار، مشابهة للأولاج، لكنها أكبر من حيث الحجم ومقسمة إلى رفوف من 2- 3 من الأحجار الرفعية (الصَّلاَّ) ولها باب خشبي من





درفتين يحكم إغلاقها. وتسميتها بـ(المُخزَّنة) له صلة بخزن وحفظ الأشياء النفيسة فيها كالوثائق الأسرية (الأسجال) والنقود والمجوهرات وما خف وزنه وغلي ثمنه، أي أنها أشبه بالخزنات الحديدية في الوقت الحاضر من حيث وظيفتها، وبعضها يستخدم لحفظ الأشياء ذات الاستخدام اليومي.





بيت المداعة

يوجد في (المفرش) في جهة الباب اليمنى مكان غائر في عمق الدار يتميز بشكله الطولي وهندسته الجميلة يُسمى(بيت المداعة) تتربع فيه النارجيلة (الشيشة/المداعة) التي تستعمل في التدخين.

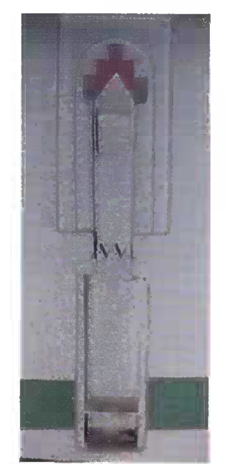


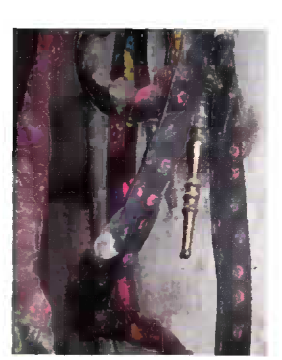
ولا شك أن ظهور(بيت المداعة) في المعمار اليافعي قد ارتبط بدخول التمباك، والتمباك كلمة تركية تعني التتن أو التبغ أو الدخان، وأول ما وصل إلى اليمن أواخر سنة 1013هـ[1]. وقد دخل التمباك إلى يافع بعد ذلك التاريخ، بدليل عدم وجود بيت خاص للمداعة في البيوت الأكثر قدما، ومن جانبهم تفنن البناؤون في بناء وتشكيل (بيت المداعة) بصورة تليق بهذا الوافد الآسر للكثيرين، وبما يتناسب مع شكل المداعة، فأضافوا في جوانب موضعها أو بيتها الذي تتربع فيه بعض اللمسات والزخارف لإضفاء قيمة جمالية وفنية عند استخدامها. وبجانب بيت المداعة يُثبت معلاق خشبي تُطوى عليه (قصبة المداعة) وهي أنوبة طويلة تُلبس بزخارف من القماش وعند التدخين تؤخذ من معلاقها ويدخنون بواسطتها التُمْبَاك الذي يوضع في وعاء خاص به مصنوع من الفخار يُسمى(البُوري) يوضع في أعلى فوهة المداعة.

---

[1] - أنظر: دخول العثمانيين الأول إلى اليمن المسمى الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، لعبد الصمد الموزعي،ط1، 1986م. ص98-99).

وبمرور الوقت أصبح (بيت المداعة) ضرورياً في معظم البيوت، خاصة في غرفة الجلوس الرئيسية (المفرش) أو (الديوان). بل أن مجالس بعض المشايخ أو الأعيان أو الميسورين كان يُخصص فيها (بيتان للمداعة) يقعان على جهتي الباب الذي يتوسط المفرش عادة، وفضلا عن ذلك كان يأتي آخرون بأكثر من مداعة متنقلة خاصة في أوقات (مَقْيَلْ القات) عصر كل يوم أو في المناسبات. أما في البيوت الحديثة فقد اختفى بيت المداعة مثلما اختفت غالبية الزخارف والنقوش الجدارية التي كانت تميز غرف البيت اليافعي من الداخل.







نموذجان لبيت المداعة وبينهما قصبة المداعة التي تعلق بمعلاق خاص بجانب المداعة

المعَاليق



لا تخلو غرف البيت اليافعي من عدة معاليق خشبية قصيرة وغليظة بعض الشيء تُثبت بأحجام متناسقة وأبعاد متساوية في واجهاتها الداخلية(الصَّلاوي، مفردها صَلْوَه) وتُعلق فيها البنادق أو الثياب أو الأوعية الشخصية المصنوعة من الجلد مثل الأفرة، المسب، المجزل ونحو ذلك، وتكون مرتفعة قريبا من مستوى السقف بحيث لا تصل يد الأطفال إلى ما يُعلق فيها. وما تزال وظيفة المعاليق باقية حتى الآن.



ثانياً: العلية/المربعة/ المُسَرّا

سُمّيت بالمُرَبَّعة لأن أضلاعها متساوية، ومن تسمياتها الأخرى حسب كل منطقة(العلّيْه أو المُجنَّب أو المُسَرّا)، ومساحتها تساوي نصف مساحة المفرش، أي أنها مع الدّرج تؤلف نصف مساحة البيت، وهي تجاور المفرش وتُخصص للسكن، وعادة ما تستخدم لنوم الأبوين أو الأطفال البالغين، أو للزوجين الشابين، وفيها (هِدِه) للنوم ومغسال ودواليب جدراية (مخزّنة) لحفظ الثياب و(أولاج)، وبها نافذتان من جهتيها، وقد تضاف ثالثة في (الهدة)، وبعضها يكون لها نافذة وفتحة صغيرة (لهج).

مكونات الدور الأخير

في البيت التقليدي المُشرَّف ينقسم الدور الأخير إلى نصفين، نصف يمثل السطح (الجُبَا) ويُحاط بجدار ساتر من ثلاث جهات يُسمى (مسعى/ مسنح)، والنصف الآخر تُشيد فيه (الديمة) و (المنظرة) ويحاط ببناء أقل ارتفاعا.

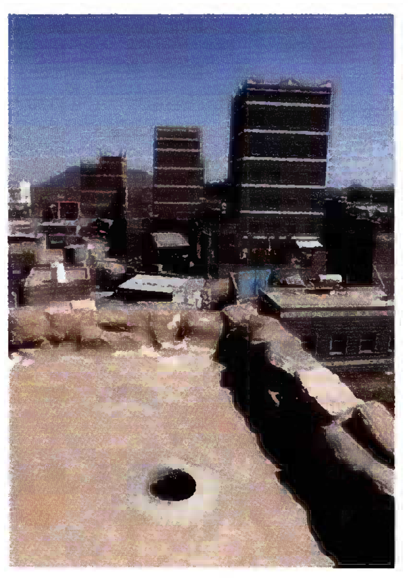
(أ) الديمة

هي غرفة المطبخ (ج) دِيَام. وهي عبارة عن "علِّية/ مربعة" كانت تُبنى سابقاً في أعلى البيوت القديمة لمقتضيات الأمان، وفيها يكون " المأفي/التنور/الطابون" وهو وعاء من الفخار يوقد بداخله ويطهى به الخبُز، وفي جانب منها تكون "المحطابة" التي توضع فيها قطع حطب الوقود، وفي الجانب الآخر يوجد "الصُّعد" وهو الأثافي التي توضع عليها آنية الطهي أو الغلي حيث تصعد القدر أو الإناء على النار المشتعلة، وقد تضاف حجر ثالثة تُسمى "مُقصر" إذا كان القدر صغيراً لتثبيته حتى لا يسقط. وفي منتصف سقف المطبخ"الديمة" توجد فتحة أو فتحتان تُسمى "المقطر " لتصريف دخان وقود الطباخة ولتجدد الهواء



ديمة (المطبخ)

ودخول أشعة الشمس، وتغلق بصفيحة حجرية أو نحوها عند هطول الأمطار. وللديمة منفذ لغسل الأواني يمتد منه (مسريب) لتصريف الماء إلى الخارج.



وكانت جدران الديمة في الماضي تُطلى أيضاً بالبياض وهو مسحوق ترابي أبيض يشبه الطلاء الأبيض الناصع كانت تطلى به واجهات البيوت الداخلية، لكنها تتعرض دائما للسواد المنبعث عن احتراق حطب الوقود الذي كان المادة الوحيدة لوقود الطباخة، ويُسمى هذا السواد "السُخَام". وفي الفصيح: سخم وجهه أي سوّده، والسخام والسواد: الفحم. كما تطلق "الديمة" على المبنى الحجري الصغير المسقوف في الأودية وتخصص للشارح الذي يحرس يحرس المزروعات، أو يستظل فيه البتول وقت الراحة وعند تناول الأكل.

في الوقت الحاضر لم تعد "الديمة" تُبنى أعلى الدار، بل تحتل أحد غرف الدور الأرضي وقد يخصص لها البعض مبنى خاص بجانب البيت لتوفر الأمان ولسهولة إيصال المواد وتيسير خدمة أهل الدار.



سقف ديمة من اخشاب النُّظَار



مفرش قديم تحول إلى ديمة

وتسمى ختم أو غلق أو وطاف، ربما من نهاية المطاف، لأنها تفصل بين نهاية بناء البيت (الغرف) وجدار (المَسعى) المضاف فوقها والمكون من حجارة تختلف من حيث الجودة مع حجارة البيت، خاصة في البيوت القديمة، أما في البيوت الحديثة فإن المسعى يأخذ شكلا جماليا ويُلبس بالاسمنت والطلاء الأبيض وإضفاء تشكيلات وزخارف مختلفة عليه.

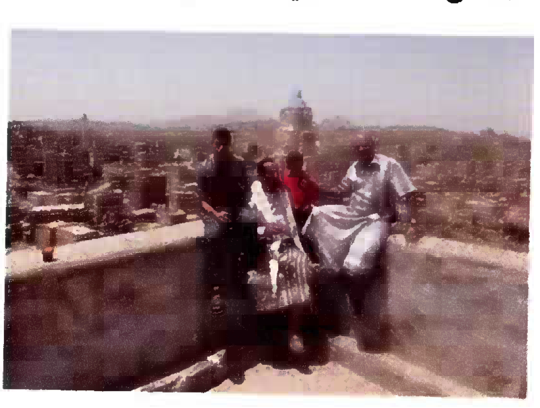
ووظيفة الصنيفة حماية البيت من تسرب مياه الأمطار إلى داخل مدماك البيت، بين الظهارة والبطانة، فضلا عن كونها تخفف بعض الشيء من تساقط الأمطار على نوافذ البيت. والصنيفة إلى جانب كونها حِلية زخرفية تزين البيت، حيث تبدو وكأنها أشبه بحزام يحيط بالمبنى من الأعلى، فأنها تصحح أي اختلال أو أعوجاج أو ميلان في المدماك من الأعلى، وهناك رواية تتناقل في يافع، حدثت مع احد البناة حيث رأى اعوجاجاً في نهاية البيت فاحتار ماذا يفعل، فارسل الى والده برسول يستفسره بطريقة رمزية، قائلا له:

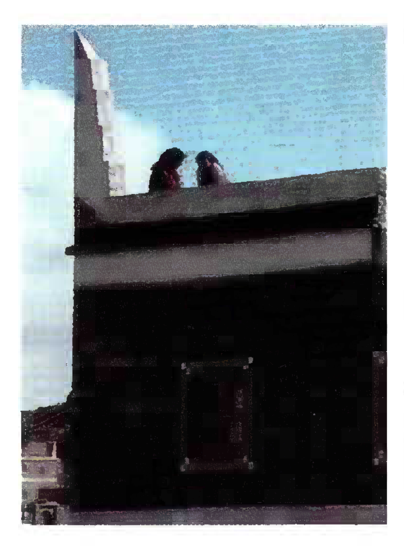
- قل لوالدي ان راسي يؤلمني؟

أدرك الوالد ما يرمي إليه ابنه، فقال للرسول:" قل له يربط رأسه بحزام أو عمامة"، أي أن عليه أن يؤطر البيت بحجارة "الصنيفة" الرفيعة.

(ج) الريش/ المسعى/المُسنح:

المسعى أو الريش أو المسنح تسميات مختلفة للبناء الإضافي الذي يحيط بسطح البيت اليافعي، بعد آخر سقف في البيت، ويكون له مدماك أصغر من مدماك البيت (ج) رِيُوش، مساعي، مسانح. وهو جدار حجري يطوق أعلى البيت ويرتفع أكثر من متر، ومفتوح إلى السماء، يوفر الستر لأفراد الأسرة أثناء راحتهم أو جلوسهم في السطح، كما يقي الأطفال من خطر السقوط من أعلى البيت،

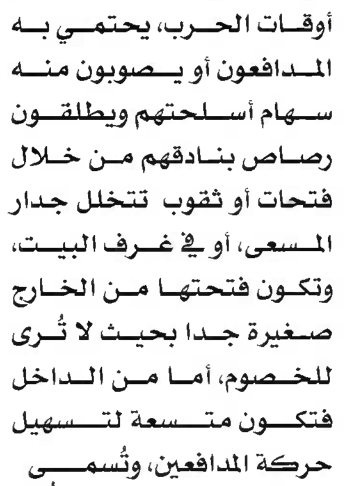


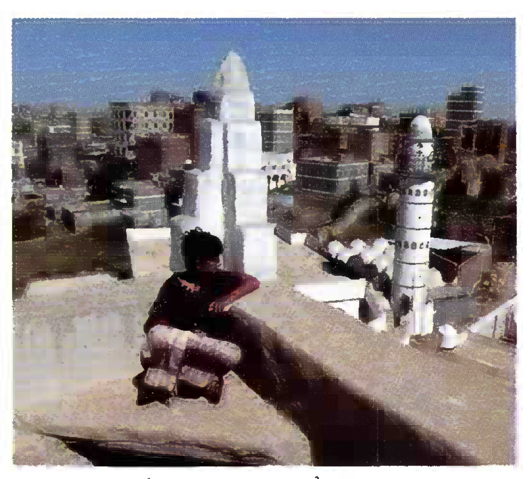


وعادة ما تشاهد أفراد الأسرة، وخاصة النساء والأطفال في سطح البيت وهم يقضون أوقات العصر أو يطلون من خلال المسعى لرؤية ما حولهم أو لتبادل الحديث مع جيرانهم في البيوت المجاورة.

وفي قرنة البيتِ أو القرينة (من الفصيح)، وهي زاويتهُ، بمحاذات التشريفة، توضع غالبا صفيحة قوية من الحجارة توصل بين جداري الركن أو الزاوية تُسمى (الصنيفة/الصلّئ/المُصلأ)، تستخدم للجلوس عليها بأريحية تامة في الهواء الطلق والإطلال منها على الخارج.

وكان المسعى فيما مضى، إلى جانب منظره الجمالي، من العناصر الدفاعية في أوقات الحرب، يحتمي به المدافعون أو يصوبون منه سهام أسلحتهم ويطلقون رصاص بنادقهم من خلال فتحات أو ثقوب تتخلل جدار المسعى، أو في غرف البيت، وتكون فتحتها من الخارج صغيرة جدا بحيث لا تُرى للخصوم، أما من الداخل فتكون متسعة لتسهيل حركة المدافعين، وتُسمى





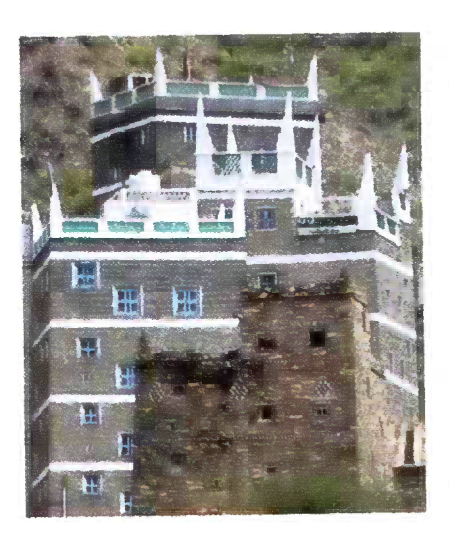
تلك الثقوب (عُكْرَه/ جمعها عُكَر). وكان المسعى يُطلى في الماضي بالخُلب والبياض، أما الآن فيُصبغ عادة بطلاء أبيض اللون يميزه من الخارج عن بقية واجهات البيت الحجرية، وقد يضيف البعض ألوانا أخرى، لكن أجملها هو ما طُلي باللون الأبيض النقي.

(ح) التشاريف

التشاريف ومفردها تَشْريفه، وتسمى في بعض المناطق (كَوَاثر، مفردها كَوْثَرَهْ)، وهي تلك الأكاليل التي يتوج بها البيت اليافعي وترتفع عاليا في زوايا أسطح البيوت المكتملة الطوابق، فتضفي عليها رشاقة ومهابة ولمسات جمالية أخاذة، فضلاً عن الدور الذي تقوم به في امتصاص ضربات الصواعق التي تطال قبل كل شيء الأماكن المرتفعة أكثر، ويُوضع أيضا عمود من الحديد في أي من أركان البيت يساعد في تفرق شحناتها وتقي بذلك بقية أجزاء البيت من أضرارها، أو التخفيف من تلك الأضرار. والتشاريف مشتقة من الشرف والتشريف، أي سمو المكانة والرفعة والشموخ. وتعد (التشاريف) علامة مميزة على اكتمال بنيان طوابق البيت، ولذا يُطلق عليه (البيت المُشرَّفْ).



ولا توجد (التشاريف) فوق البيوت التي تقل عن الثلاثة أدوار، وهذا يعني أن المجال متروكاً لإضافة طابق إضافي أو أكثر حين تقتضي الضرورة أو الإمكانية ذلك. وكان من غير المسموح لذوي الفئات الخدمية من غير القبائل والسلاطين أن يضعوا "التشاريف" فوق أسطح بيوتهم، كما كان يفرض حظراً على بعض القبائل من هذا الشرف لأسباب تتعلق بالمساس بالشروع والأعراف القبلية.



ويكون عدد التشاريف أربع فقط إذا كان مستوى سطح البيت (الجبا) مستوياً، أما إذا أضيف فوقه(منظرة) فيكون عددها ست تشاريف، أربع منها في زوايا أو أركان المنظرة المرتفعة على نصف مساحة السطح، واثنتان في الجزء السفلي من السطح(انظر الصورة). وتُبنى (التشاريف) على شكل مثلث هرمي قائم الزاوية، تتسع عند قاعدتها ثم يتناقص التدرج صعوداً حتى ينتهي ببلوغ نهاياتها المدببة الحادة (الخوذي). وترتفع عادة حوالي متر واحد أو يزيد قليلاً، أما في الوقت الحاضر ومع اتساع مساحات بعض البيوت الحديثة وارتفاع عدد طوابقها التي قد تصل إلى العشرة أدوار فأن التشاريف في مثل هذه الحالات ترتفع إلى مترين أو أكثر ويزداد عددها لتتسق وتتناغم مع عُرض وارتفاع هذه البيوت.

ومن أجمل الزوامل التي قيلت في التشاريف، هذا الزامل الذي ارتجله الشاعر عوض صالح حسين الصلاحي أمام وفد حكومي كان بعض أعضاءه يتطلعون باستغراب إلى ارتفاع العمران اليافعي، فقال:

يا الوفد خايل لا الرجال المخلصه	ولا تخايل لا (تشاريف) الحصون
رحنا بنيناها بدم أكبادنا	ماشي ترقصنا مع ذي يرقصون

وفي أغاني النساء التي يرحبن فيها بمقدم العروس إلى بيت العريس إشارة ذات معنى حين يطلبن منها أن تنظر أمامها إلى (الدار المُشرَّف) ويزفين لها البشرى بأن سكنها في هذا القصر سيكون في (العلّية) في الدار المشرف، وهو ما يفصح عن الحالة الميسورة لبيت الزوج:

وا صباح الخير لَخْيَر	وا صباح العافيه
انظري الدار المُشرَّف	مَسْكَنُش بالعلّيه

المباني غير السكنية

يشمل فن العمارة الحجرية في يافع كل أنواع المباني غير السكنية أيضاً، ولكل بناء وظيفته المحددة، فالمسكن يحتاج لعدد من المباني الخدمية الملحقة به التي لا غنى عنها، وقد تكون قريبة منه أو لصيقة به، منها أماكن حفظ الأعلاف والأدوات المستخدمة في حراثة وزراعة المدرجات وقطع الأرض الزراعية، ولها تسميات متعددة منها (صَبل/ جَلب/ منزلة/ مرواة) وحضائر الأبقار والأغنام التي تمكث فيها ساعات النهار(مدارة/حوية/دير) بعد خروجها من مأواها الليلي(العكَم/السّفل/الزريبة)، وبيوت الدجاج (المدج) وأماكن خاصة لقضاء الحاجة، قبل أن تدخل المراحيض الحديثة، وغير ذلك من المنشآت التي تحيط بالبيت التقليدي الذي كان يحاط غالبا في الماضي بسور منيع (دَرب).

كما برع اليافعيون في إقامة المنشآت الدينية كالمساجد والقباب والمآذن وأضرحة الأولياء، أو المدرجات الزراعية والحواجز والسدود والبِرَك والمواجل وقنوات الري والآبار، وتفننوا في بناء الطرق المشيدة بالحجارة في المسالك الجبلية (النّقوَل/ مفردها نقيل) وأبراج الحراسة(نوبة/صومعة) والمتارس الدفاعية (المحاجي)، وغني عن القول أن تسمية قرية المحاجي التي تقع في سفح جبل العُر الشهير إلى جهة الحد، جاءت من كونها كانت موقع المتارس (المحاجي) التي تمترس بها اليافعيون لمواجهة جيوش الدولة القاسمية، واحتفظت بهذا الاسم بعد أن سكنها أهلها من آل مرفد، فبقي اسمها كما كان في الاصل (المحاجي).



منزل تقليدي محاط بمبانٍ خدمية متنوعة



قرية (المحاجي) في بطن جبل العر

النُّوْبَة.. حصن دفاعي عجيب



النوبة (ج) نُوَب، منشأة دفاعية عجيبة، ونقاط حراسة واستراحة واستعلام، في السلم والحرب. وجاءت تسميتها من تناوبٍ الحراسة فيها لوقت معلوم. وتسمى أيضاً "صومعة"، وفي الفصيح، صَوْمَعَ البناءَ: علاّه، وهي ترتفع ثلاثة أو أربعة طوابق أو أكثر، على شكل أبراج هندسية اسطوانية، ولهذا لا يستطيع أحد أن يختفي خلفها، لأنه سيُكتشف بسهولة، وهذه ميزة تدل على حنكة ودراية حربية. وتوجد منشآة دفاعية أخرى، مربعة الشكل ترتفع عدة طوابق وتُستخدم للحراسة والمراقبة والاستطلاع، تسمى (كوت/ خلوة)، ولكنها نادرة، ولها نفس الوظائف.

وكانت تنتشر (النُّوَب) بشكل ملفت للنظر على أطراف القرى وفي كل تل ومرتفع وواد في مختلف مناطق يافع الجبلية، بشكل متقابل، وتكون الواحدة منها على مرأى مما يليها، بحيث يمكن رؤيتها أو سماع النداء أو الإشارة الصادرة منها، وهي تخلو من أية نوافذ كبيرة، خاصة من جهة الخطر، وبغرض زيادة فاعليتها من الناحية الدفاعية تزود بفتحات صغيرة أو فجواة جدارية ضيقة تُسمى (عُكَر- مفردها عُكرة) يتم من خلالها الرؤية والاستطلاع والترصد والمراقبة أو توجيه سهام الأسلحة أو نيران البنادق. وتستخدم للحراسة ليلاً لحماية التجمعات السكانية من أي خطر محدق، أو هجوم مباغت قد تتعرض له القبيلة أو القرية، خاصة أثناء الفتن والحروب القبلية ونحوها، وتكون مهمة المناوبين فيها الإبلاغ عن ذلك الخطر، من خلال إيقاد شعلة نار "هُشَّلة" في أعلى النُّوبة، وتستجيب لها نقاط الحراسة المقابلة لها، فينتشر الخبر بسرعة، ويتأهب الناس لمواجهة الخطر الداهم، ولهذا يقال في الأمثال (الهُشّلة داعي يافع).

وكانت "النُّوَب" تمثل أيضاً متارس متقدمة في أطراف الحدود لصد هجمات الأعداء، وكذا في الحروب القبلية التي كانت تنشب بين القبائل أو القرى المتجاورة لأسباب مختلفة، ويتم فيها الكمون والترصد للخصوم.





ونجد الشعراء الذين عانوا من ويلات الفتنة والحروب القبلية يذمون تلك الحروب ورمزها(النُّوبة)، فالشاعر الشيخ أحمد محسن الوحيري يصفها بـ(النوبه القتَّالة)، وتمنى الشاعر أن تخرب من أساسها أو تقتلعها الرياح(الأزيب) بعد أن قتلت أربعة من أفضل الرجال، يقول:

لا رَدَّشْ الله نُوبـــــــــــــه	خـــــذتي أربعـــــه مَنْدُوبـــــه
وغـــــــارتش مـــــــسحويه	يـــــا مَـــــرْوَحْ الكَمَالـــــه
يـــا ليـــت ساســـش يخـــرَبْ	والاّ تـــــــشُلّش لزيـــــــب
يـــا ســـاحره يـــا مـــذيب	تـــــستاهلي جلجالـــــه





نوبتان تفصل بين طوابقهما زخارف ونقوش



كوت مربع الشكل

كما تستخدم لحماية المزروعات من أي محاولات للخصوم لتخريبها أو من تعرضها لخطر الحيوانات. وتكون ملاذا يستريح فيها المزارعون أثناء أوقات الراحة أو عند تناول وجبات الطعام خلال عملهم في الأرض، وتقيهم من حر القيض أو يتخذونها أَكْنَاناً لهم من المطر.

وقبل دخول وسائط الاعلام والتواصل الحديثة، كان الناس، في القرى والتجمعات السكانية المتناثرة في قمم الجبال وبطونها وفي سفوحها، يترقبون الإعلان عن دخول رمضان أو فرحة عيدي الفطر والأضحى من خلال رؤية الشعلة المتوهجة أعلى هذه النوب، خاصة تلك التي تقع في قمم الجبال السامقة، فيتناقل الناس الخبر. " وهذا ما حدى بأحد الخبراء الأوروبيين زار المنطقة - قبل سنوات- إلى وصفها بأقدم تلفون في العالم بكونها تعد وسائل اتصال عبر إشارات ضوئية متعارف عليها في أوقات السلم أو الحرب أو المناسبات"[1].



نوبة قديمة بين قصرين حديثين في مسجد النور

[1]- أصالة العمارة اليمنية وفنونها في نموذج يافع، استطلاع: أحمد يسلم صالح، صحيفة "الأيام" العدد 765، 31 يوليو 2000م، ص6.

وجميع هذه المنشآت الدفاعية مبنية من الأحجار وتتألف من عدة طوابق، وقد تزين بنقوش في حوافها العلوية أو بفواصل بين طوابقها، ولها بوابة ضيقة مربعة يدخلها المرء بصعوبة بدخول راسه ويدية أولا ثم يدخل بقية جسمه، وكانت تغلق هذه الفتحات بحجارة كبيرة من الداخل أو توصد بأبواب خشبية سميكة. أما الصعود بين طوابقها من الداخل فيتم بواسطة مرقاة من الحجارة الناتئة من داخل الجدار تتدرج مؤدية إلى فتحة في السقف يتم الدخول منها إلى الطابق التالي، أي أنها تؤدي وظيفة السلالم، وهكذا الحال في بقية الطوابق العلوية.

وللاسف أن هذه المعالم الأثرية التاريخية تتعرض للاهمال والتدمير المتعمد، ونهب احجارها لاستخدامها في المباني الجديدة، ولا بد من نشر الوعي بين الناس لادراك قيمتها التاريخية وعدم العبث بها والحفاظ عليها وعلى بقية المعالم المعمارية القديمة، فهذه آثارنا تدل علينا.

مدافن الحبوب

المدفن: في اللغة موضع الدَّفن وما يحيط به من بناء، وجمعها مدافن. وقد كان قدامى المصريون يدفنون ملوكهم الفراعنة في الأهرامات الشهيرة. وهناك من يدفن الكنوز من الذهب والفضة والنقود، ونسمع عن قصص وحكايات غريبة عن الكنوز الدفينة في أكثر من مكان في العالم. أما كنوز اليافعيين في مرتفعات (سَرْو حِمْيَر) الجبلية فقد كانت وإلى زمن قريب هي حبوب الذرة بأنواعها المختلفة التي خصصوا لها مدافن فريدة نحتوها في صميم الجبال الصخرية. ومثل هذه المدافن شائعة ومنتشرة في معظم القرى اليافعية، كما في الكثير من مناطق اليمن الجبلية، وهي من الآثار والشواهد الأثرية على استقرار الناس القديم في تجمعاتهم السكنية الحضرية.

ومن الصعب معرفة البدايات الأولى لحفر هذه المدافن، لكنها دون شك أثر حضاري من الآثار الحِمْيَرية القديمة، وشاهد على الاستيطان القديم للإنسان في مرتفعات (سرو حِمْيَر) الذي كَيَّف الطبيعة من حوله بمدرجاتها الزراعية وخزانات المياه من (الكرفان والمواجل) ونحت الحجارة والصخور مشيداً منها ناطحات السحاب الحجرية بنمطها المعماري المميز في العالم، وحفر بجوارها

مدافن يكنز فيها غلال الذرة، القوت الهام الذي أطعم الأجيال المتعاقبة على مر العصور، فأمن بهذه الطريقة نفسه من نوائب الدهر وموجات الجفاف والكوارث، وأحتاط لنفسه في قراه الحصينة بخزن ما يفيض عن حاجته من الحبوب في أوقات الخير الوفيرة التي تُحفظ في هذه المدافن لسنوات عديدة دون أن تفسد أو تعطب، وقد يجدد خزن الغلال بين فترة وأخرى من خلال إخراج الحبوب المخزونة لسنوات واستبدالها بالمحاصيل الجديدة.



عشرات مدافن الحبوب المنحوتة في بطن جبل القفلة الصخري في خُلاقة

هناك مثل يافعي يقول:" البيت: مَرَهْ وبَقَرَهْ ومَدْفَنْ ذُرَهْ"، ووفقاً لهذا المثل فقد كان البيت السعيد قوامه هذا المثلث المتكامل، المتمثل بالمرأة الصالحة المدبِّرة لشئون الأسرة، والبقرة التي تدر اللبن والسمن، والمدفن الممتلئ بحبوب الذرة، التي كانت المصدر الهام لقوت اليافعيين إلى عقود قليلة مضت، قبل أن تدخل المواد الاستهلاكية المستوردة ويصبح الاعتماد عليها أكثر مما على المحاصيل الزراعية المحلية، التي تراجعت لصالحِ شجرة القات للأسف الشديد.

ومدافن الحبوب لا يمكن أن تُحفر إلاَّ في الجبال الصخرية الصلدة التي لا تتشبع بالماء ولا يتسرب إلى داخلها، ولعل أشهر مدافن الحبوب في يافع مدافن (القارة) عاصمة السلطنة العفيفية في ساحتها المعروفة بـ (حبيل الجرَاشة) وأكبرها مدفن السلطنة الذي يطلق عليه مدفن (الألف) لأنه يتسع لألف

مكيال (كيلة) من الحبوب، وكذا المدافن الشهيرة في مدينة(خُلاقة)، في بطن جبل (القفلة) الصخري، وما زال الكثير منها باقياً حتى الآن وإن لم تعد تستخدم لوجود بدائل صناعية.

وبهذه الطريقة التي ابتدعها أجدادنا تمكنوا من أن يدخروا أهم الغلال المتمثلة بحبوب الذرة بأصنافها المتنوعة: العوبلي، الجعيدي، المنزلة، الكوَري، الغرية وهي التي تُخزن في هذه المدافن لسنوات عديدة. أما أصناف الغلال الأخرى كالدخن والشعير والبر والعلس والشامي (الهند) فلا تصلح للخزن في المدافن ولذلك يتم الاحتفاظ بها في أوعية منزلية خاصة لاستهلاكها أولاً بأول. ويظل المدفن حكراً على حبوب الذرة فقط، وكانت تمثل رأسمال اليافعيين واستخدموها عوضاً عن النقود في التبادل البضائعي، وفي البيع والشراء وفي العمل المأجور، حيث كان العامل الأجير (البتول) يحصل على كمية من حبوب الذرة مقابل أجرة العمل وكذلك الحال مع الحرفيين في المجتمع، كما كان يُعطى لمن يقوم بحفر المدفن (النَّقاش) كمية من الحبوب تساوي قدر حجم ما أنجزه من سعة في المدفن، وهو أجر مُغرٍ يتناسب مع طبيعة هذه المهنة الشاقة وصعوبتها التي تتطلب القوة البدنية والحذاقة والمهارة في النقر بالصخر.

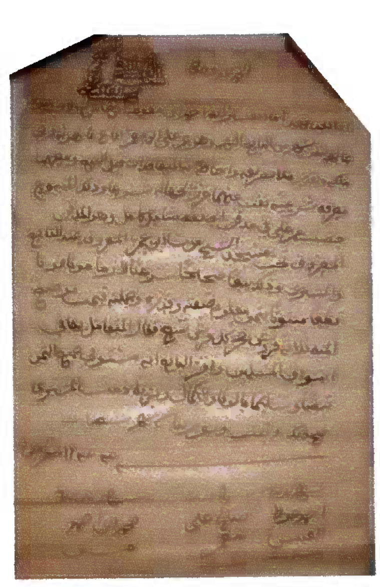


مدافن بجانب البيوت

فتحة المدفن (الرّقبة)

وكانت هذه المدافن تُحفر عادة في محيط القرية أو بجانب البيوت أو حتى داخلها في الدور الأرضي، لجعلها في مأمن من النهب ولضمان عدم تعرضها للسرقة، وكانت معظم الأسر تمتلك مدافنها الخاصة بها، وقد يكون المدفن ملكية مشتركة لأكثر من أسرة، وكانوا عندما يخزنون الحبوب يدونون كمية كل شخص في حساب خاص أو يحفظون ذلك شفهياً، وكان يلجأ من لا

يملكون مدافن خاصة بهم إلى إيداع حبوبهم لدى أصحاب هذه المدافن حسبما تسمح به سعة مدافنهم. وتؤل ملكية المدافن إلى الورثة الشرعيين من الأخوة أو الأبناء، وإذا كان المدفن كبيراً يتم تقسيمه بينهم، وتُسمى حصة كل منهم "كيد" ويفصل بينها بجدار من الحجارة، وقد يقسم المدفن إلى "أكياد" حسب نوعية وصنف المخزون من حبوب الذرة، فهناك "كَيْد" للجعيدي، وآخر للغرية..الخ. كما كانت المدافن تُرهن أو تباع بكاملها أو جزء منها حسبما تؤكد ذلك الوثائق التاريخية[انظر صورة سجل البيع أدناه، وهو يعود إلى سنة 1144هجرية].



يقوم بحفر المدافن الصخرية شخص متخصص في نحت الحجارة يُسمى (نقّاش) وبطريقة يدوية بواسطة زُبَر الحديد والمطارق والأزميل (الفراص، وجمعها فِرْوَص)، ويراعى عند حفرها في الجبل أن تضيق عند فتحتها التي بالكاد تتسع لدخول شخص واحد إليها ولكن الحفرة تتسع تدريجيا من الداخل كلما تعمقت بحيث تكون أشبه بالبالونة أو الزير، ضيقة عند الفتحة وواسعة من الداخل وقد تكون مستوية في الأسفل، وتختلف مساحاتها من الداخل فمنها الكبير والمتوسط والصغير.

بعد استكمال حفر تجويف المدفن وفق الحجم المطلوب أو المسموح به في عمق الجبل يتم استكمال البناء الخارجي حول فتحة المدفن بالحجارة المثبتة بالنورة(القضاض) ويسمى هذا البناء (الدَّرْوَان)، ثم يحكمون إغلاق فتحة الدخول المربعة الشكل التي تسمى (الرَّقَبة) بحجرة مستطيلة خفيفة السمك تماثل مقاس الفتحة وتنطبق عليها وتسمى (المُجْبَحَة) وهي تستقر على حاجز أسفل الفتحة، ثم تردم بالطين المضغوط، ومن الأعلى يثبتونها بمعجون (الخُلَبْ) وبهذه الطريقة يتم إغلاق أو (تَجْبيْحْ) المدفن، ثم يضعون فوق الفتحة وحواليها أحجاراً كبيرة بعض الشيء لحمايتها من عبث الصغار. وهكذا يحرصون على

إغلاق فتحة المدفن بإحكام شديد بحيث لا تسمح بدخول الهواء أو تسرب مياه الأمطار إلى الداخل، لأنها إذا ما تسربت ستفسد الغلال المخزونة وفقا لكمية التسرب ولذلك فأن أصحاب المدافن يتفقدون في العادة مدافنهم بعد السيول والأمطار الغزيرة للتأكد من أن المياه لم تتسرب إلى داخلها، وإذا حدث مثل ذلك فأنهم يتداركون الخلل بسرعة ويعيدون إحكام بناء الفتحات حتى لا تتعرض خزائنهم من الحبوب للتسوس أو العطب.

وعند الحاجة لفتح المدفن سواء لأخذ كمية من الحبوب المخزونة أو لاستبدال الحبوب القديمة بغلة جديدة فأنه يتم أولا فتح غطاء المدفن (المُجْبَحَة) ويُترك مفتوحاً عدة ساعات حتى يدخل الهواء (الأكسجين) إلى الداخل. كما يقومون بتسريع تهوية المدفن من خلال إدخال قطعة قماش أو لحاف مصنوع من شعر الماعز (بجاد أو فريقة) وتحريكها بعض الوقت داخل المدفن الأمر الذي يسهل دخول الهواء والتخفيف من الاختناق في الداخل، ولا يسمحون بدخول الشخص مباشرة فور فتح المدفن لأنه قد يموت من الاختناق لشدة الحرارة وانعدام الهواء في داخل المدفن، وقد عرف الناس اجراءات السلامة والأمان بالتجربة المكتسبة، فقبل دخول الشخص، يشعلون مصباحاً يعمل بالزيت أو فانوساً أو ما يماثله ويدلونه إلى داخل المدفن فإذا انطفأ مباشرة فأن ذلك يعني أن الهواء ما زال منعدماً في الداخل ويمنع في هذه الحالة الدخول، وتتكرر العملية حتى يتم التأكد من أن الدخول لم يعد خطراً. وبالتجربة فطن الناس قياس مدة الزمن الذي يمكن انتظاره حتى الدخول الآمن. وهذا الأمر يتم في الحالات التي يكون فيها المدفن غير ممتلئ بالحبوب، ومجال الفراغ في داخله اوسع، أما إذا كان ممتلئاً حتى حافته فالعملية أسهل ولا تتطلب القيام بهذا الاختبار، حيث يقومون أولاً بغرف الحبوب من أعلى المدفن مباشرة دون الحاجة للدخول، وعند سحب كميات كبيرة يكون المجال قد تيسر لدخول الشخص بأمان ليغرف في وعاء جلدي جاف الكميات الإضافية المطلوبة، ثم يُغلق المدفن من جديد حتى موعد حسب الطلب.

ويمكن القول أن هذه المنشئات المحفورة بالصخر كانت أشبه بصوامع الغلال التي تحفظ فيها الدول اليوم حاجتها الكافية من الحبوب الاستهلاكية، وكانت من أهم مرافق التجمعات السكانية في سرو حِمْيَر- يافع.

المساجد والأضرحة

تنتشر في مدن يافع ومعظم قراها المساجد التي يؤمها الناس للصلاة، ويحرصون على بناء مساجدهم في أماكن تتوسط تجمعاتهم السكانية حتى يسهل على المصلين التوجه إليها. وهي تبنى بالحجارة مثلها مثل البيوت اليافعية، ولكنها تختلف من حيث الحجم، وكانت سقوفها وقبابها تقضض بالنورة، وتتكون، في الغالب، من طابق واحد فقط، وفي النادر من طابقين، وتكثر في المساجد الأعمدة والعقود الحجرية؛ ومرد ذلك أن جدران المسجد متباعدة ولا توجد أخشاب طويلة تغطي تلك المسافات المتباعدة وتتحمل ثقل السقف، ولهذا كان الاعتماد على العقود والسحابيل الحجرية المستطيلة إلى جانب الأخشاب.

أما شكل المساجد فهو مربع أو مستطيل وموجه تماماً نحو القبلة، وقد عرفنا أن وجهة البيوت اليافعية جميعها تتجه نحو القبلة، وبعض المساجد تزدان بالقباب والمنارة، وجميعها من الحجر والقباب عبارة عن بناء دائري المسقط، مقعر من الداخل، مقبب من الخارج. وبعض المساجد قد تخلو من القبة والمنارة.





مسجدان في (ذي صُرا) القديم والأكبر مع المنارة والآخر صغير بقبة

ومن ملحقات المسجد (سقاية) تحفظ الماء الخاص بالوضوء الذي كان ينتزع بدلو خاص عند الوضوء، أو الهجْرَة(ج) هِجِر، وهي حوض مكشوف يتجمع فيه ماء المطر لغرض الوضوء، وفي الماضي كان يتكرر استخدام هذه المياه من قبل

الجميع لفترة قد تطول، حتى وأن تغير لونه لكثرة الاستخدام، وذلك بسبب ندرة المياه في يافع، وقد تُجدد المياه إذا طال انحباس المطر بتوصيل الماء من الآبار القريبة عبر قنوات إن كان ذلك ممكنا. وتلحق في كل مسجد مساحة مكشوفة تسمى (ضاحية المسجد) تكون مكشوفة ومحاطة بسور حجري وبجانبها تكون (الهجرة) وفي زاوية منها حمام للتبول فقط، أما الآن فقد تغيرت وتحسنت إمدادات المساجد بالمياه وتوجد في معظمها خزانات أرضية مسقوفة ودورات مياه، ويتم الوضوء بمياه نظيفة عبر حنفيات، وفيها مراحيض وشبكة تصريف للمياه إلى بيارات خاصة أسوة ببقية البيوت.

وتشمل المباني الدينية أيضاً أضرحة الأولياء والصالحين، ذات البناء المُتقن بقبة واحدة تمثل السقف وقاعدة ثمانية الأضلاع والشرفات، ومثل هذه الأضرحة تنتشر في مختلف مناطق يافع، وكان الناس، في الماضي، يتجهون إليها بالنذور للتبرك بالأولياء الذين كان لهم تأثير روحي في معتقدات الناس. كما توجد أضرحة مماثلة لبعض سلاطين آل عفيف في القارة، وهي الآن في حالة سيئة مثلها مثل أغلب مباني وحصون ومواجل وآثار القارة المعمارية التي أصابها الاهمال وتتطلب عناية خاصة للحفاظ عليها وترميمها باعتبارها تراث حضاري إنساني، وهناك ثلاثة اضرحة في هجر لبعوس، تفتقد للترميم، فيما تم تفجير ضريح المحضار وقبته قبل سنوات.





مسجد الجيلاني – القارة ، وإلى اليسار المنارة القديمة التي قصفتها الطائرات البريطانية

ولا يمكن لنا حصر أو جرد المساجد لكثرتها في عموم يافع، بما في ذلك تلك المساجد القديمة ذات القباب أو المآذن ،ومنها على سبيل المثال مسجد الجيلاني المقابل لحصن السلطان في القارة ، حاضرة السلطنة العفيفية، وهو مربع الشكل تعلوه أربع قباب مخروطية تم تكسيتها بالنورة (القضاض) من الداخل والخارج وتمثل تلك القباب سقف المسجد وهي تنتصب على عقدين يقومان على عمود حجري يتوسط المسجد وكذا على جدران المسجد الأربعة، وتزدان جدرانه الداخلية، تحت القباب بصفوف من الدلايات البارزة على شكل زجزاج. وقد تعرض هذا المسجد للقصف من قبل سلاح الجو البريطاني عام 1960م وهدم جزء من ركنه وأحد قبابه، فيما دُمرت مأذنته القديمة تدميرا كاملا، وقد رُمم المسجد لاحقا بمادة الاسمنت، وبُنيت ماذنة جديدة، تختلف بشكلها عن المنارة القديمة، وللمسجد ثلاثة خزانات(صهاريج) ذات اشكال وأحجام مختلفة لحفظ ماء الوضوء، جرى ترميمها أكثر من مرة كما يبدو من طبقة الاسمنت التي سدت تشققاتها.



كما يوجد في الجزء الجنوبي من القارة مسجد آخر هو مسجد (الشيخ سعيد العمودي)، وهو مربع الشكل، له محراب غائر، يزدان من جانبيه بزخارف هندسيةٍ، كما توجد في واجهات المسجد زخارف بارزة عبارة عن اقواس متكررة، ويقوم سقفه على أربعة أعمدة مسقوفة بصفائح حجرية رفيعة (صلأ)، وتعلو زوايا سقفه تشاريف هرمية صغيرة، وله مئذنة جانبية قصيرة الارتفاع تتكون من قاعدة ثم بدن مكون من أربع واجهات، كل منها تمثل عقد مزين من الخارج بشكل مقرنصات من الحجر البارز وتنتهي كل واجهة بأركان (تشاريف) هرمية، وقبة مخروطية تمثل

السقف[1]. وللمسجد فناء خارجي (ضاحي) وفيه أربع برك(صهاريج) محفورة بالصخر لحفظ مياه الوضوء. وتبدو البركة الرئيسية في وضع سيء بفعل الاهمال، وتنظر بعين الرحمة لعل وعسى من يلتفت إليها مع بقية آثار القارة المعمارية الأخرى.

ومن أشهر مساجد يافع (جامع الهجر) في لبعوس، ويتوسط آل عَمْر والهجر، وهو من المساجد التاريخية ويعود بنائه إلى القرن الثامن الهجري تقريبا[2]. وللمسجد خمسة عشر قبة مجصصة ومطلية بالأبيض من الخارج دون الداخل، وله مأذنة حجرية ترتفع 30 متراً، وله ملحقات تسمى (جَوابي) للاستنجاء، وغرفة صغيرة يأوي إليها غريب الديار، وبركة كبيرة للوضوء، ويلتصق بسور الفناء من الخارج حوض ماء، لسقي الحيوانات . وبجوار المسجد توجد ثلاثة اضرحة متقاربة من بعضها.



صورة حديثة لمسجد الهجر- لبعوس بعد توسعته الأخيرة



ضريحان في رباط العبادي



الأضرحة الثلاثة بجانب مسجد الهجر



مسجد وضريح الخنيَمي- مشالة

[1] - مقدمة في تاريخ القارة وتوثيق معالمها التاريخية،ص 70، ويذكر أن هذا النوع نادر الوجود في اليمن ويتميز به هذا المسجد، واقول أن في يافع وجود لمثل هذه المنارة في أكثر من مكان، أحدها في مسجد "عنتر" وأخرى في المسجد القديم لقرية (السَحْلة) إحدى قرى آل بن صلاح، وهم من شيد هذه المنارة في القارة وفي مسجد قريتهم، وفي عنتر وفي غيرها.

[2] - الحضارة اليمنية وناطحات السحاب الحجرية: ص 101.



ومن المساجد التاريخية القديمة مسجد "عبدالله بن أسعد" المطل بقبابه ومأذنته على وادي مَعرَبان، ومسجد (المحجبة) بمئذنته الجميلة ، ومسجد الغساني في قرية (اللّم) بالقعيطي بمنارته الحجرية ذات الشكل الأسطواني متدرج التناقص، ومسجد أهل الكهف أو مسجد "السبعة" في السعدي، ومسجد بني بكر الذي يتوسط الجزء القديم من المدينة بمئذنته، والجامع القديم في خُلاقة في بطن الجبل الذي تقع فيه القرية القديمة(القفلة) ويرجع بناؤه، حسب روايات كبار السن المتداولة، إلى القرون الأولى للإسلام، وقد وسع مرتين في أزمنة متفاوتة، بدليل وجود محرابين للصلاة من واجهته الأمامية من الخارج،. ومسجد الصيرة بمئذنته القديمة، ومسجد عنترالذي أسسه الإمام الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم(مولى عينات)، عند وصوله إلى يافع من الحرمين الشريفين مرشداً وداعياً إلى الله سنة 1027هـ[1]، ومسجد (الجربة) القديم بمأذنته العالية، وكذا مسجد (منفرة) بمئذنته المرتفعة، وتجري الآن توسعته بنفس المواد المحلية مع الحفاظ على هيئته الأصلية باستخدام العقود الحجرية الحاملة للسقوف الخشبية، وهناك مساجد عديدة في عموم مناطق يافع يصعب ذكرها جميعا في هذا الحيز، وتحتاج إلى بحث مستقل لكثرتها.

ومما يثير الأسى وتنفطر له القلوب هدم الكثير من المساجد القديمة التي تعود إلى ستة وخمسة قرون خلت وأكثر من ذلك، بحجة التوسعة أو بناء

---

[1] - هداية الأخيار في سيرة الداعي إلى الله محمد الهدار، تأليف: حسين بن محمد الهدار، فرع الدراسات والمناهج وخدمة التراث، ص 439.

مساجد إسمنتية بديلة، أو ترميمها بطريقة تقضي على ملامحها الأصلية، كأن يغير شكلها كاملاً أو تلبس جدرانها الحجرية بالاسمنت وتُطلى بدهان أبيض. وللأسف أن كثيراً من المساجد الأثرية القديمة قد هُدمت وبُنيت على انقاضها مساجد جديدة، لا تمت بصلة للمساجد التاريخية، لا من حيث الشكل ولا مواد البناء، حيث طغى على بعضها الانماط المستجلبة واستخدام مادة الاسمنت ، بما في ذلك تشييد بعض المنارات الجديدة بالأسمنت والتي لا يمكن مقارنتها بجمال وروعة المنارات الحجرية، فخسرنا بذلك آثارا معمارية تاريخية لا تعوض.



مسجد عنتر ويبدو جمال مأذنته القديمة

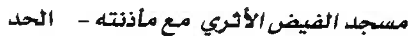


محراب مسجد قلعة نعمان بالسعدي



مأذنة مسجد القُدمَة





مسجد الفيض الأثري مع مأذنته - الحد



مسجد جبل (الحُقُب) الأثري



مأذنتان قديمة وحديثة- عثارة





مسجد بني بكر القديم قبل وبعد ترميم منارته







نماذج من المآذن القصيرة المكونة من قاعدة ثُمّ بَدَن وقُبّة (عنتر- آل بن صلاح- القارة)



مسجد (لَكرُف) في خلاقة ينتظر من يرممه



ضريح ومسجد في قمة تريم – الصفاة



مسجد أثري في الصفاة - كلد

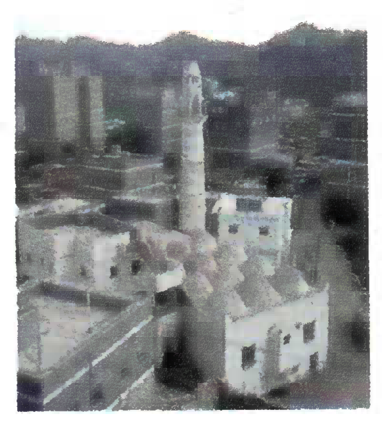


مسجد الغساني - القعيطي





مسجد منفرة ومأذنته وتبدو عقود توسعته مع الحفاظ على شكله القديم



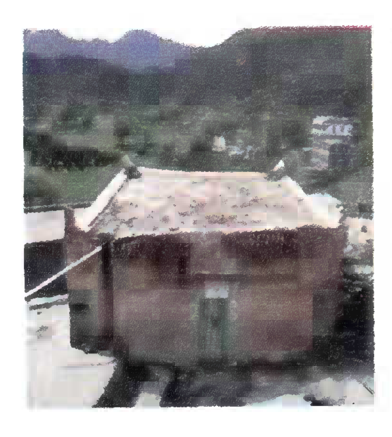
مسجد المصنعة بقبابه ومأذنته



مسجد السبعة أو اهل الكهف - السعدي



مسجد الفرزة الجديد في (الموحس)



مسجد قديم في وعلان - رصد



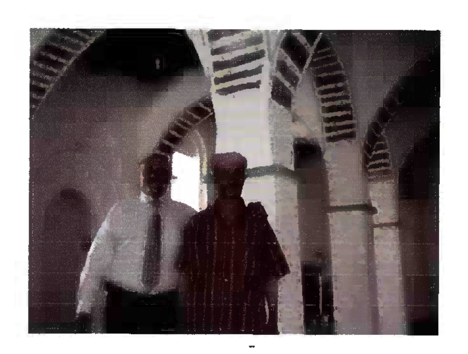
داخل مسجد الجيلاني – القارة



داخل مسجد البعلسية القديم –آل بن صلاح



داخل مسجد بني بكر القديم



داخل مسجد العسقلاني - المشراح





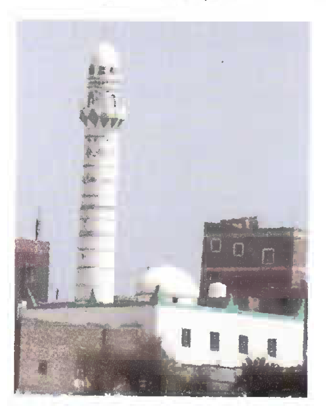




مآذن حجرية ومزخرفة : المحجبة- الصيرة -خلاقة- اليزيدي(في الأعلى)



مسجد الجربة (يمين) ومسجد آل يونس (شمال) في المفلحي



المنشآت الزراعية

تمثل المنشآت الزراعية من أهم المجالات الحيوية لفنون المعمار اليافعي، فقبائل يافع زراعية، مستقرة، حضرية تسكن القرى والتجمعات السكانية المتناثرة على جوانب الوديان وقمم وسفوح الجبال حيث يتوفر من الأرض ما يمكن زراعته في قطع صغيرة أو في تلك المدرجات الزراعية التي تكثر في بطون الجبال ومنحدراتها. وقد مارس اليافعيون منذ القدم الزراعة وكانت شغلهم الرئيسي وتغطي حاجياتهم المعيشية، ولأن طبيعة يافع الجبلية قاسية، فأنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام التبعية لعوامل الطبيعة، بل سعوا إلى تكييفها والتغلب عليها وتطويعها، وتطلبت الخبرات المتراكمة طوال قرون في المدرجات الزراعية ، ضرورة الاختيار الأمثل لمواقع المدرجات الزراعية، التي أقاموها بجهودهم ودأبهم في سفوح الجبال وبطونها ودعموا أمام التراب بجدار عريض يُسمى (الضِّرك) يرتفع عدة أمتار لمنع التربة من الانجراف وإبقائها صالحة للزراعة، واستغلوا التربة مهما كانت كميتها ضئيلة، وتوجد المدرجات الزراعية بكثرة، ليس فقط في الشعاب القريبة من المناطق المأهولة، بل نجدها أيضاً كلما ابتعدنا في الشعاب التي يطلق عيلها الخلاء، بحيث تبدو المدرجات الزراعية أشبه بمدرجات المسرح الروماني. وما تزال زراعة الأرض – باستثناء مناطق يافع الساحل- تتم بصورة رئيسية يدوياً، وتستخدم في الري مياه السيول التي تتدفق من الجبال المنحدرة إلى الوديان.



وهنا يكون من الضروري الإشارة إلى أن "الأرض الزراعية" هي عبارة ذات مبالغة ما، فالناس في يافع "يخلقون" هذه الأرض الزراعية فعلاً. إن الجبال الصخرية قاسية
عنيدة، ويتعيّن على المرء أن يمهد الصخر الجبلي، وينقل إليه التراب، ويقيم المدرجات والمصدات، ويدبر الحصول على الماء، في ظروف مشقة وكدح، كي يظفر بأرض زراعيةمحدودة المساحة، محدودة الغلة[1].



وتتمثل مهارتهم في قدرتهم على التعامل مع السيول والفيضانات، إذ تعلموا منذ القدم كيف يستفيدون منها ومواجهة أضرارها، وتفننوا في بناء جدران من الصخور الكبيرة لصد وردع السيول حتى لا تجرف قطع الأراضي الزراعية في الأودية المنخفضة يُطلق عليها اسماء (عرمة/مَرْأس/مَعْقَم/عقمة)، وقنوات أخرى ترد السيول إلى المدرجات العلوية لترويها وتُسمى(رَوَادِ السيول). ونظموا قنوات لتصريف مياه الأمطار التي تنحدر من المساحات المحيطة بالأراضي الزراعية (المساقي/الأعبار) وتسمى هذه القنوات(الشعيبة/المشعبة/الشعوبة/البديدة) ، وتقسم من خلالها المياه بين أصحاب الأرض ذات المسقى "العُبَرْ" المشترك، حسب حصص كل جربة أو طين وفقاً لمساحة الأرض والحق المكتسب[انظر الصورة].



جدران الضَرك التي تحفظ التربة مع نوبة قديمة

---

1 ـ قلب يافع، سعدي يوسف (مقالات ودراسات عن مديرية يافع وتاريخها)،دار الفارابي، 1985م، ص140.

الأوصار

الأوصار جمع وَصر، وهو البيدر الذي تجمع فيه سنابل الذرة بأنواعها والدخن بعد الحصاد، لكي تجف وتفصل عنها الحبوب. ويتكون من بناء حجري دائري غالبا، يرتفع حوالي مترين. وقد تضاف فوقه أغصان الأشجار المشوكة "الزّرب" بغرض تأمينه من دخول الناس والحيوانات. وأرضيته إما صخرية مستوية أو تسوى بصفائح رفيعة من الحجارة تسمى "الصَّلا" يتثبت فيما بينها بالخلب، وهو خليط التراب بالماء. وكانت تبنى في ناحية من الوصر غرفة صغيرة "مَحْرَسَه" أو "ديمة" صغيرة تخصص لمن يتناوبون في حراسة المحاصيل.(كما في الصورتين)





الأبـــار



الماء أساس الحياة، لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} . والحصول عليه وحفظه في مرتفعات يافع الجبلية عملية شاقة، وتعد الآبار والغيول المصدر الرئيسي للحصول على الماء. وتكون ملكية الغيول عامة، ولا يمكن لفرد أو أسرة امتلاك الغيل أو احتكار مياهه، أما الآبار فمنها الخاص ومنها المشترك ومنها العام، وتنتشر في كل القرى والأودية، وتم حفر الآبار بتعاون الناس ودأبهم وبطرق يدوية مستخدمين الوسائل البدائية

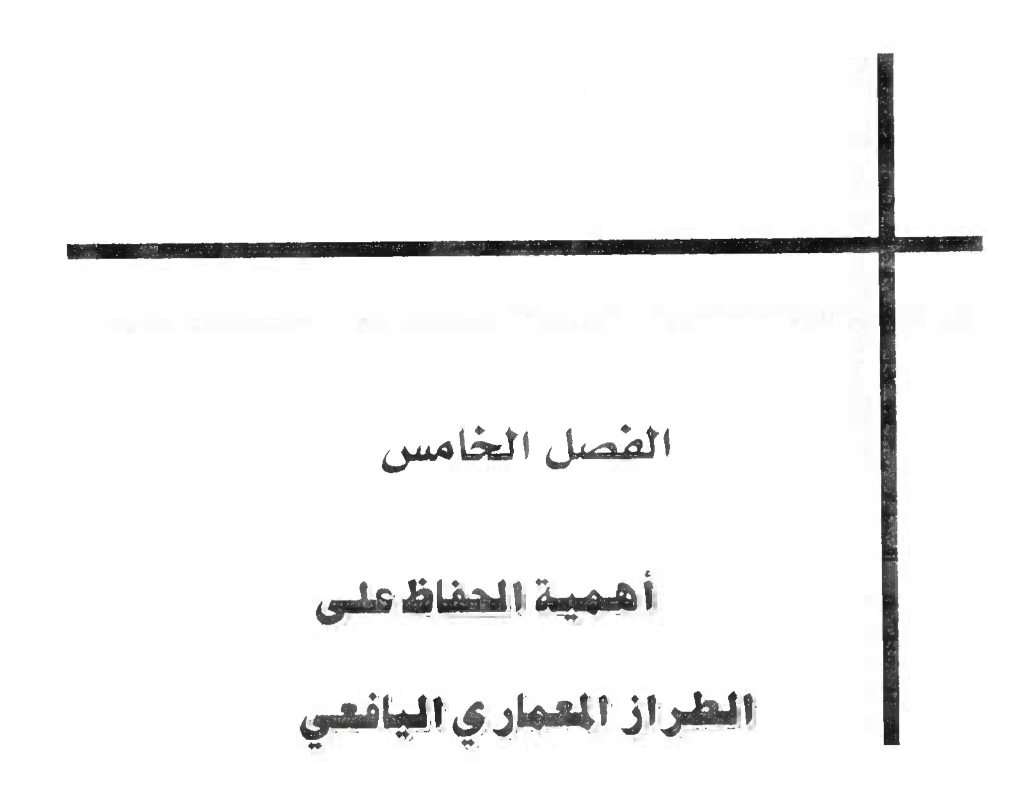
السِّقَايه

حوض مبني ومملط بالنورة لحفظ مياه الأمطار أو ما يُضخ إليه من البئر القريبة منه، وكانت هذه السقايات تنتشر بشكل كبير في طرق مرور الناس والقوافل للشرب منها، ومعظمها مكشوف والقليل منها مغطى بسقف، ويكون بالقرب منها مكان خاص لسقي المواشي، وكانت هذه السقايات مورداً للشرب للمارة والمسافرين مع ماشيتهم، ويحيط بها سور مرتفع قليلاً، وتوجد حفرة بجانب السقاية أو الماجل، ووظيفتها استقبال مياه الامطار في بداية تدفقها بحيث تستقر فيها الطمى والأتربة ويفيض منها فقط الماء النظيف إلى الماجل أو السد، وتسمى (المنشّة/ السقى/ المصفى). وكان البعض يستفيد من الماء في ري المزروعات، وكانت السقايات وكذا المواجل والكرفان تنتشر في كثير من الطرق الجبلية التي يرتادها المسافرون، وقد تهدم الكثير من هذه السقايات والمواجل بسبب الإهمال وعدم الحاجة إليها بعد دخول طرق السيارات(انظر الصورتين أدناه).







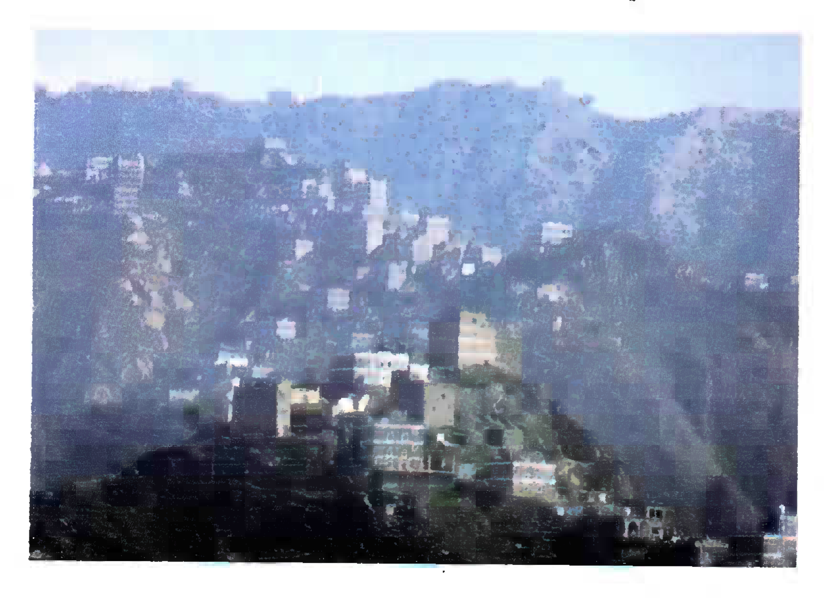


الفصل الخامس

أهمية الحفاظ على الطراز المعماري اليافعي



نظر من وادي حمومة، ويبدو قود بن عسكر ومحيطه (أعلى)
ذي الشارق والموصف، وفي الأفق جبل السعدي (أسفل)



الفصل الخامس

أهمية الحفاظ على الطراز المعماري اليافعي

متحف لنمط معماري فريد وثروة ينبغي الحفاظ عليها:

تعتبر التجمعات السكنية والقرى اليافعية بشكل عام متحفا حياً لنمط من العمارة الحجرية الفريدة، الغنية بعناصرها الجمالية والفنية، وهذه القيمة الفريدة توجب علينا القيام بحمايتها وصيانتها، ليس لأنها مجرد مبانٍ سكنية تؤمن السكن المريح، بل لأنها تتجاوز ذلك إلى قيمتها الفنية والأثرية والتاريخية، وتعكس التطور الحضاري والفن الهندسي والمعماري وخبرة قرون من الممارسة، أوجدت هذا الطراز المعماري المتميز الأثير والحبيب إلى نفوس أهلها والنابع من وجدانهم والذي يتعرف به عليهم، حتى أن هذه العمارة بأصالتها ورصانتها أصبحت أنموذجا من أرقى العمارة في الجزيرة العربية، وهذا ما لم ندرك كُنْهه نحن أصحاب هذا الإرث الحضاري القديم والمكتسب، بما تراكم مما أضافته الأجيال المتلاحقة إلى رصيده الثري، لأننا نجهل ذاتنا، ولا نرى أو ندرك قيمة ما نملك من فن معماري فريد.

غير أن الدكتورة المهندسة سلمى سمر الدملوجي الأستاذة العراقية بجامعة لندن[1] قد أدركت ذلك وخلصت من خلال تخصصها في فن العمارة العربية والإسلامية إلى أن البناء في يافع يكاد يكون الأكثر تطوراً في الجزيرة العربية، كما إنه سبق غيره من حيث الهندسة المعمارية، وأصبح للهندسة البنائية بيافع محترفوها، فهم ذو خبرة متوارثة امتازت بجودة عالية لا تضاهى. ثم إن النمط المحلي المبني بالحجر مقاوم للتلف وعوامل التعرية أكثر من أي نمط مسلح خرساني أو أحجار مستوردة. كما أن تجانس المباني التقليدية مع البيئة يجعلها تبدو وكأنها منحوتة من الجبال المحيطة أو كأنها جزء منها. ولا داعي إلى وصف مقارن بين تأثير شكل وتركيب قطع الاسمنت الفظة وواجهات الحجر المشوقة والمنحوتة، فالبناء الاسمنتي متدني أصلاً، نمطاً وشكلاً. وهذا صحيح على المستوى العالمي ومعترف به.

---

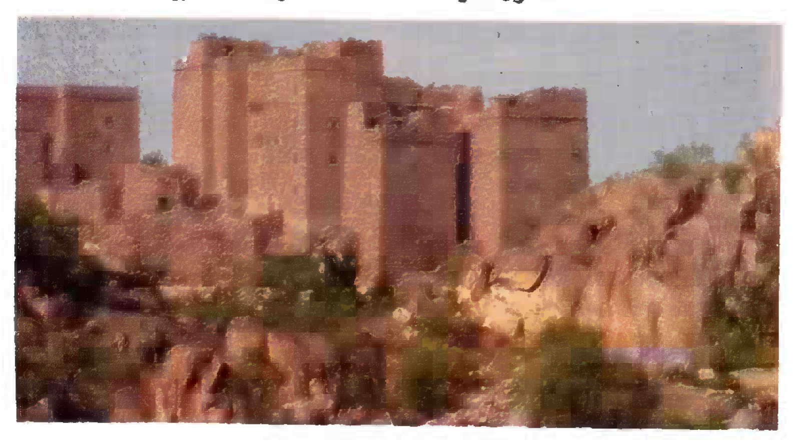
[1] - انظر: صحيفة "الأيام" ، العدد(704)، 13 مارس 2000م، ص:3.

نعرف أن أوروبا وأمريكا خاصة تهتم بالطرز المعمارية التقليدية القديمة نسبيا التي لا يتجاوز عمرها المائة عام أو يزيد عن ذلك قليلا، فيما لدينا قلاع وحصون قديمة جدا يتجاوز عمرها الخمسمائة عام وأكثر وتكاد تختفي أمام ناظرينا، دون الالتفات إليها أو التفكير بترميمها والحفاظ عليها. ومن محاسن الصدف أن بعض العمارات التي تجاوز عمرها عدة قرون ما زالت قائمة تقاوم الزمن، وبعضها الآخر ما زال مأهولا بالسكان، ممن لم تسمح لهم الظروف ببناء مساكن جديدة الأمر الذي جعلهم يهتمون بصيانتها للضرورة السكنية وليس لقيمتها التاريخية.





حصون قديمة- خلاقة- مرفد - جروة



لا بد لنا أن ننظر إلى هذا الفن المعماري كثروات ثقافية ومادة إستراتيجية، لن تعوض بمرور الزمن، ولا بد من وقف التدمير الذي تتعرض له البيوت والحصون الأثرية القديمة التي تُهدم عمداً، وبدون وعي بقيمتها التاريخية، بقصد الاستفادة من حجارتها وأخشابها، أو تركها عرضة للإهمال، تواجه الأقدار، حتى تنهار، بفعل عوامل التعرية من رياح وأمطار. وأن ننتبه ونُوقف التحريف للطراز المعماري المميز الذي يتعرض له بدون قصد أو وعي بسبب الحرص على مسايرة الطراز الجديد المستورد، خاصة البنايات الإسمنتية الخرساء، أو تلك الملبسة بحجارة مستوردة والتي نخشى أن تقضي على خصوصية معمارنا الأصيل.





في الأعلى حصون الهجر القديمة وفي الأسفل (السويداء- يهر، (والسحلة)آل بن صلاح





ولا بد لنا من صحوة للحفاظ على هذا الطراز المعماري الفريد في هيئته الأصلية وبقيمته الجمالية والتاريخية التي لا بد أن تزدهر خاصة في منطقة يشتهر أهلها بفن العمارة والبناء، وما زالت المعارف الحرفية حية ومواد البناء ، خاصة الأحجار، متوفرة بكثرة ويمكن الحصول عليها وتشكيلها بطرق أيسر مما في الماضي، بعد توسع وامتداد شبكة الطرق المعبدة الحديثة وتوفر الآلات والوسائل الحديثة المستخدمة في استخراج الحجارة وتسويتها.



قصور الحمراء الجناب- الحد

ففي مناطق يافع الواسعة، هناك الكثير من القلاع والحصون التاريخية القديمة التي ما زالت شامخة منذ مئات السنين، وتنتظر التفاتة صادقة من أهلها لترميمها والاهتمام بها، وعدم تركها فريسة للاهمال أو تعريضها لأضرار الأمطار التي قد تتسرب من أي فتحة صغيرة أو تشقق بسيط في سقوفها إذا ما تركت مهملة، كما رأيت ذلك في قصر جميل في قرية (شريان)، وكم تمنيت لو أنهم سدوا التشقق قبل أن يتحول إلى فتحة صغيرة كانت السبب في تسرب مياه الأمطار منها، ثم اتسعت وأدّت إلى ما أدت إليه في تهدم بعض أجزاء سقوف البيت الجميل من الداخل، وقد علمت أن اصحابه عقدوا النية لترميمه، ومع ذلك فإن



تدارك الخطر ما زال ممكنا قبل أن يأتي على البيت بكامله، وهذا ينطبق على حصون مماثلة كثيرة في يافع، وأتمنى أن يسارع ملاكها لترميمها قبل فوات الأوان، ولا ننسى هنا حكمة المثل اليافعي القائل "ذي ما يسد سَمّة سَدّ مَفجر" والسَّمَّة: ثقب صغير. والمفجر: ثقب كبير يندفع منه الماء، والمعنى أن من يهمل الشيء الصغير تغاضيا أو استخفافاً به، يجد نفسه مضطراً لبذل مجهود أكبر لمواجهة الخطر الذي كبر واستفحل أمره.





لو سُدّت الفتحة الظاهرة في السطح لما تسببت في هذه الأضرار من الداخل

وهناك الكثير من الحصون القديمة القائمة، بل والصالحة للسكن، رغم مغادرة سكانها إلى بيوت جديدة شيدوها، ويجوز أن نقول عليها "قصور دُول" ولا مبالغة في ذلك، فضخامتها وشموخها المنيف على مدى قرون مضت يؤكد ذلك، ولا

مجال لمقارنتها بالبنايات الحكومية المتواضعة جدا في وقتنا الحاضر، سواء في يافع أو خارجها، ولهذا لا ينبغي إهمالها، فهي شاهد مادي على حضارة الأجداد، وينبغي أن لا نبخل عليها بقليل من العناية أو الترميم الضروري مع الحفاظ على شكلها الجميل.



دار الدرك في معزبة آل بن علاية – العرقة في ذي ناخب، قبل وبعد الترميم



وكمثال لذلك بعض حصون "الهَجَر"القديمة و "ذي صُرأ" و "جروة" و "حُصن الحد" ، وقس على ذلك في جميع مكاتب يافع العشرة (يهر ،السعدي، اليزيدي، ذي ناخب، كلد، الحضارم، لبعوس، المفلحي الضُبَي، الموسطة)، وفي تقديري فإن الإسراع بإعادة ترميم هذه الحصون وهي في حالتها الجيدة، غير مكلف، إذ يحتاج المبنى الواحد إلى كمية غير كبيرة من الاسمنت لحماية السقوف من خطر الأمطار ووقف تداعي بعض حجارة الواجهات الآيلة للسقوط بترميمها وتثبيتها بمادة الاسمنت لمنع تسرب مياه الامطار الى مداميك الجدران.

ومثال ذلك الترميم الذي رأيته في معزبة (آل علاية) في العرقة، حيث تم ترميم أحد الحصون الضخمة فيها هو (دار الدرك) فبدا بعد ترميمه وكأنه قصر جديد شيد للتو والأمل أن تتواصل الجهود لاستكمال ترميم بقية الحصون في تلك القعلة الاثرية، وفي جميع أنحاء يافع.





بيت الشيخ في الجُرية قبل وبعد ترميم التشققات مع الحفاظ على هيئته الأصلية

ولمّا كان الشّيءُ بالشّيء يُذكر ، فلا يفوتني هنا الإشادة بتجربة رائدة أقدم عليها ملاك دار آل يحيى، مشائخ المفلحي والمعروف بـ(بيت الشيخ- الصورة أعلاه)، وهو قصر ضخم، يتوسط الجزء القديم في حاضرتهم "الجرية"، فقد حرص أصحابه بعد ظهور بوادر التشققات والتصدعات في بعض واجهات الجدران

الخارجية على الاستعانة بالبنائين المَهَرة من أبناء المنطقة وأعادوا ترميمه باستخدام الحجارة الأصلية واتباع التقنيات التقليدية نفسها، والحفاظ عليه في هيئته الأصلية من الخارج، بما في ذلك الزخارف والنقوش الخارجية المختلفة من حجارة (المَرو) بروعتها ورونقها بحيث تبدو في واجهة البيت أشبه بقلادة فضية كتلك التي تزين جيد المرأة، فتبدو بأبهى حلة تأسر ألباب النّاس، وكذا النوافذ الخشبية، فيما تم إعادة تشييده وتقسيمه من الداخل بما يلبي متطلبات الحياة العصرية. وسيبدو أكثر روعة حين تزينه التشاريف عند استكمال ترميمه. وهذه مبادرة تستحق الاعجاب والتقدير وينبغي الأخذ بها وتعميمها في بقية المناطق، وقبل ذلك لا بد من امتلاك الوعي بقيمة مثل هذه الترميمات.





زخارف "بيت الشيخ" الجُرية (أعلى) وفي الأسفل قصور حُصن الحد الشامخة



خطرٌ داهم

ظلت عمارة يافع كياناً عضوياً مترابط الأجزاء، ينبع من وحدتها الفنية المتسقة والمتناغمة، وخلال العقدين الأخيرين ظهر خطر داهم، يتهدد هذه الوحدة العضوية بخصائها الجمالية، يتمثل بدخول المباني الاسمنتية بأشكالها المشوهة والغريبة، والتي يعتقد اصحابها – للأسف الشديد- أنها تحسينات وتحديثات، دون إدراك منهم إنهم بذلك ينفصلون عن هويتهم التي عُرفوا بها منذ أزمنة قديمة.



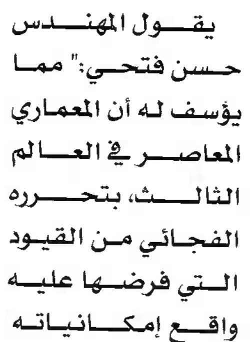
ومثل هذه العمارات الدخيلة بدأت تغزو بعض مناطق يافع، بما فيها معقل "آل بن صلاح" (انظر الصورة أعلاه) وهم معلمو البناء، وبناة ناطحات السحاب الحجرية على مدى قرون، والأجدر بهم أن يكونوا أكثر من يحرص على هذا اللون الأصيل والتمسك بتلابيبه، بل وبمقدورهم أن يبتدعوا الحلول الخلاقة من عمارتهم، من دون الإخلال بنمط عمارتهم التقليدية، أو الاستسلام لسهولة عمارة الاسمنت ومد الجسور الخرسانية لبناء الفضاءات الواسعة.

كما أن تجربة قرية "عنتر" خير مثال لغزو البناء المسلح الاسمنتي، واستجلاب الطراز المعماري الغريب والمستحدث، التي تمثله العمارات الاسمنتية، بما تشكله من خطر داهم يهدد هويتنا الثقافية وخصوصيتنا الذاتية، فقد تسبب ذلك البناء إلى إضاعة العلاقة بين تلك القرية الجميلة وبيئتها الطبيعية



وفقدت رونقها المميز الذي يشد الأنظار، والخوف أن يلحق البقية في هذا الطريق، دون وعي، ولا بد من التنبه لهذه المخاطر لوقف هذا التدمير للتراث قبل فوات الأوان.





يقول المهندس حسن فتحي:" مما يؤسف له أن المعماري المعاصر في العالم الثالث، بتحرره الفجائي من القيود التي فرضها عليه واقع إمكانياته التكنولوجية المحدودة، لم يعد قادراً على مقاومة الإغراء فأخذ ينهل من هذا السيل العارم من التكنولوجيا الحديثة التي توافرت له بدون التفكير في تأثيرها على النسيج المعقد لحضارته، وغير مدرك أن المدنيّة لا تُقاس بما يؤخذ من الغير، بل بما يساهم به كل فرد في صنع حضارته"[1].

وترى المهندسة سلمى سمر الدملوجي أن ما يُسمى نهضة معمارية هي أصلاً نهضة "إنشائية" خالية المضمون في أشكالها المحدودة والتي نرى انتشارها في بناء المتاجر والمؤسسات التجارية وفي بعض – للأسف الشديد- البيوت الخاصة. الخطر يكمن في وهم أصحاب عمارة الاسمنت المؤقتة أنها تمثل البديل لعمارة الحجر التقليدية وأن يقوم الأهالي بتقليد أصحاب المحال في هذا من باب "الموضة" والاستسهال في رخص (بلوك) الاسمنت والعمالة، وسيزيد هذا من تشويه الكيان الأساسي للمدن والقرى ويخل بتوازن تخطيطها وهيكلها الطبيعي

---

[1] - الطاقات الطبيعية والعمارة التقليدية، حسن فتحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1988م: ص29.

تشويه الكيان الأساسي للمدن والقرى ويخل بتوازن تخطيطها وهيكلها الطبيعي وعلاقته بالبيئة. والخطر الذي يهدد النمط اليافعي يكمن في تفرق العمارة وتشتيت مدنها من خلال إنشاء عمارة اسمنتية، ومن خلال استبدال التفاصيل المعمارية للمفردات. فـ"الخلّة" أصبحت قمرية و"قطب" الدرج أو "الفحل" تحولت "سيري" ومدماك الظهارة والبطانة أصبح بلوك اسمنت بواجهات حجرية مزيفة[1].

ولكم أشعر بالأسى والحسرة وأنا أشاهد البنايات الاسمنتية الحديثة الخالية من أية لمسات جمالية، بل أنها تشذ عن محيطها البيئي سواء في المواد المستخدمة أو في الشكل الخارجي، وعلى أجيال اليوم، التي حباها الله بالقدرات والإمكانيات المادية بما لا يقاس عمّا كان عليه حال الأسلاف، أن تدرك أهمية ما تقدم عليه عند تشييد المباني الحديثة، وتعرف أنها إما أن تؤكد اصالتها وخصوصيتها المعمارية، أو أن تشوهها وتقضي عليها ، بدون وعي غالباً. ومع ذلك لا نريد التقيد بالنمط التقليدي دون تطويره، لكننا نطالب بإعطاء المعمار الحديث روحا فنية، تنهل من الطرز القديمة وتطورها، وما يدفعنا لذلك إن المعمار الحديث الدخيل على بيئتنا وهويتنا المعمارية ليس فيه مسحة جمالية ولا صلة بفرادة معمارنا الجميل والأصيل.

التوفيق بين الأصالة والمعاصرة

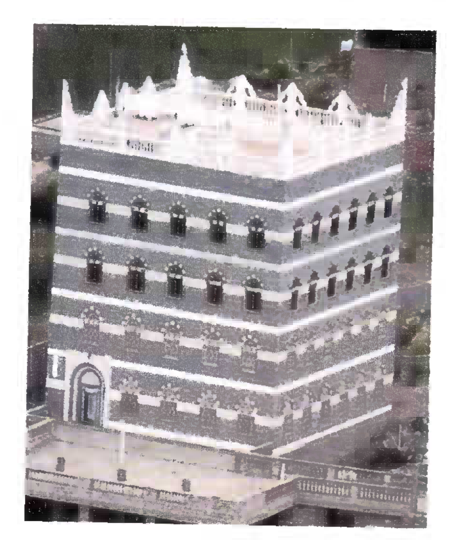
إن العراقة والأصالة تعني أن نحافظ على هويتنا وخصوصيتنا المعمارية المميزة والفريدة والتي تكونت وترسخت من خلال ما صنعه الأسلاف عبر الأجيال منذ القدم. وأن نجاري هذا الطراز المعماري في عملية التطور والتحديث دون أن نخرج عن نسقه العام ونموذجه الرائع.

ولا شك إننا نحن أبناء هذا الجيل مدينون لأسلافنا من أجيال الآباء والأجداد المتعاقبة في كل ما نفخر به من فن معماري متميز، بلغ بروعته الهندسية وشموخه ذرى سامقة تدعو للتأمل والتفكير وتبعث الثقة بالنفس والاعتداد بمواصلة هذا الإرث الحضاري الذي يؤشر بتفرده إلى الشخصية اليافعية. نقول هذا الكلام لثقتنا أن تقاليدنا المعمارية ليست سيئة، بل مدهشة

[1] - "الأيام" العدد(407) 13مارس2000م. انظر أيضا: د. سلمى سمر الدملوجي: العمارة اليافعية الأكثر تعقيدا وفرادة بطرزها الحجرية وارتفاعاتها الشاهقة، صحيفة الاتحاد الإماراتية (2000/5/25م).

بتجانسها مع الطبيعة المحلية وبأبعادها الجمالية وبهندسة بنائها العجيبة وبارتفاعاتها الشاهقة التي تصل إلى ستة وسبعة طوابق.





وحين ندعو للحفاظ على التقاليد المعمارية الموروثة لا نعني بذلك الالتزام بها جملة وتفصيلاً أو الجمود في حدودها وعدم الخروج عنها، وإنما يعني فقط استلهام عناصرها وخصائصها الأساسية بجمالياتها وتطويرها بما يتماشى مع روح العصر.. فلسنا فيما ندعو إليه ضد التطور الحضاري، فسنة الحياة هي التطور والرقي، ولكن ما يثير قلقنا هو أن يحدث العكس، أي أن نهبط في فننا المعماري من تلك الذرى الحضارية المدهشة ونستسلم لعمارة الإسمنت الخرساء، لاسيما وقد بدأت تلوح الآن بوادر أخطار محدقة، بتحدياتها العنيفة التي تهدد هذا الكنز المعماري الأصيل وقد تقضي على معالم الخصوصية في المعمار اليافعي وتمحو آثار هذا الإبداع الإنساني الجميل.

إن تراكم التجارب جعل الإنسان يتوصل إلى الحلول الأفضل لمشاكله، وما تزال كثير من هذه التجارب تمارس في الواقع ، فالبناء التقليدي مصدر لا بديل له في ظروف المنطقة رغم تهافت الجديد وتفاهته.. وهنا لا بد من نشر الوعي بأهمية الحفاظ على النمط المعماري المميز الذي يمكن أن يتطور بما يوافق احتياجات الحاضر دون الإخلال بجوهره ، من حيث استخدام المواد الإنشائية (خاصة الحجر المحلي) بدلاً من قوالب "البَردين" الاسمنتية الخرساء الصماء،

التي تبدو كالبثور المرضية في القرى اليافعية، أو كالشاذ بين أهله وقومه في شكله الغريب.. فالعمارة تعكس ثقافة المجتمع الذي تنشأ فيه، وبما أن أدوات البناء متوافرة محليا فلا بد من التوجه الجماعي نحوها مع الاستفادة من ملامح التطور، فقد يكون البناء المسلح رخيصا لكن تكاليف الحفاظ عليه مع تقادم الزمن قد تكلف الكثير، ويمكن أن نرمم منزلا بُني من الحجر عمره مائة عام وسيكون صالحا للسكن لزمن طويل، وحتى إذا لم نعد بحاجة لترميمة فيمكننا أن نستفيد من حجارته وأخشابه دون أن يبقى منها شيئا، أما البناء الإسمنتي المسلح فقد نضطر لهدمه، بل وستبرز الصعوبة أيضا في كيفية هدمة وفي التخلص من مخلفاته التي لا يمكن الاستفادة منها.

فما العيب أو الضار أن نلتزم بالبناء بالخامات المحلية ، خاصة الحجر التي تتوفر بكميات كثيرة في عموم مناطق يافع، أما أن نلجأ إلى الجدران الإسمنتية أو استيراد الأحجار من خارج يافع وبلون لا يمت بصلة إلى بيئتنا، مع وفرة الأحجار في مناطقنا وبنوعيات جيدة فذلك ما يضر أشد الضرر بهويتنا وخصوصيتنا المعمارية الفريدة المكتسبة.





كيفية التحديث

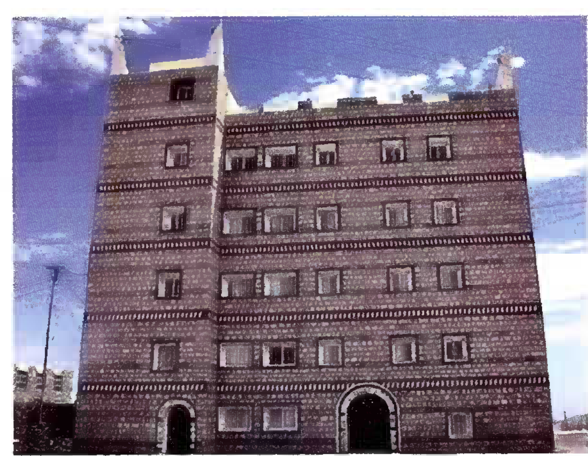
ينبغي أن لا نذعن لتحديات البناء الإسمنتي الغريب على بيئتنا وعلى فننا المعماري تحت اسم التطور، بل يجب أن نكون حكماء في خطوات هذا التطور، بحيث نوائم بين القديم والجديد فنأخذ ما نراه مناسباً ونحافظ في ذات الوقت على تقاليدنا المميزة ولوننا الخاص. وليس مستحيلاً التوفيق بين الاستجابة

لضرورات التطور وبين إبقاء اللمسة المعمارية اليافعية ظاهرة للعيان من خلال الحفاظ على النمط التقليدي، كالإبقاء على الهيكل الخارجي وزخرفته بالنقوش الحجرية والتشكيلات الهندسية الجميلة وبتقاسيم الأدوار المزينة بالحزام الأبيض وبالتشاريف، ويمكن في الوقت ذاته مواكبة التطور من حيث التحكم في تصميم المبنى من الداخل من حيث السعة والتقسيم الذي يلائم الحياة العصرية.

ومثل هذا الاستلهام الواعي لتراثنا المعماري جسَّده البعض في القصور الحديثة التي تراعي هذه الخصائص، ولا نجد إلا أن نشيد بوعي هؤلاء وإدراكهم لأهمية ما أقدموا عليه في تشييد هذه القصور الضخمة التي يحق لنا أن نفخر بها وأن نرفع قبعاتنا إجلالاً لأصحابها، فبهذه القصور نحافظ على العراقة والأصالة ونجسد الارتباط العاطفي بالبيئة المحلية، دون أن نتخلى عن ركب التطور ومساره الذي لا يعرف التوقف والجمود. ودون أن نشوه خصوصيتنا المعمارية بالعمارات الاسمنتية الغريبة على نمطنا المعماري التي وقع بعض المقتدرين والميسورين في شراكها بدون وعي منهم.



قصر حديث بقي له(التشاريف) ليتناغم بروعته مع محيطه الجميل -آل بن صلاح



الشيخ علي عبدالله العيسائي في أعلى قصره أمام بانوراما رائعة جمعت جمال الطبيعة وفنون المعمار



ولعله من المفيد أن نذكر حكاية بطلها أحد اثرياء يافع، هو رجل الأعمال العصامي الشيخ علي عبدالله العيسائي، الذي اختار جبل (أحرِم) المقابل لقمة (الحقب)، هذا الموقع الاستثنائي جغرافيا والمثير للذهول بصرياً وبيئياً، بما يحيط به من ارتفاعات الجبال المجاورة ومساقط الوديان العميقة، فشيد في أعلاه قصراً ضخما أراده أن يكون متميزا بشكله وارتفاعه وحداثته، كدليل على إرتباطه الحميم بمسقط رأسه، وقبل أن يكمل البناء وصلته رسالة عتاب من المهندسة المعمارية سلوى سمر الدملوجي لاستخدامه قطع الطوب الاسمنتية المجوفة بدلا من الحجارة، وفي أعلى جبال يافع وعلى مرأى من الأهالي وهو شيخ من قدوة البلاد وكأنه عبرة ليقتدوا به[(1)].

[1] - انظر: عمارة القلوب.. وقلب سرو حمير هي بلاد يافع، سلمى سمر الدملوجي ، صحيفة الحياة، العدد(13559)26 إبريل2000م، ص16.

وسرعان ما أدرك الشيخ علي هذا الخلل أو الخطأ الذي وقع به بدون قصد، وهو المشهود له بحب يافع وتاريخها وتراثها الأصيل، فقام على الفور بإعادة بناء قصره بتلبيسه من الخارج بحجارة منحوتة من الجبل المجاور لقصره، في قمة (أحرَم)، وزينه بالخطوط الفاصلة بين طوابقة، وشَرَّفه بالتشاريف الهرمية المسننة التي تعلو أركان القصر، فأعاد إليه روح وشكل العمارة التقليدية، التي تزواجت مع الحداثة في سعة وضخامة القصر وتقسيماته الداخلية، وبدا مزهوا بشكله المتناغم والمتجانس مع البيئة المحيطه وطرازها المعماري الأصيل.



وهناك ظاهرة تلفت الانتباه، ففي "يهر" تنتشر ظاهرة بناء طوابق إضافية جديدة من قطع البردين الاسمنتية فوق البيوت الحجرية المكونة من دورين أو ثلاثة، ويتم تكسيتها بعد ذلك بطبقة من الإسمنت ثم تُطلى بألوان تتناسب مع ألوان الحجارة الرمادية المائلة إلى الزرقة فيبدو شكلها متناغما مع بقية الطوابق الحجرية، ويصعب تمييزها من الوهلة الأولى، وتزين أيضا بالخطوط البيضاء الفاصلة بين الطوابق وكذا التشاريف، وهذه الطريقة التي تحاكي النمط اليافعي أفضل بكثير من عمارات الطوب الاسمنتية الشاهقة ذات النمط واللون الغريبين وتجسد تشبث أصحابها بالنمط اليافعي وشكله الأليف والمحبب إلى قلوبهم(انظر الصور).




دعوة للأصالة والجَمَال

كم سيكون رائعا أن نعيد لواجهات الدور والقصورالحجرية الحديثة في يافع بعض اللمسات الجمالية الممثلة بالنقوش والزخارف المتنوعة وكذا القمريات أو العقود الحجرية الداخلية والخارجية، لأننا وللأسف الشديد حين نمعن النظر في واجهاتها الخارجية أو الداخلية، لا نجد أثراً لتلك الزخارف والنقوش التي كانت سمة للبيوت القديمة، إلى عهد قريب، ولا نجد أمامنا إلا واجهات ملساء، خرساء، لا روح فيها ولا نبض ولا إحساس أو لمسات جمالية.. فلا ولجة، ولا عقود، ولا زخارف، كتلك التي ألفناها في البناء القديم.. وهنا نتساءل بمرارة.. ماذا جرى لنا؟ ولماذا الانحدار إلى الأسوأ على هذا النحو المؤسف؟.. لماذا البدائل الأسوأ؟! .. وأيهما الأفضل الحجر أم البُلك؟.. الخشب.. أم الألمونيوم.. والقمريات الحجرية المزدانة بالنقوش والتشكيلات الزخرفية الحجرية أو قمريات الجبس الهشة؟....السدد الخشبية السميكة أو الصفائح الحديدية؟!.

وأقول هنا: حريٌّ بنا أن نجاري ما بدأه اسلافنا وأن لا نتخلّف عنهم . فقد كانت العمارة بالنسبة للآباء والأجداد حاجة أساسية للحياة وفناً من الفنون الزخرفية التي يتنافسون على إبرازها في الواجهات الخارجية والداخلية. وكم نحن أحوج ما نكون لاستعادة ملامح الجمال والروح الفنية الأصيلة للعمارة اليافعية التي تستهوي الأفئدة وتسبي الألباب.. ويكفي أن يتأمل المرء في نقوش واجهات بعض البيوت القديمة من الخارج أو الداخل ليعرف مدى تأخرنا عن أسلافنا وتفوق ورقي ذوقهم الجمالي وحسهم الفني المرهف .. فبدلاً من الواجهات ذات العقود والزخارف والنقوش الآسرة للانظار التي لا تخلو منها واجهات غرف

البيوت القديمة، نجد البناء العصري اليوم بواجهات ملساء، صماء، لا لمسة جمال فيها ولا نقوش ولا زخارف وكأننا لا نمتلك أي حس فني.. إنها دعوة لمراجعة أنفسنا.. دعوة للتمسك بقيم الأصالة والجمال.



ومما يستحق الذكر والإشادة هنا تلك البادرة والتجربة النموذجية التي أقدم عليها أحد سكان ذي صرا(انظر الصورة)، إذ شيد بجانب بيته الذي يجاور الطريق العام مجلسا فريدا، يلفت اهتمام المارة ويأسر أنظارهم، التزم فيه مقاييس ونمط وفنون البناء اليافعي من الخارج ومن الداخل، سواء بحجارته الرمادية المائلة إلى الزرقة، أو في النوافذ الخشبية المزخرفة بأشكال محفورة أو بالنقوش الحجرية التي تزدان بها الواجهة الخارجية والممثلة بنقشة (العَلَسة) وشكل المعين المزدان بحجارة المرو، وكذا العقد النصفي فوق الباب .. وكذا الزخارف الداخلية التقليدية، حيث حافظ على





الأولاج بمختلف أحجامها وبيت المداعة والعقود التي تعلو فوق النوافذ، واستخدام الخشب وألواح الصلا الحجرية في السقف، وهو يستحق أن يكون نموذجا يقتدى به من قبل الغيورين على تراثنا وفننا المعماري الجميل، وأعتقد أن كثيرين سيحذون حذوه، إن لم يكن في واجهات وغرف بيوتهم، فعلى الأقل في المجلس الرئيسية (الديوان) بحيث يقدم بزخرفته ونقوشه التقليدية صورة مكثفة للأصالة والجمال، ويربط الأجيال الجديدة بثقافة الآباء والجداد وبفنونهم المعمارية الأصيلة.



والشيء الجميل أنني رأيت مدرسة في قرية (سُهيلة – العياسى) بُنيت بالحجارة المحلية وبالنمط المعماري اليافعي، فبدت متسقة الجمال والروعة مع محيطها المعماري، وبالمثل مدرسة الشهيد عبدالرب بن عبدالرب في (ذي صرأ). وهذا التصميم ينم عن إدراك مسبق للقائمين على بنائهما بأهمية الحفاظ على النمط المعماري التقليدي، والالتزام به في بناء هذه المدارس.

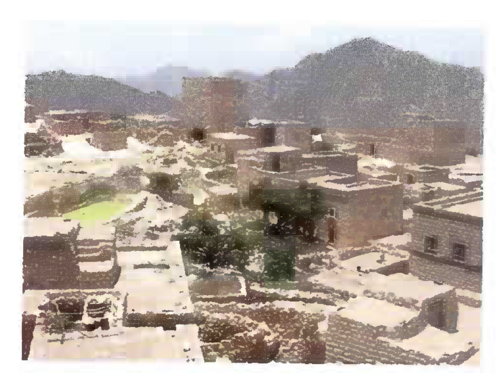


وأتمنى أن ينتشر مثل هذا الوعي وأن تُعمم هذه التجربة وتكون نموذجا يقتدى به. وتقع على عاتقنا جميعا مسؤولية نشر الوعي بأهمية الحفاظ على النمط المعماري المميز، عند أي بناء جديد أو ترميم للقديم، والعدول عن كل أشكال المعمار الدخيل، لأن في ذلك تأكيد الانتماء والهوية وتجسد بأروع الصور وشائج وعُرى الارتباط العاطفي الحميم بالبيئة المحلية.

حصون القارة الاثرية ، ينبغي الاهتمام بها والسعي لأن تكون ضمن التراث المعماري الإنساني













ضرورة تأسيس جمعية للحفاظ على النمط المعماري اليافعي

أمام المخاطر التي تتهدد المعمار اليافعي التقليدي، بدخول عمارة الاسمنت باشكالها الغريبة، ينبغي أن تتظافر جهود المؤسسات الرسمية والأهلية وجميع الغيورين على هذا الفن المعماري الفريد والأصيل لبلورة الوعي لدى الناس بأهمية الحفاظ عليه، ومن أجل ذلك أصبح من الضروري قيام جمعية الحفاظ على النمط المعماري اليافعي، التي طرحت فكرتها منذ أكثر من عشر سنوات، وستكون مهامها وفق الاتجاهات التالية[1]:

(1) التعريف بفنون ومميزات وفرادة النمط المعماري اليافعي الذي لا مثيل له على مستوى العالم، وأهمية الحفاظ عليه كحقيقة وهوية معمارية خاصة تنفرد بها المنطقة.

(2) الحد من التجاوزات والأخطاء التي بدأت تظهر بشكل عفوي غالبا ودون إدراك مسبق لمؤثراتها، ويتم هذا التدارك من خلال إضطلاع الدولة والسلطات المحلية ومنظمات المجتمع المدني بدورها في لفت انتباه الأهالي وتعميم بعض الملاحظات المتعلقة بالتصميم الخارجي والداخلي وبالبناء، وهذا يؤدي إلى وضع ضوابط وتوعية الأهالي وأصحاب البناء بالمبادئ والعناصر المستخدمة.

(3) الحث على تحسين أشكال المباني التي وقعت فيها الأخطاء والعديد منها سطحية قابلة للتقويم من خلال استبدال العناصر الدخيلة أو المواد وإعادتها إلى بيئتها المعمارية الأصيلة.

(4) الحث على إبقاء البيوت والمساجد والمنشآت الأثرية القديمة وعدم هدمها لما لها من قيمة تاريخية وثقافية وسياحية، وتشجيع ترميم المباني اليافعية القديمة التي هجرها أصحابها بسبب انتقالهم إلى مبانٍ جديدة، فبقيت معرضة للخراب حاليا، والحث على المحافظة عليها بهيئتها الأصلية باستخدام التقنيات التقليدية نفسها عند ترميمها وإعادة تأهيلها والاستفادة منها - كونها تمثل جزءا أساسيا من المخزون المدني العمراني.

---

[1] - انظر: لقاء أجريته مع المهندسة سلمى سمر الدملوجي ، صحيفة الأيام، 13 مارس 2000م. (بتصرف وإضافات).

(5) الترويج للحد من البناء بالاسمنت والبلوك (البَردين)، ووضع السلطة المحلية أمام مسؤليتها من خلال وضع رخص للبناء لتفادي البناء العشوائي والعفوي على أن يتم ذلك بشكل هادئ ومقنع.
(6) وضع لجنة استشارية في التصميم والبناء لحل بعض المشاكل الوظيفية والجمالية تكون في خدمة الأهالي وأصحاب البناء - ولتشرف على مراعاة الضوابط وتساهم في تطوير نمط العمارة اليافعية وإدخال أشكال التحديث ووسائل أو متطلبات المعاصرة، من حيث تصميم المكان الداخلي والتقنية، دون أن تتحكم التقنية الحديثة وموادها بقلب وصميم الهيكل المعماري الأصلي.
(7) وضع الدراسات المتعلقة بدفع المستوى المعيشي في التجديد الحضري ومشاريع البيئة التحتية واستقطاب التمويل والدعم لتنفيذها (وأهمها مشروع وحدة للمجاري والخدمات الصحية وإمدادات التصريف والمياه).
(8) استقطاب الدعم والتمويل لإنشاء المراكز والخدمات الاجتماعية والتأهيلية والتثقيفية المطلوبة للمدن والقرى.
(9) لفت انتباه الجامعات ومراكز الدراسات إلى أن تسهم بقسطها في فتح تخصصات لدراسة العمارة التقليدية، كجزء من حل هذه الإشكالية ، وستؤدي مثل هذه الخطوة إلى تطوير الأنماط المعمارية مع الحفاظ على الهوية والخصوصية المحلية ودون المساس بجمالياتها أو القضاء عليها.
(10) السعي للفت انتباه المنظمات الدولية لادخال تراثنا المعماري الفريد والعريق ضمن قائمة التراث العالمي، وتبدو حصون القارة وبعض القرى القديمة مثل (ذي صُرأ).مهيأةً للدخول ضمن قائمة التراث العالمي، غير أن الأمر يتطلب بذل مزيد من الجهد لتحقيق ذلك، وفي المقدمة تكوين وعي محلي لإزالة ووقف التشوهات الحاصلة التي يحدثها البناء الإسمنتي وعدم تركها مهملة ومعرضة للانهيار.

وختاما أذا ما توفرت القناعات وساد الوعي بين الناس بأهمية الحفاظ على هذا النمط المعماري الفريد وخصوصيته المتميزة، فأنهم سيتنافسون ليس فقط في ترميم القديم والحفاظ على معالمه الجمالية كتراث معماري، بل وفي تشييد المعمار الحديث ضمن شروط تحفظ الأصالة وتضفي المعاصرة، بحيث يكون هناك تجانس بين القديم والجديد والحفاظ على أصالته بثوب عصري.

ملحق خاص

المَعْوَن

المَعوَن، من العَوْنُ، أي الظَّهير على الأمر، وهو شكل راق من أشكال التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع، تجسيداً لقول النبي الكريم :"وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ".

وقد كان نظام التعاون المعروف بـ(المَعْوَنْ) شائعاً وعادة متبعة منذ أزمنة قديمة في مختلف مناطق يافع ، يُعمق ويُرسخ قيم التعاضد الاجتماعي التي لا غنى عنها في ظروف الحياة الصعبة وقساوة الطبيعة الجبلية لمناطقهم. وكانوا عن طريق (المَعْوَن) يساعدون بعضهم البعض في كل الأمور التي تحتاج لتعاونهم.

ومن ذلك بناء البيوت، فقد كان من يحتاج للمعونة في تشييد منزله يلجأ أساساً إلى أصحابه وأقربائه وأهل قريته، فيحصل على مبتغاه، وفي ضوء ذلك فأنه لا يهم عند بناء مسكنه إلاّ أجرة البناة المتخصصين من "آل بن صلاح" الذين توارثوا حرفة البناء، أما العمال فهم من الأهل والأصحاب والجيران الذين يبادرون للعمل، وحتى أكلهم يكون من بيوتهم إذا تطلب الأمر ذلك. فيقومون بمساعدة صاحب الحاجة في نقل الحجارة من مقالعها (المناقيش) بما في ذلك الأحجار الكبيرة والأعمدة الحجرية المُستطيلة(السّحَابيل) وصفائح السقوف الحجرية (الصَّلأ)، وكذا الأخشاب(الحلَّهْ) من أماكن تواجدها في الأودية أو الشعاب، سواء على حميرهم أو حتى على ظهورهم. ومن جانبه فأن صاحب البناء يحتفظ بكل مساهمة أو مساعدة قدمت له في ذاكرته دون الحاجة لتدوينها ليرد لهم هذا الصنيع عندما يقومون في المستقبل ببناء بيوتهم الجديدة.

ومن الأصوات الجماعية التي كانت تُردد أثناء (المعْون) بهدف تحفيز الناس على العمل وشحذ الهمم قولهم: "ألا يا وارد الما.. حل الواردية". أو قولهم: "وينهم ذي ما يخافون.. وين حمران العيون". يقول الشاعر صالح حسين عويضان في زامل له في (مَعْوَن):

قال المصنف عانكم يا أهل الشنع ... ذي من طلبكم للحُوَايَه تعجبوه

والقَبْيَلَه مَاحَدْ مِنْ الجَوْدَه رَجَع ... كلاً بيتبع قاعدة جَدَّه وابُوه

ويمكننا القول أن القرى اليافعية القديمة بحصونها الضخمة ومساجدها وقبابها ومآذنها، وكذا حفر وتشييد خزانات المياه وبناء المدرجات الجبلية الزراعية وأنظمة الري، وحفر الآبار ومنشآتها الملحقة، وبناء الطرق الجبلية المرصوصة بالحجارة (نقيل"ج" نِقْوَل)التي كانت تربط مناطقهم وتمر فيها قوافلهم، وغير ذلك من المنشآت العامة قد كانت ثمرة رئيسية لمبدأ التعاون والتكافل المعروف في يافع بـ (المَعْوَنْ). فضلا عن نجدة الناس لمساعدة من يتعرضون لكوارث السيول التي تجرف مدرجاتهم الزراعية أو تلحق ضررا كبيرا ببيوتهم، حيث يبادرون من تلقاء أنفسهم، وبروح الفريق الواحد، لاصلاح تلك الأضرار سواء في البيوت أو في المدرجات الزراعية..الخ. وكان التعاون والعمل الجماعي ظاهرة تطغي على كثير من شئون حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، فكانوا يتعاونون في مواسم البذار والحصاد وفي مناسبات أفراح الزواج وفي استقبال الضيوف الوافدين وتقديم واجب الضيافة لهم.

وأتذكر، والكثير من أبناء جيلي، كيف كان تعاون الناس، بعد الاستقلال الوطني عام 1967م في شق طرق السيارات بوسائل يدوية، وبفضل جهود وتعاون المواطنين دخلت السيارات لأول مرة إلى مناطقهم وربطت معظم قراهم، كما كانت المدارس الكثيرة التي شيدت في تلك الفترة ثمرة إيجابية لتعاون المواطنين.

وللأسف الشديد أن فعالية هذا الشكل الهام من التعاون قد بطلت - إلاّ فيما ندر- بفعل التحولات الاقتصادية والاجتماعية وتحسن أحوال الناس المعيشية، بحيث أصبح أمر البناء وغيره من الشئون الاقتصادية والاجتماعية شأناً خاصاً يهم الفرد ولا يعني الآخرين، وحُرم الفقراء وذوي الدخل المحدود، من فائدة هذا الشكل التعاوني الهام، واقتنعوا، على مضض بالعيش في بيوتهم القديمة المتهالكة، ومواجهة مشاكلهم المعيشية فرادى. وينبغي التأكيد على أهمية تفعيل هذا المبدأ التعاوني الهام الذي كان سندا وعونا لآبائنا وأجدادنا في كل الظروف، وما أحوجنا إلى بعثه وإحيائه لتعميق أواصر الألفة بين أفراد المجتمع وخلق روح التعاون فيما بينهم ونجدة الفقراء وذوي الحاجة.

من أغاني البناء

يصدح البناة ومعهم العمال بأهازيج ومواويل واصوات متعددة أثناء قيامهم بعملهم، بغرض الترفيه والتسلية من عناء التعب وكسر الملل والرتابة، وشحذ هممهم وتقوية عزائمهم وتحفيزهم لمواصلة أعمالهم دون فتور أو كسل، أما الكلمات التي يرددونها فهي غير محددة، فهناك أبيات للطرافة وأخرى للمزح وثالثة لطلب شيء من صاحب العمل، لكن لا بد أن يستهلون أعمالهم صباحا بالدعاء إلى الله أن يعينهم ويجعل يومهم يوم فرح، كقولهم:

يــــاالله اليــــوم عــــاون مـــن سرح   يطلـــــب الله مـــــع المتـــــوكلين

واجعلـــه يومنـــا يـــوم الفـــرح   والعـــــذاب انزلـــــه عالمـــــشتركين

أو قولهم يحمدون الله بعد كل وجبة طعام :

الحمـــــد لـــــك وازن جبالـــــك   مـــا ســـبح الطـــيري بريـــشه

والارض لـــــك وكـــــل شي لـــــك   ماهل مَعَ ابن آدم معيشه

كما يرددون أبيات فلكلورية ، لا يعرف قائلها، يبدأ مطلعها بـ(قال بدّاع) ، كقولهم:

قـــال بـــداع مـــن حـــب المـــره   حبتـــه واتـــسوي لـــه لحـــوح

وان كرههـــا ومـــاشي حبهـــا   طولـــة الليـــل باتجحـــه جحـــوح

وقولهم:

قـــال بـــداع وا عمـــه حليمـــه   رُبعـــيش مـــا يخـــارج عـــالثميني

وانْ بَغَـــيْش الجلاعيـــب الكبـــيره   فالـــشقا نـــصها لا ترخـــصيني[1]

أو قولهم على سبيل الطرافة والفكاهة:

منـــي ســـلامي يـــا بقـــرتي   يـــا ذي قـــرونش قابليـــة

يـــا ذي نطحتـــي الثـــور لـــسود   ردّيـــش راســـه باطنيـــه

وقولهم في مخاطبة هرة سوداء اللون (بَسَم/ عُسَن):

---

[1] - نسج الشاعر الكبير المرحوم شائف الخالدي قصيدتين أكمل بهما هذه الأبيات وتلك السابقة لها وهما من جميل قصائده.

الله يـــصبيك يالبـــسم لـــسود ذي لا لقـــي شي بالوعـــاء شـــله
كلـــن بيظهـــر صـــورته بيـــضا وانتـــه مُـــسَوِّد وســـط خلـــق الله

ومن الأقوال التي تردد أثناء البناء:

قـــال بـــداع ســـينا جهـــدنا وانهـــا قـــوم مـــاتعرف ســـبيل
بي فـــزع يأخـــذ الأمّـــه (بنـــا) وا يظلـــوا عـــل ســـيل النقيـــل

ومن أهازيج البنائين عند طلبهم للشاي:

هيـــا ســـبوله نجّحـــى شـــاهى قـــد مـــا معانـــا مِـــنُّش الاَّ هُـــوْهْ
البيـــت لـــوَّل حقكـــم واهـــى والـــركن مـــا يجلـــس عـــلى مـــا هُـــوْهْ

ومن الأهازيج الفكاهية التي تردد:

قـــال بـــداع وا رَبحَـــه ويـــش بلّـــيِّش مـــن طينـــى
بـــاطلش مـــا وصـــل رهـــوه وان معـــش سِنـــجْل روِّينـــى

وهذه أبيات تردد على شكل حوار بين نقاش اسمه (مشتهر) وباني اسمه (سقاف)، بدأ الباني بقوله:

وا مـــشتهر مَثِّـــل حجـــارك لا تجـــرش الـــدنيا جراشـــه
قـــد شي نَقَـــشْك أوَّل زمانـــك أو عادهـــا بـــدع النقاشـــه

فرد النقاش:

قـــال بـــداع واســـقاف خايـــل مـــد رجليـــك لا روس المنـــاره
الحجـــر واجـــده مـــلء الـــشوارع والبنـــاء مـــثلما ضِرك المـــداره

ومن أغاني البنائين، هذا الصوت وفيه نقد لصاحب البيت الذي لم يحسن إطعامهم:

منـــي ســـلامي يالحـــصون النايفـــه يـــا ذي بنـــوش أهلـــش عـــلى زيطـــي ومـــيط
الـــسمن مـــاشي والعـــسل مـــا نعرفـــه ماهـــل عـــلى شُـــحْرَه ونُـــشّاحي ســـليط

أو قولهم:

قـــال الـــصلاحي ليـــت لي شربـــه مـــن بـــير زمـــزم ذي في الـــوادي

والآَ غـصون القـات مـن شُـعبه　　خـلى عيـون النـاس قُهَّـادي

يـا ذاك خُـذ لـك بالنَّسَم عَجْبَـه　　والمـال لأهلـه وَيْـش بتقـادي

مـن الجبـل لا الحيـد لا الـوادي　　عـالزين بـالأرواح نتفـادي

ومما كانوا يرددونه من أهازيج، ما يشيد ببطولة المقاومة ضد الاستعمار البريطاني، كقولهم:

يـا طـايره عـلي بجنحيـنش　　مـن قـوم لعـور لا يـصيبونش

وايطرحـونش في خـلا خـالي　　ماحَـد تَخَـاتر بـا يـداوونش

ولعور، هو الشيخ علي معور الربيزي الذي قاد مقاومة رُبيز (العوالق) عام 1954م وقام سلاح الجو البريطاني بهدم منزله. وتخاتر، جمع تختر، وهي تحريف لكلمة دكتور (طبيب). وقد يتم ترديد أبيات عبارة عن لغز (محزاة) كقولهم:

يـا بـن صـلاح احزيـك مـن بكـره　　الـدِّين فيهـا والوضـو مـاشي

مـا تـشرب الا بالـسنه مَـرَّه　　وقوتهـا ذُبِّي وقـشاشي

وهذه محزاة أخرى:

يـا بـن صـلاح احزيـك مـن بكـره　　مـا مثلهـا بـالأرض طراشـه

عـاده سـببها لا ظهـر بـازل　　طـير الهـوى بيـنفض ارياشـه

ومما روى الزميل د.أحمد ثابت السرحي الذي عمل مطلع شبابه في البناء، أن الشاعر يحيى علي السليماني، رأى ذات مرة، الباني عبدالقوي بن ثابت السرحي يتباطأ في عمله مستغلا طيبة صاحب البيت (عبدالله علي) فقال:

عبـدالقوي بـن ثابـت البـاني　　سَـوّي لعبـدالله عـلي مَوْشّـق

يجلـس ثـمان ايـام عالـصفة　　مـن شـان يـتلحّم ويتمـرّق

فرد عليه الباني عبدالقوي ثابت السرحيَ:

يحيـى عـلي ذي جـي مـن المهجـر　　فـازع عليـه بالكهربـاء يحـرق

والبيـت لـوَّل حقّهـم واهـي　　عـا بـه سـنه وِن ذا بيتدقـدق

وعند قياس الباني للركن بالميزان (الخيط والحجرة) كانت امرأة ترى عورة الباني من الأسفل، لم يكن حينها وجود للسراويل الداخلية، فقالت له (الله الله دعلل الميزان سَواء) أي أنزله بطريقة سوية.. ففطن أحدهم لما تقصد وكان شاعراً فقال:

يـــا بـــن صـــلاح القـــيس وافي	كُـــن دعلـــل الميـــزان كلـــه
يـــوم العُـــسن ظلّـــه تمـــاثّي	أوبـــه عـــلى الجُـــرذي تـــشله

ورأى أحد الشعراء الباني عبدالقوي بن ثابت السرحي وهو منهمك في البناء فيما كانت أمامه امرأة جميلة تشاهد عمله، فقال الشاعر مشبها تلك المرأة بـ(الاتريك)أي مصباح الضوء:

عبـــدالقوي بـــن ثابـــت البـــاني	سَـــوّي حجـــار الباليـــه مـــشكيك
والنـــاس تنظـــرهن مـــن الـــشارع	وهـــو يبينـــيهن عـــلى الاتريـــك



بيوت حديثة في قرمش - الموسطة

البناء والبيوت في الأمثال الشعبية اليافعية[1]

1. **اِبْنِهْ بِحَجَرَةْ أرْضَكْ ولا هِيْ دَمِثِهْ:**

ويروى أيضاً "ولا هي جَرِزِه". ابنه: قم بالبناء. دَمِثه: رخوة. جرزه: صلبة وغير مستوية. أي أن الأفضل استخدام حجارة الأرض القريبة في البناء مهما كانت. يضرب في تفضيل الزواج من القريبات. ومثله قولهم:"حجرة أرضي ولو هي دمثة".

2. **اِبْنِهْ لَكْ في كُلْ وادي دار، وبِكُل قريه بيت/ إعْمُرْ لك في كُلْ وادي دَار:**

ومعناه اجعل لك صديقاً في كل مكان تؤمه.

3. **إخْتَسَفْ مِنْ حَيثْ الوَثِيقْ:**

أي، انهار السقف من حيث لا يتوقع.

4. **إسحَبْنِي لا حَيْثْ سِحِبْتْ أبي، قال: عَادْ لك صَرْحَهْ:**

وحكاية المثل: أن رجلاً كان يسيء إلى أبيه وكان يسحبه إلى أسفل سلم البيت، فلما كبر ذلك الرجل عامله ابنه بالمثل، فتذكر في لحظات ضعفه قسوته التي كان يعامل بها والده، فشعر بالندم، وحين توقف ابنه عن سحبه في منتصف المسافة التي كان يسحب بها والده، قال له ذلك المثل عله يكفر عن ذنبه، فكان جواب الابن: باقي لك صرحه، أي ثلاث درجات. والمعنى انه كما تعامل والديك سيعاملك أولادك.

5. **الخَشَبَهْ العَوجَا بيسُوها بالسِّفِلْ:**

بيسوها: يضعوها. السفل: حظيرة الحيوانات. يضرب في الدنيء والسافل لا مكان له بين الجماعة،وكذا الفتاة سيئة السمعة التي لا تجد من يقبلها إلاّ من كان على شاكلتها.

6. **ألَقَهْ مِسْجِدْ:**

الألقة: الغلقة، قفل خشبي ومفتاحها خشبي أيضاً، وكانت ألقة المسجد تفتح بسهولة لكل من يؤم المسجد للصلاة. كناية عمن لا يوثق به في أمر أو سِرّ.

---

[1] من كتابنا (الشائع من أمثال يافع) وقد صدر بثلاث طبعات

7. اَلْقَهْ خَارطي مارطي:

خارطي مارطي: صفة للقفل الخشبي المتهالك أو الرديء الذي لا يتصف بالمتانة والقوة ويسهل فتحه بغير مفتاحه.

8. انْ عَايدْ الرُّكْنْ مِثْلَهْ والاّ كَذَبْ كُلْ بَاني/ ما رُكن الاّ بعايد:

عايد الركن: الحجر التي تأتي بجانب حجرة الركن وتكون متناسقة معها وامتدادا لها من الجهتين. يساق للحث على توازن الأمور.

9. أهْلِيْ أهْلِيْ ولو مِرْدِمِيْ مِنْ ذَهَبْ:

والمعنى أن المرأة لا غنى لها عن أهلها مهما بلغ الثراء في بيت زوجها.

10. بَانِيْ الوَيْلْ رَدْ البُطَانَهْ ظُهَارَهْ:

أي ان البنّاء السيء لا يميز بين أحجار الظهاره الجيدة والمستوية وبين أحجار البطانة الأقل جوده. يضرب لمن تختلط عليه الامور والمقاييس فلا يميز الغث من السمين ويقلب عاليها سافلها.

11. بداية السَّاسْ مِيضَار:

المِيضَار: أحجار صغيرة تستخدم لإسناد الأحجار الكبيرة في البناء. يضرب لعدم الاستخفاف أو الاستهانة بالمساعدة القليلة، أو الشيء الصغير الذي له منفعة كبيرة.

12. بنت العَمّ نَزَلَهْ من عالْهِدِهْ:

الهده: مصطبة تستخدم للنوم في البيت اليافعي. أي أن ابن العم أولى بالزواج من ابنة عمه، ولا يجوز تزويجها لغيره إلا إذا رغب عنها هو، حسب العرف القبلي.

13. بيت البَاني خَرَابَهْ:

أي أن صاحب الصنعة يتجه بعنايته إلى إتقان ما يقوم بعمله للغير طمعاً في الكسب المادي، ولا يهتم بما يعمله لنفسه. يضرب لمن يهتم بأعمال الآخرين ويهمل العمل الخاص به.

14. البيت: مَرَهْ وبقره ومَدْفَنْ ذُرَهْ:

أي أن أساس الأسرة السعيدة: المرأة الصالحة والبقرة المدرة للبن، وحبوب الذرة كمادة رئيسية للتغذية.

15. البيت مَعْمُور بأهله:

16. بيتي بيتي وَا سَاتِر عَوْرَتِي:

أي أن المرء في بيته يستطيع أن يستر نفسه بالقليل أو الكثير. والمعنى أن اعتزال الناس عند اللزوم مغنم وسلامة. ومثله قولهم: "البيوت أسرار".

17. جرذي الحَرَّه اخرج جرذي الخَلَّه:

الخلة: مخزن صغير داخل المنزل لحفظ المؤن. يضرب في من ينتهك أو يسلب حقوق الآخرين أو يحتل مواقعهم بدون وجه حق.

18. حَجَرْ وجَرَّهْ صَفَّهْ:

يضرب في تكاليف البناء، والمعنى ان حجرة واحدة تؤدي إلى بناء صف من الحجارة.

19. الحَيْد مَحْجَأ والبيت مَنَجَا:

مَحْجَا: مترس. منجا: من النجاة. والمعنى أن البيت هو المكان الآمن لصاحبه.

20. الخَلَلْ مِنْ الخَلَّهْ/ ما يجي الخَلَل الاّ من داخل الخَلّه:

الخلّه: مكان صغير محكم الباب لحفظ الأشياء في البيت اليافعي. والمقصود أن مصدر مشاكل الأسرة من داخلها.

21. دجاجه باضَهْ بغير المَدَجْ:

يضرب لمن يضع الشيء في غير موضعه.

22. دَيْمِهْ قَلَبْنَا بَابَهَا:

الديمه: المطبخ، يضرب للأمر يتغير شكله مع بقاء جوهره.

23. الدهر كله عماره متى يكون السكوني:

ويقال: الوقت كُلَّهْ عِمَارَهْ مَتى يَكُوْنْ السّكُوْنِيْ ،والمعنى أن الإنسان لن يكف عن البناء والعمارة طالما بقي حياً يسعى.

24. ذِيْ ما معه تِلَا عَالباني يصْبُر على دقدوُقه:

تِلا: مقدرة. عالباني: على الباني، دقدوق: بناء عشوائي غير وثيق. والمعنى ان من لا قدرة لديه على تكاليف الجديد وجب عليه الاقتناع بما بين يديه.

25. رَدَّاعَه بالدِّير:

الدِّيْر: حضيرة الأغنام التي تأويها ليلاً. يضرب فيمن يظهر شجاعته على أهله.

26. سِفِلْ بَنْ عَمِّي ولا ديوان القاضي/ عَكم بن عمي ولا ديوان القاضي

يضرب في تفضيل ما تملكه على ما لدى الغير مهما اختلفت النوعية.

27. كُلّ بيت ويه مُطْهَار:

المطهار: مكان الطهارة في المنزل. والمعنى أن كل أسرة لا تخلو من سفيه أو شاذ عن الطريق السوي. ومثله قولهم:"بكل قبيله هبيلة".

28. كُل ديمه ولها باب:

الديمة: غرفة المطبخ. والمقصود أن لكل مشكلة حل.

29. لا تبيِّض دَيْمِهْ ولا تِنَقِّشْ عَجُوز:

يضرب لمن يُجمِّل ما ليس جميلاً.

30. لا ترْثِي على من بنا والاَّ تزوَّج:

31. لا ترثي على مَنْ قَبْقَب ولا على مَنْ زَبْزَب:

قبقب: كناية عمَّن يقوم بالبناء. زَبْزَبْ: كناية عمّن يقدم على الزواج. يستشهد بالمثلين في كثرة التكاليف التي يتطلبها الأقدام على الزواج أو البناء والعناء المرافق لهما.

32. لا تفتح ابواب العِمَاره حتى وَلاَ هِيْ مِدَارَهْ:

مدارة: حظيرة. يضرب في التحذير من الأقدام على مشاريع البناء مهما كانت صغيرة، لما تتطلبه من جهد وعناء وتكاليف باهظة.

33. ما حَدْ بيحْطُبْ مِنْ دَاخِلْ الدَّيْمِهْ:

يضرب فيمن يستغل أهله وأقرباءه أو يتكسب على حسابهم.

34. من إسْتَمَع المَرَهْ إدْخَلته الدَّيمه:

يضرب في التقليل من رأي المرأة والتحذير من الانقياد لها.

35. ما بَيْتْ بُنِيْ على صَلاَحْ:

أي لا يخلو كل بيت من المشاكل.

36. ما بَيْتْ عَابْ بأهْلَهْ:

المقصود أن الإنسان في مكانه عزيز وإذا حدث له مكروه فإن بيته لن يخذله ولن يكون إلا عوناً له.

37. مَا تِبْنِي الزَّريبه إلاّ الحَجَرْ القَرِيْبهْ:

الزريبة: حضيرة الماشية. أي أن البيت لا يصلح إلا بصلاح الأهل والأقرباء.

38. ما دَار إلا ويه هُدَار:

والمقصود أن كل بيت لا يخلو من متاعب.

39. ما يخرَب البيت إلاّ من البطانَه:

البطانة: حجارة المنزل من الداخل وعكسها "الظهارة". يضرب في عواقب المشاكل الداخلية.

40. مَفْحُوسْ مِنْ عَلى المَطْرَقَهْ:

مفحوس: مهذب. من على المطرقة: أي مرَّت عليه المطرقة كالحجر التي شذّبت وغدت جاهزة للبناء. يضرب للفتى الذي أحسنت تربيته وتنشئته.

41. من إسْتَمَع المَرَهْ إدْخَلته الدَّيمه/ من إسْتَمَع الدّجاجه إدْخَلته المَدّج:

المدّج: خم الدجاج. يضرب في التقليل من رأي المرأة والتحذير من الانقياد لها.

42. نُصْ السَّفَرْ مَرْدِمْ البَيْتْ/عسر السَّفَرْ مَرْدِمْ البَيْتْ:

أي أن الخروج من عتبة المنزل عبارة عن نصف السفر.

43. النَّقلْ مِنْ بَيْتْ لا بَيْتْ فقر سَنَهْ:

يستشهد به في الاستدلال على تكاليف الانتقال من سكن الى آخر.

44. وَاحِدْ يِبَنِي واعْشَرَهْ يَدُقُّونْ:

يدقون: يهدمون. يستشهد به عند كثرة من يقفون في طريق الإصلاح والبناء والخير، وقلة الساعين إليه.

45. يا ذِيْ بَدَاتُوا بالمَبَانِيْ خَتِّمُوا:

يضرب للحث على إنجاز العمل حتى نهايته.



ملحق الصور

أولاً: نماذج القرى والبيوت القديمة

حصون (رِيد) القديمة ، وتبدو خلفها قرية (جروة)



حصن فيئان - قود الاعصار



قلعة (الصومعة) القديمة مع ملحقاتها ومسجدها القديم



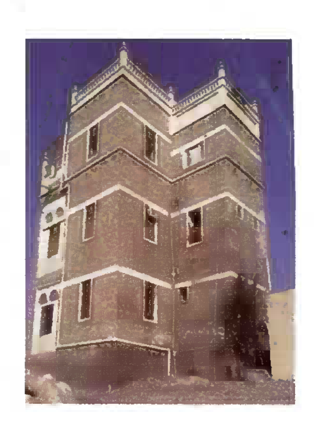
بيت قديم – ذي صُرا




حصن مرفد القديم: شاهد تاريخي على المواجهات مع جيوش الدولة القاسمية




بيوت قرية (وعلان) ومسجدها القديم - رُصَد

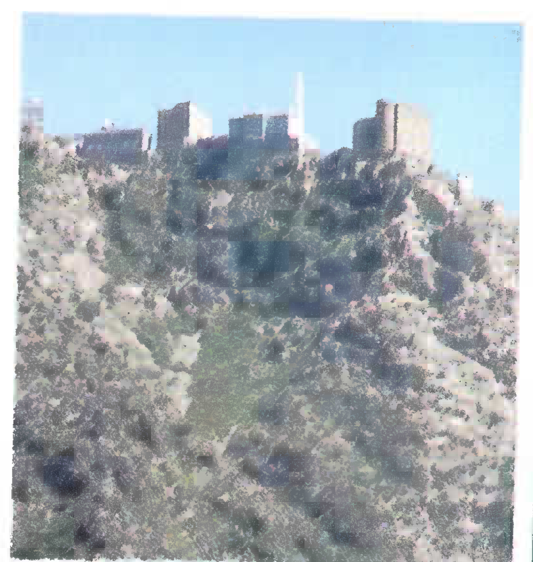

قصر السلطان العفيفي في حصن يافع الساحل ، ومنارة مسجد الحصن




قلعة قرية (نعمان) القديمة- السعدي



أطلال وبقايا قرية (خلوة بن عامر) ومدرجاتها بعد أن هجرها سكانها




دار الوطحي القديم ، قرية خيران



حصون السويداء القديمة المهجورة تشمخ في أعلى قمة الجبل

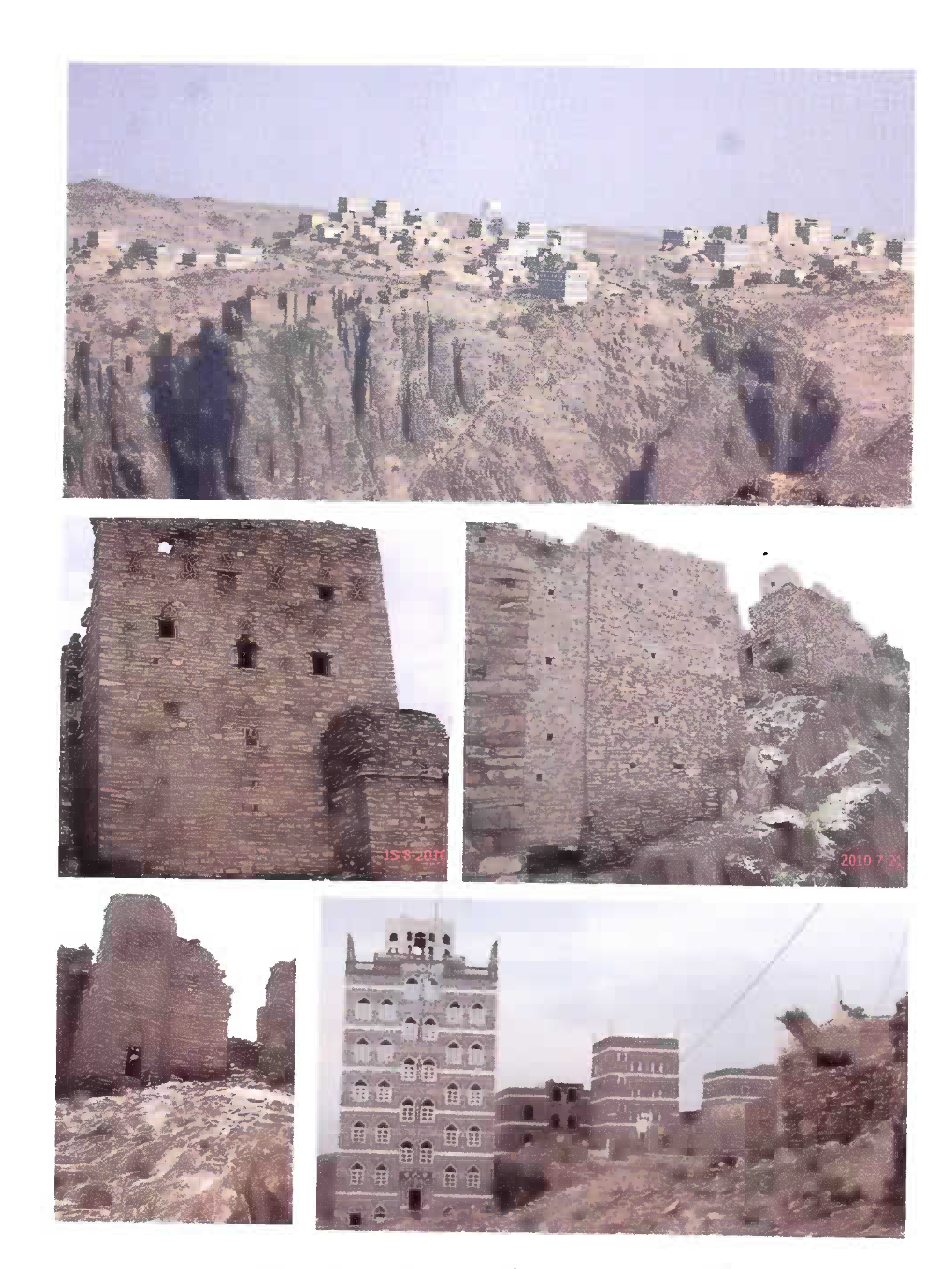






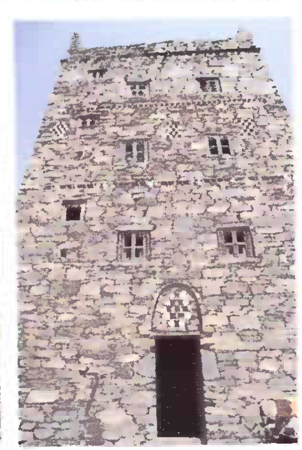
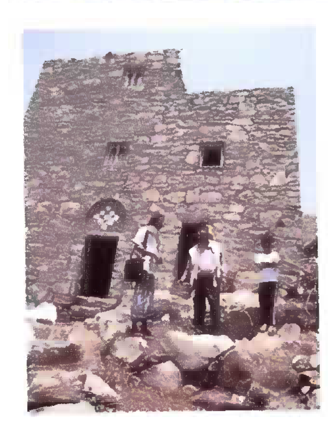



عبق التاريخ وتجدده: فلسان القديمة - قصور وفنون وزخارف



شرف أوسان، بحصونها الأثرية المنيعة في حافة الجبل



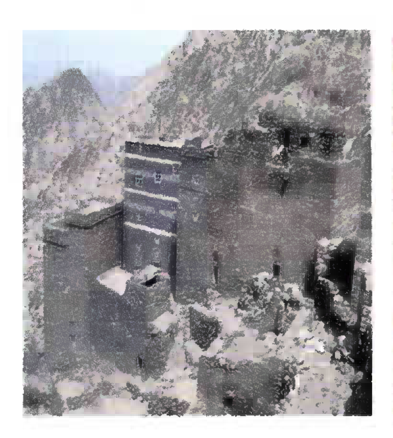

الصورة الأولى (أطلال جبل آل سالم) موطن قبيلة آل سالم وبقية الصور مساكنهم في (شعرة)



بيوت قديمة وزخارف خارجية وداخلية من معقل معلمي البناء (آل بن صلاح)



إحدى قرى بلد أهل الحيد - الحد



حصون حُيق- القعيطي خالية من السكان



حصون الحوثرة القديمة- الصّيرة



بقايا بيت العفيف في الصيرة



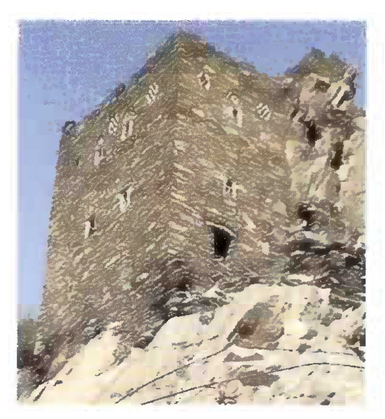
قلعة (القُدّام- حِلبد)



بيت آل عاطف القديم- خلاقة



الجزء القديم من (غيل آل فلاح - الحد)



دار الحاصل - حمومة



دار قديم - آل عياش



حصون (آل أحمد) القديمة



(قرية المغرأ) القديمة مع مسجدها الحديث



دار الكدحاء - حمومة



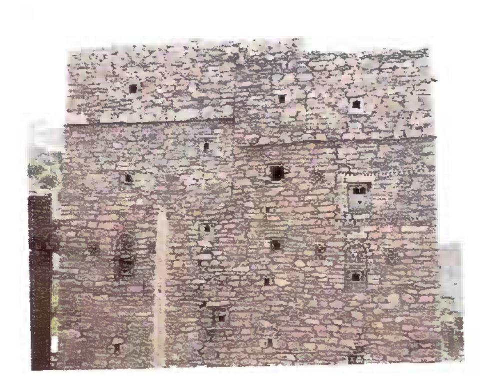
بيوت قديمة في قرية (الشّرف- جبل اليزيدي)



القصران: الزاهي والباهي – تي اللّب



أطلال المِشراح – مسجد النور



بيت السيد في قرية النجد – العياسى



بيت قديم-عثارة



حصون سَلفَة القديمة





بيوت قديمة من قرية (آل عَمْر) - لبعوس(في الأعلى)

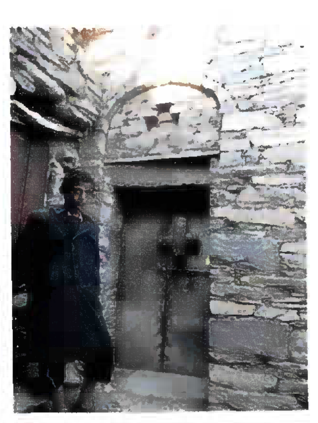




الديوان بحصنها القديم ونقش المسند الحميري في الحجر الذي عثر عليه في مسجدها القديم







إلى الأعلى: حصن الحد- المحصّن بناطحات السحاب الحجرية ، وفي الأسفل (قرية قريظة)





كُمّيت القديمة ومسجدها بعد تجديده، وفي الأسفل دار قاضي يافعين بن عزالدين البكري







داران قديمان من شعب البارع



دار سَيلان- معربان

ثانيا: صور مدن وقرى متنوعة



قرى تعانق السحاب: لكمة الوطح (في الأعلى) وجَبَل مُحَرَّم (في الأسفل)









مناظر عامة لمجموعة مدن وقرى لبعوس- الضُّبَيّ







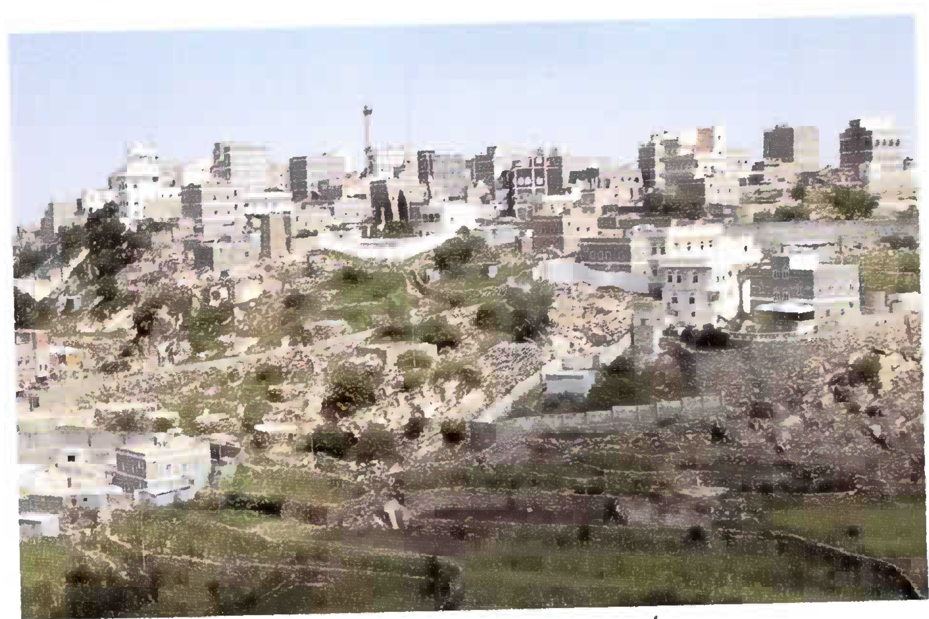
آل عمر والهجر- ناطحات سحاب من حجر



(عَبَر) بعمرانها الذهبي اللون تتداخل مع (الخربة) وقرى السعدي في لوحة معمارية بديعة



مجموعة قرى وتبدو (الطّف) ببرجيها المتميزين



القُدمَة – حاضرة مكتب الموسطة



عَرهَل- بقصورها الشاهقة



الخشناء – جبل موفجة – كلد



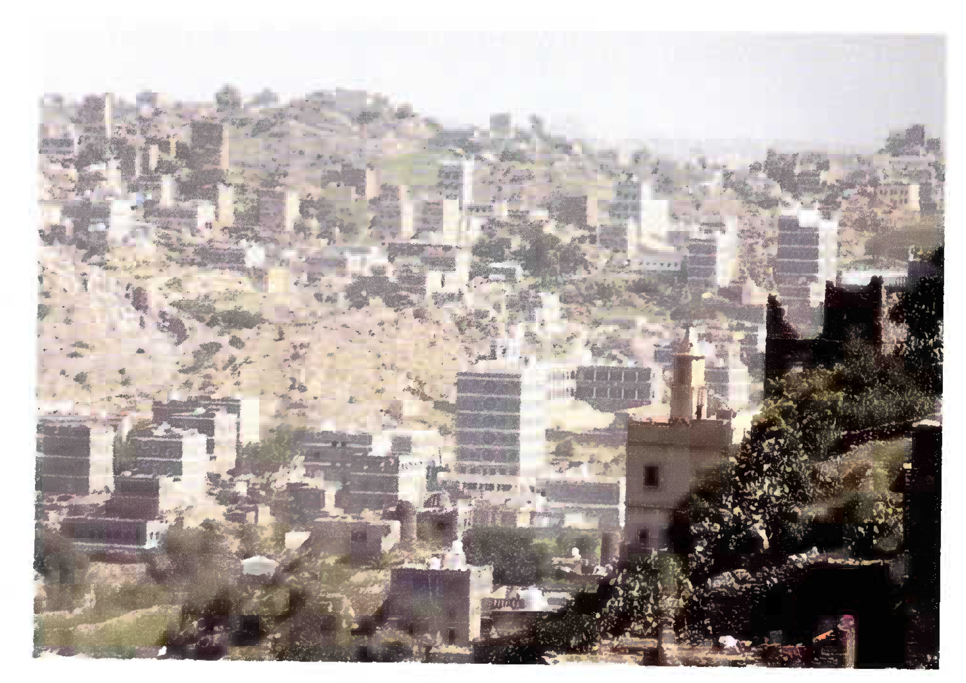
الجيهلي- جبل موفجة، وتبدو المدرجات الزراعية



قرية حُقبة - بني علسي من قمة الحُقَب



تي اللب - وادي الخضرة والجمال

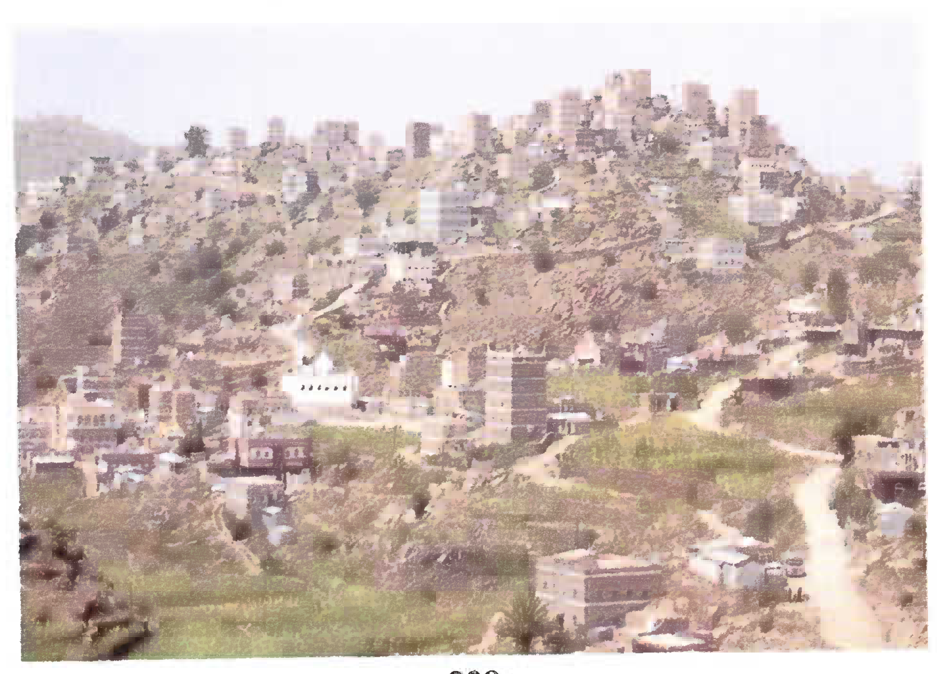


دور وقصور معلمي البناء اليافعي - آل بن صلاح





الجَربَة- حاضرة مكتب المفلحي





في الأعلى: المصنعة - الموسطة مع عرهل، وفي الأسفل: المصنعة -السعدي مع مسجد السبعة





التّعنِقة – شعب العرب



قدرة آل سعيد– ويبدو في الأفق جبل الشبر بالمفلحي






لقطات متنوعة من حصن الحد - ومنظر عام من قمة جبل العُرّ



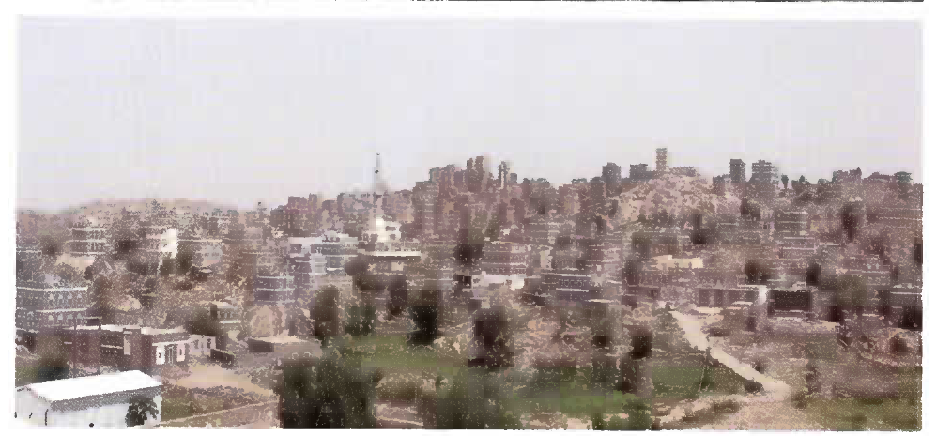
المُوجس ، وقرى الرباط وآل بن صلاح



قريـة الصّيرة (الحوثرة)







مناظر من مدينة بني بكر، كبرى مدن يافع، من جهات مختلفة







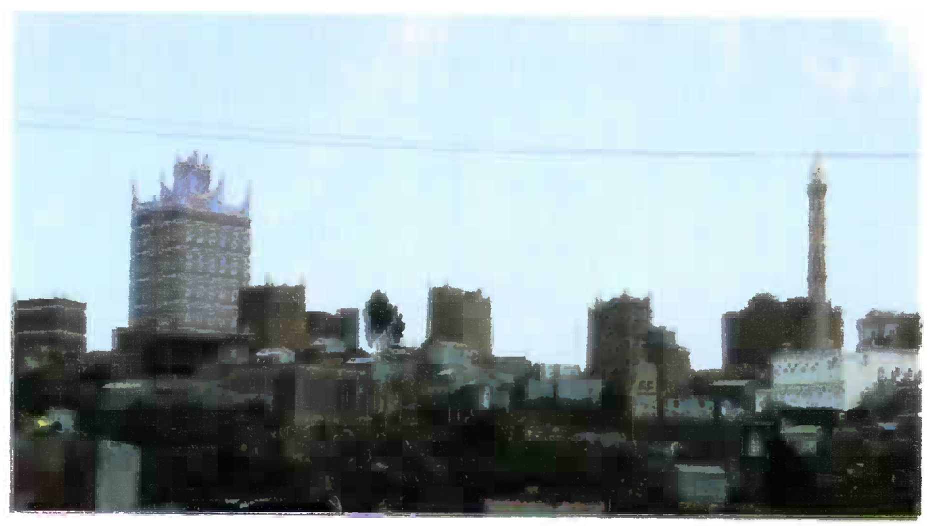
المُغرأ وآل أحمد وآل منصور – لبعوس

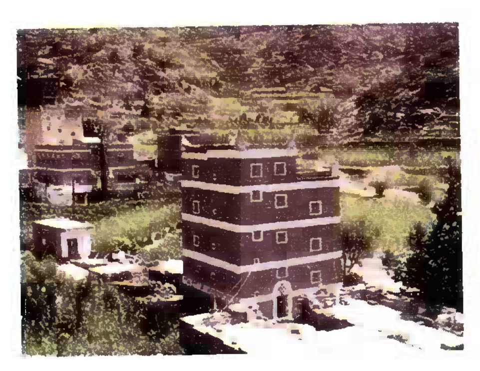



لقطتان لقرية (تِي كَبَابَة) وتبدو في الثانية وهي تسبح في السحاب

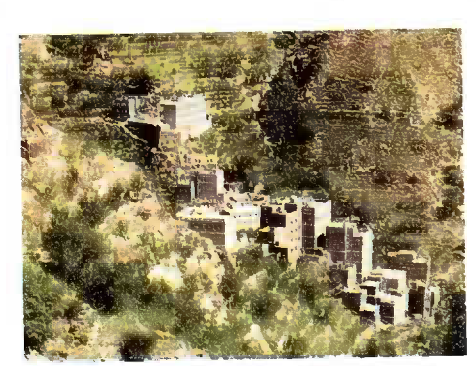



بعض قرى جبل اليزيدي



حالة المطري - المفلحي

صورتان لقرية (تِي الحُلي) من جهتين مختلفتين

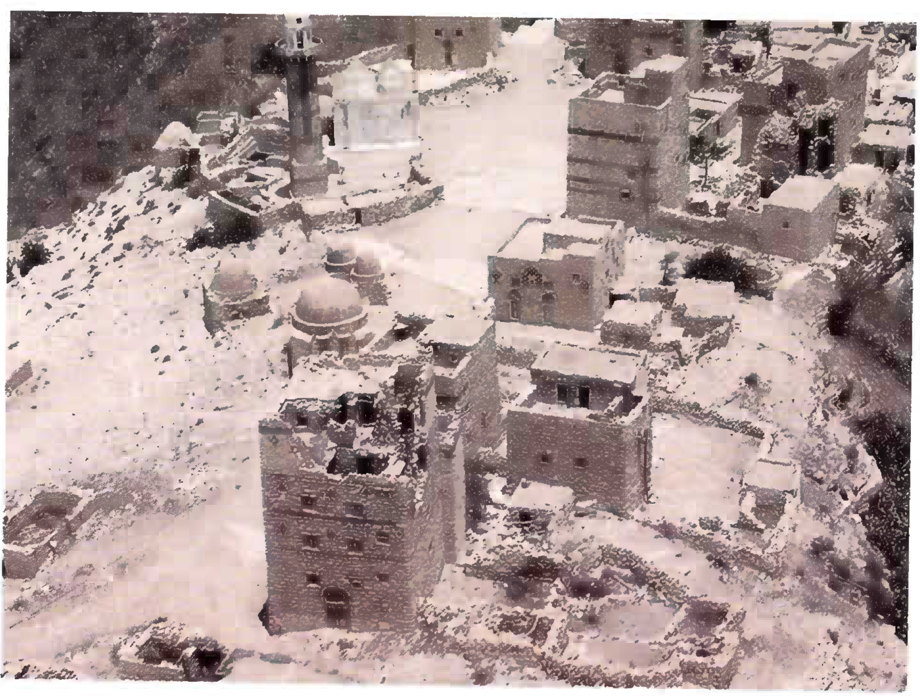


قرية الحواشب- مشألة

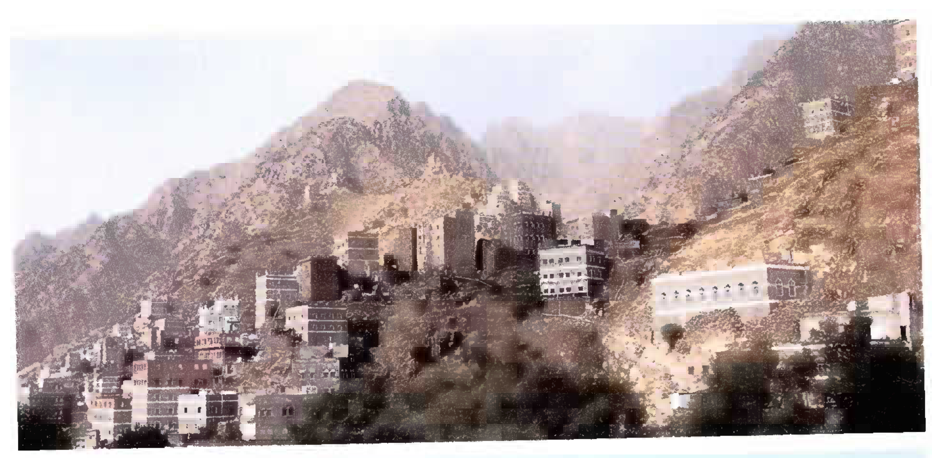


لكمة بن دَعبَان - شعب العرمي





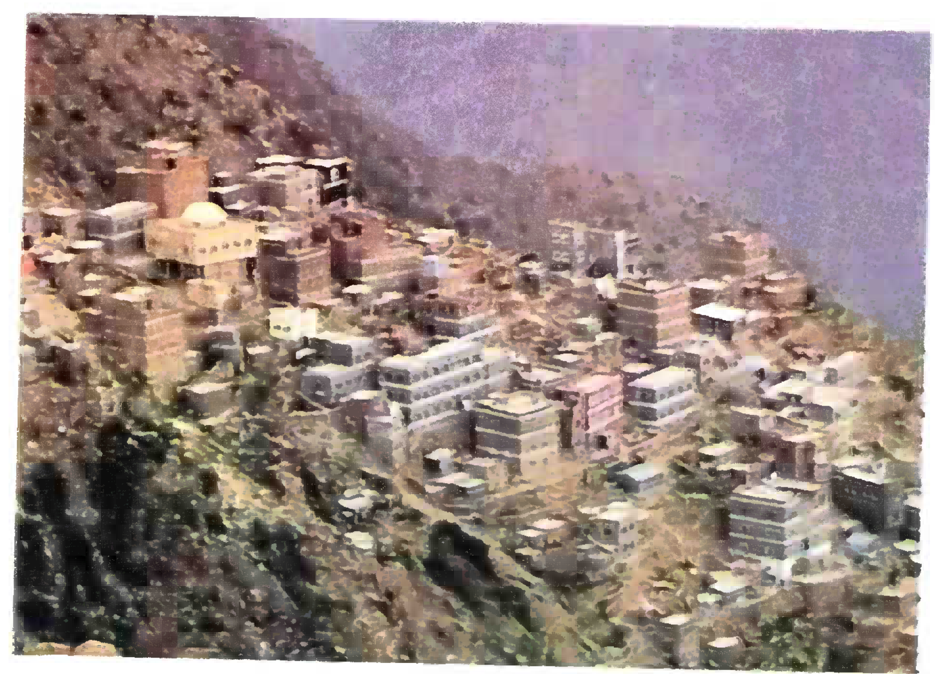
حصون القارة التاريخية تنتظر الاهتمام بها قبل فوات الأوان







جبال شامخة وبنيان أكثر شموخاً - بعض قرى وادي يهر



في الأعلى: لَعدَان آل عبادل ، وفي الأسفل: بيوت آل بن جرادي





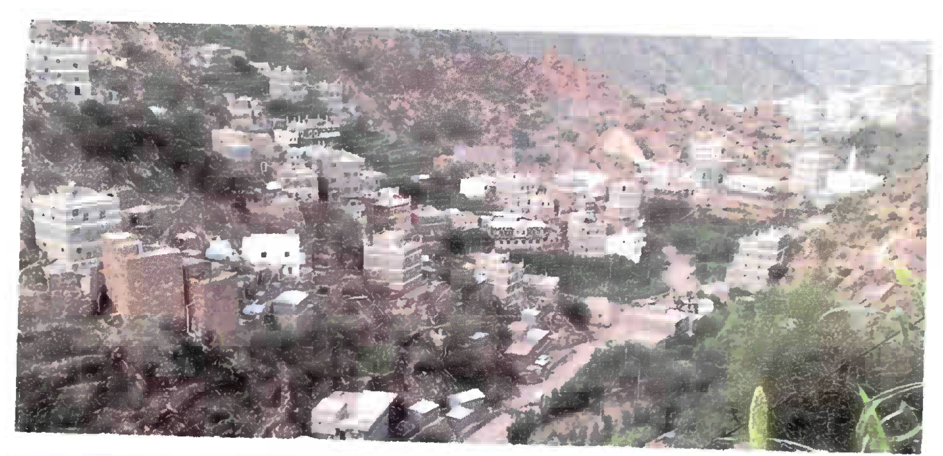
قرية (عَبَر*) - السّعدي

(عَبَر)..فاتنةٌ رداؤُها التِّبْر
تَسْبِي الألبابَ .. تَخلُب النَّظر
صرتُ أسيرَ حُبّها ..بلا مَفر
حين رأيت وجهها النَّضر
بعد اغتسالها بزَخَّات المطر
مُشرقةٌ..زَهيّةٌ..كأنَّها دُرَر
يا (جار) قل لهم فحوى الخبَر
(عَبَر) .. تَسُرُّ من رأى ومَنْ عَبَر
لله دَرُّ كُلّ مَن سَكَن ومَنْ عَمَر

علي الخلاقي

عبر.. موطن البناة المَهَرة(آل السرحي) الذين أبدعوا هذا المعمار الجميل والأصيل ويبدو جبل(جار) شامخا يحتضن ابنته الجميلة التي نَمَت من صُلب حجارته (الياجور) المميزة بلونها الذهبي البهي .







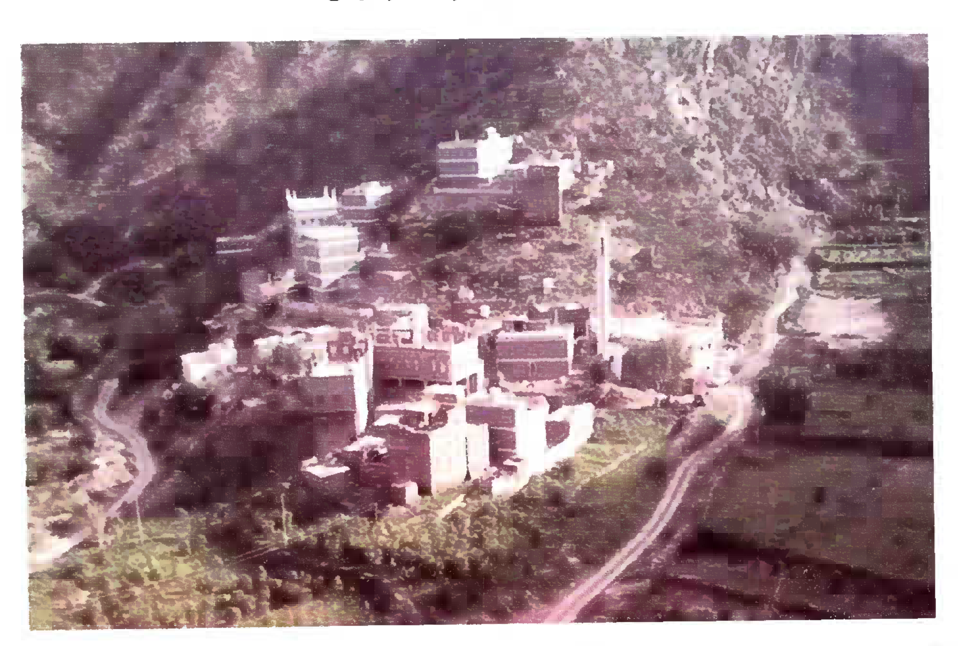


في الأعلى: قرى وادي حمومة ، وفي الأسفل رقصات شعبية في (شعب العرب)





آل بن متّاش- سِيَل لبعوس



آل الحذيفي- السّيَل



دارا (الشابح والمشتبح) أعلى السائلة، موطن الشاعر صالح سند والحكيم سقاف بن علوي



الغرّاء – الجبل الأعلى (لعلي)



الحمراء – ويبدو بيت الشيخ عمر قاسم العيسائي رحمه الله، وفي الأفق قرى الموسطة



قرية عمق

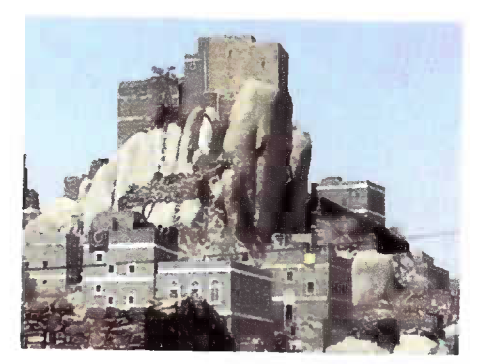


قرية الجمهة–العياسى





الغولين- العياسى




قلعة الفردة - الحد ، فوق جبل صخري منيع



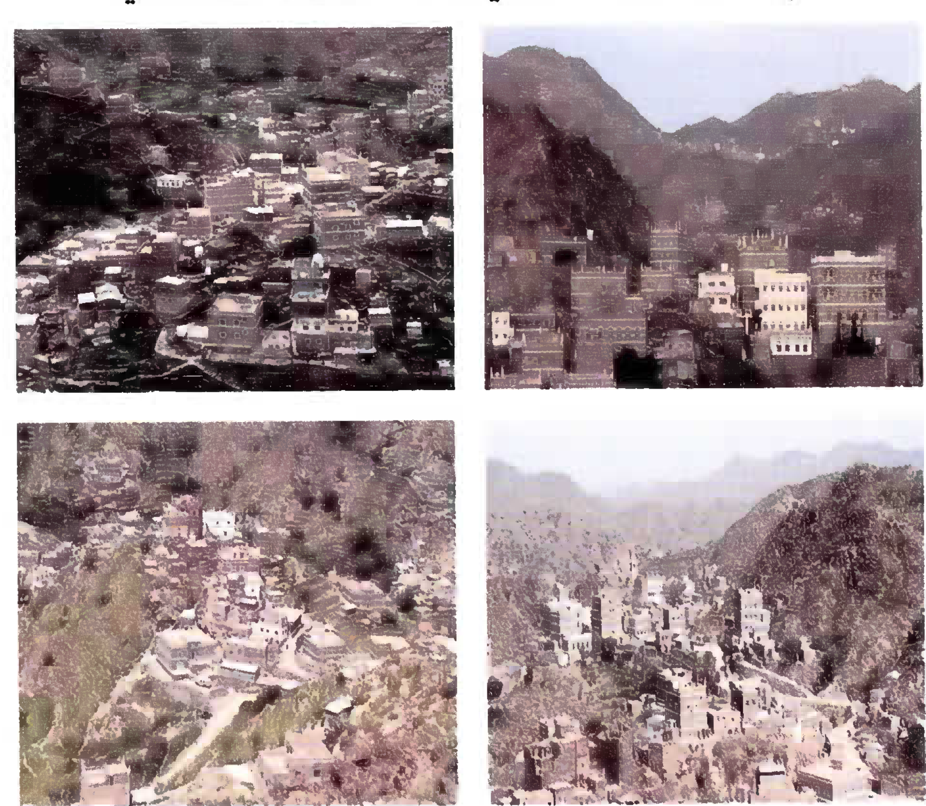
قرية الفيض - الحد ، وقت الشروق

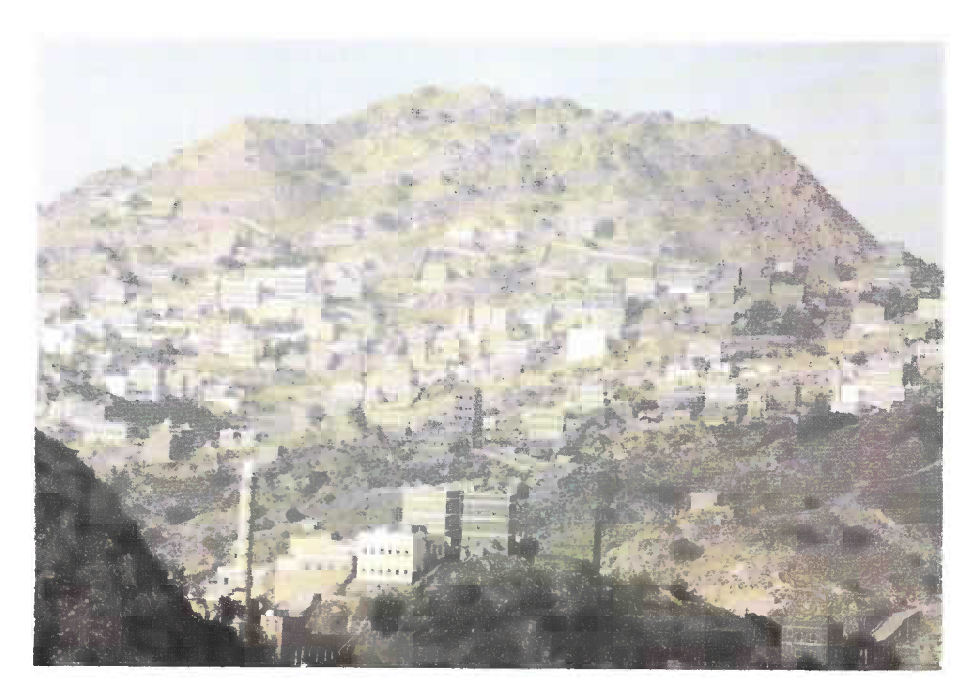


قرية العواكب - الحد ، وفي الأفق جبل العر



في الأعلى: قرية ناصر، وفي الأسفل بعض قرى شعب العرمي





في الأعلى: قرى القعيطي – من جبل أحرم ، وفي الاسفل بعض قرى لبعوس- من قمة حدّان



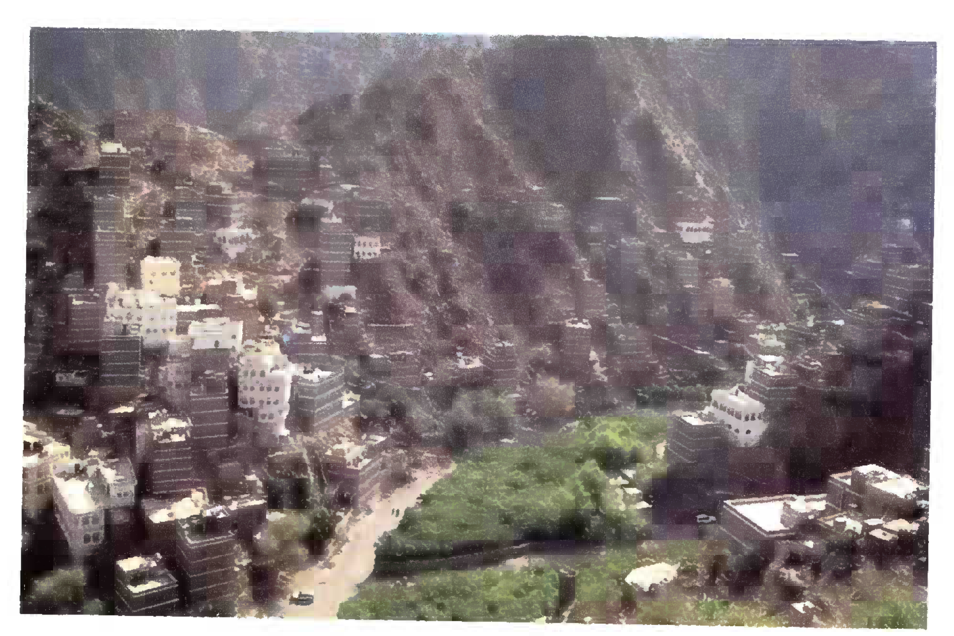


الشّبر - حاضرة مكتب الحضارم - يافع



ضَيئَان، أصلها (ذي غان) - الحضارم - يافع





الزفق – آل منصور – العرقة

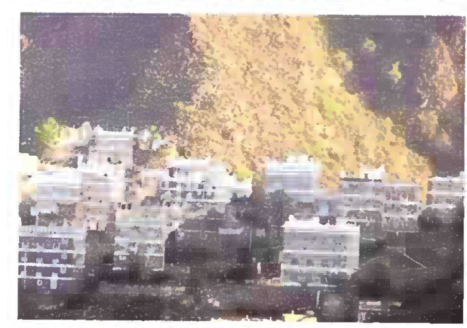


جزء من (جَروة)



الظّفر- جبل السعدي- نعوم-كسُومة- ظَلَمان (السعدي)







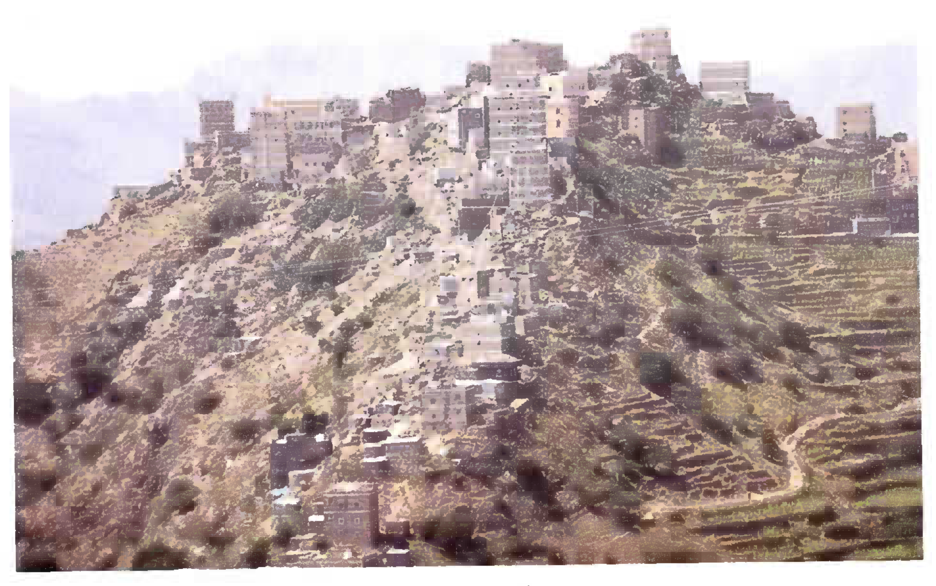




فَلَسان- السعدي، لقطات متنوعة



الوسط القديم من مدينة مَنفَرة- المفلحي



قرية نعمَان – المفلحي



آل يونس- المفلحي



قرية ظُهَال- المفلحي



طِسة - العَرقة - ذي ناخب



السّورَق- ديار آل القحيم - العرقة







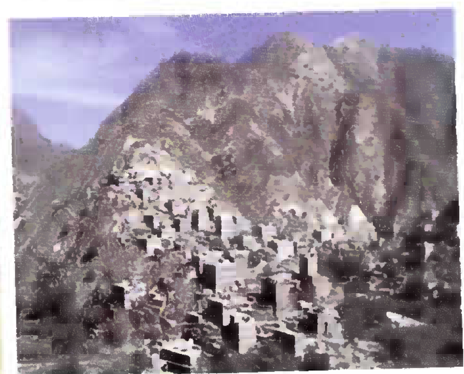
وادي العَرقة الخصيب- مجموعة قرى



قرية برء – الجديد يشمخ فوق القديم



آل النامسي- السّيَل



حُمحُمة – ذي ناخب



قصور (الشّسعَة)



قرية المضيق



نجد العياسى



سَهيلِة- العياسى وتبد و مد رستها متميزة بالنمط المعماري اليافعي





منظران من وادي حَطيب



قرية كِدَان - القعيطي



موكب زواج في (اللّم) القعيطي





منظر لشمسان وبيت البعالي وتبدو قمة ثمر الشامخة



امصَفحَة - جبل السنيدي

المحارس- سرار

امحَبلة

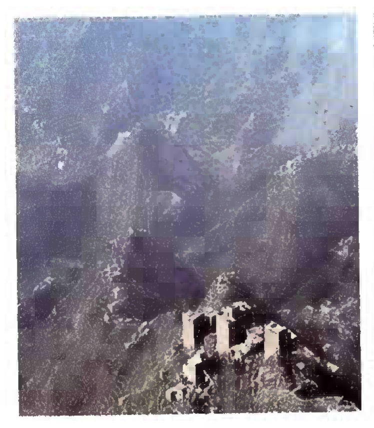
القفلة

العقبة - جبل موفجة

ذقار- كلد



قرى تتربع القمم: القيئمة - العُمَري



جبل محرم



حيد الجُبيري



قرية الفارس - كلد



جبل الحميري - الموسطة



جبل آل علي- كلد



المَهدَعَة وأجزاء من لقمر آل رُشيد ومسجد النور



منظر عام لعنتر وآل عياش (التقطت من مسجد النور)







مسجد النور– القديم والجديد، من اتجاهات مختلفة



لَكْعُوب-الموسطة



الأصابح- كلد



قرية الرّحبَة- وادي ضِيْك



ركب بن عفيف وتبد و الأصابح في القمة



الشهد – رخمة



شَقَصَة- كلد ويبدو وادي رخمة



شعب البارع- السعدي



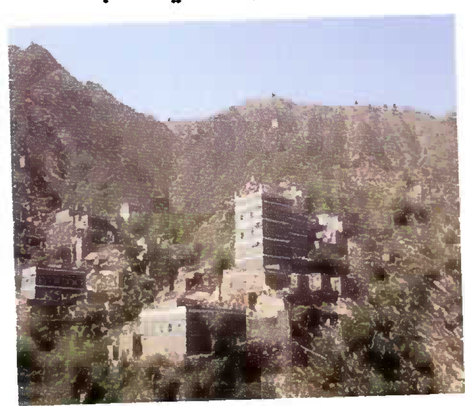
أسفل خيران وادي السمسرة- السعدي



قرية حَريب- ذي ناخب



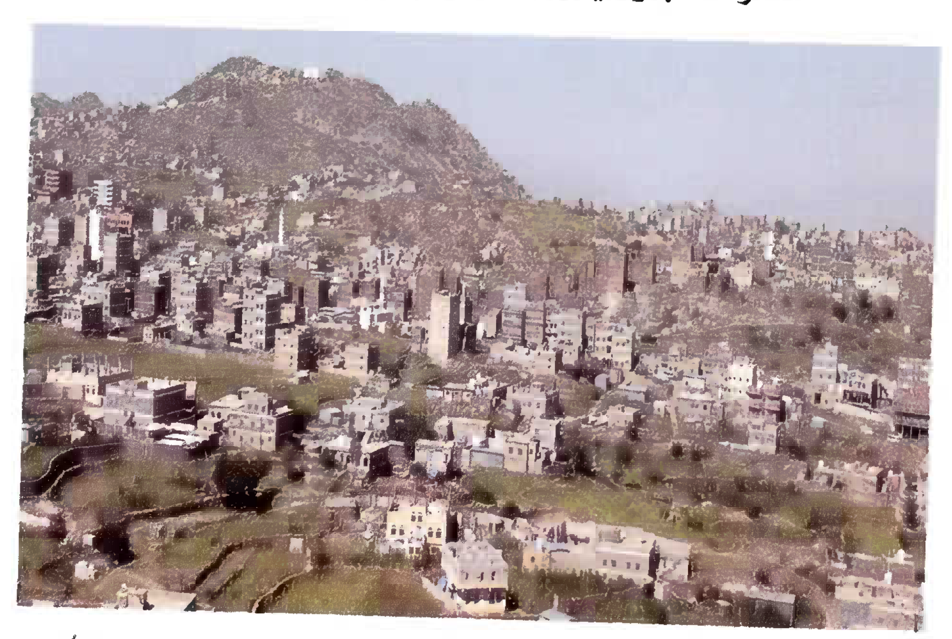
المعيان- جبل الصحراء- كلد



جبل آل علي- كلد



منظر لصانب ومحيطها من القرى والتجمعات السكانية



ذي ضِرا، حاضرة مكتب الضُّبَيّ، مع القرى المجاورة لها ويبدو جبل الخَقَب



قرية ريد - الموسطة



التوسع العمراني في نجد العياسى





المصينعة وحبيل فضل في العُمَري



معربان: النّجرة وحيد السافع



القرن – معربان



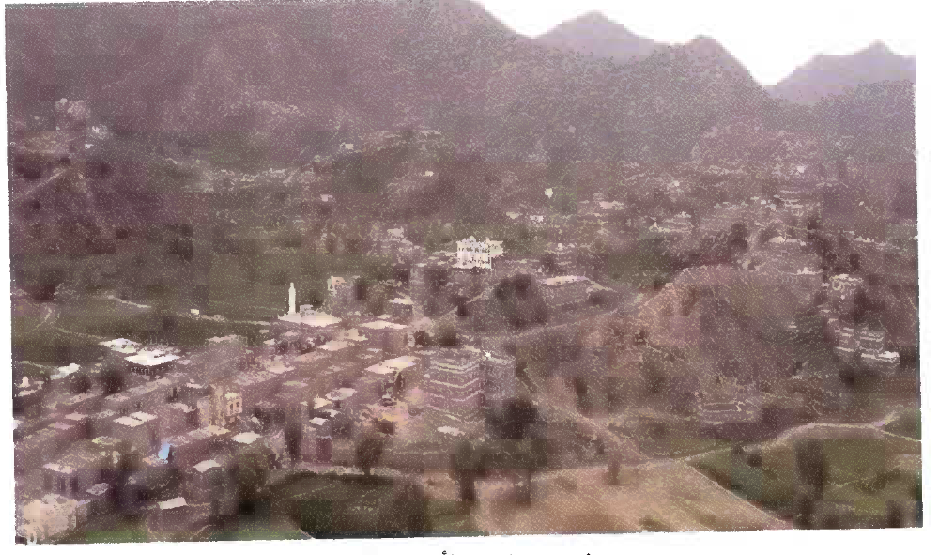
معربان – حصون في القمم



الدملئة- معربان



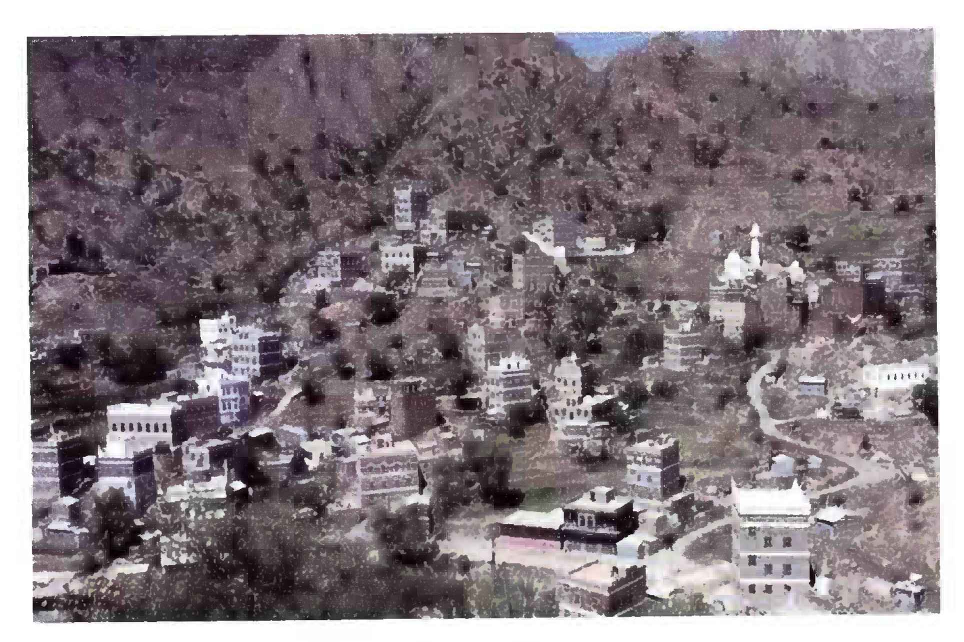
وادي بن جعفر - موطن الفنان علي صالح اليافعي



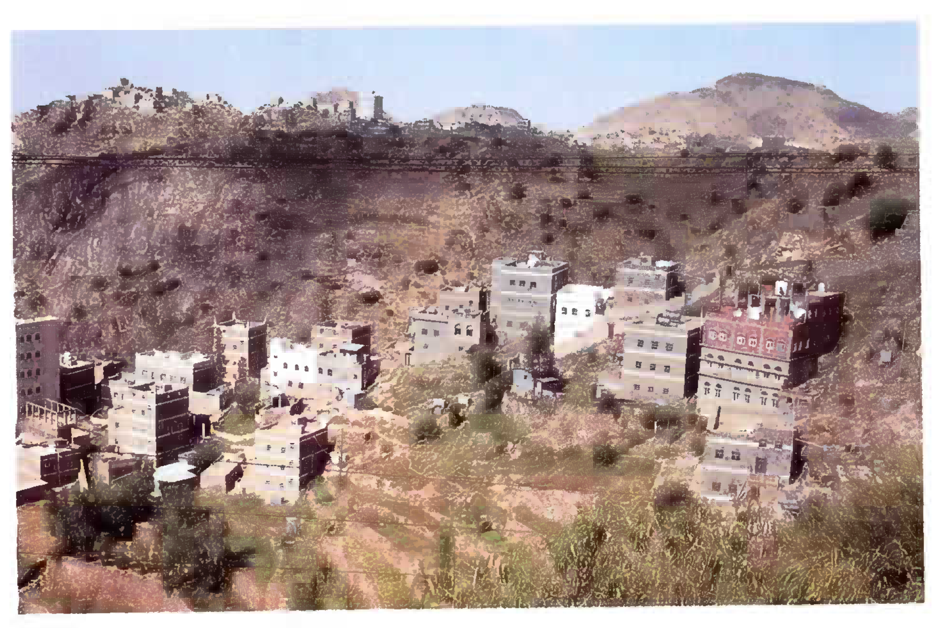
جزء من (الصّفأة) - كلد



يافع حين تغتسل بمياه الأمطار صيفا، ويلاحظ دقة نظام الري والاستفادة من مياه الأمطار



رباط السنيدي



فُحالة- العياسى، وتبدو قرية (تُبرق) في الأعلى، وفي الأفق جبل ثمر الشهير



قريۃ تُبرق- بني علسي



تحديث وأصالۃ (حُقبۃ)



الحصن- بني علسي- الموسطۃ



قرى تشمخ فوق جبال السعدي



سيُول العُطف - حطيب



إحدى قرى جبل حَبَة



قرية شَريَان – رُصْد



دار المَقدَم- جبل موفجة



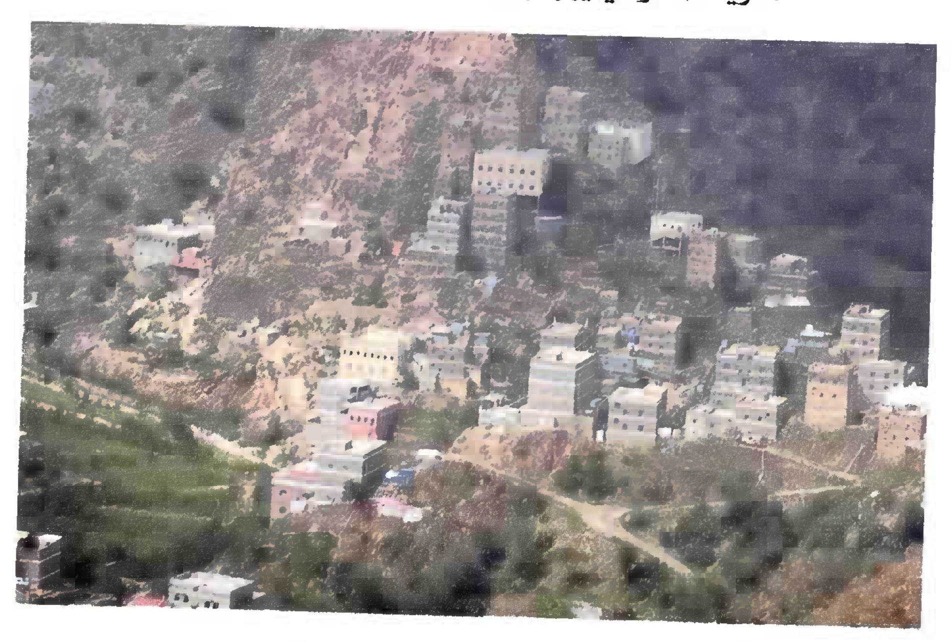
صَنَاع – الحد



حُباط – مكتب الحضارم



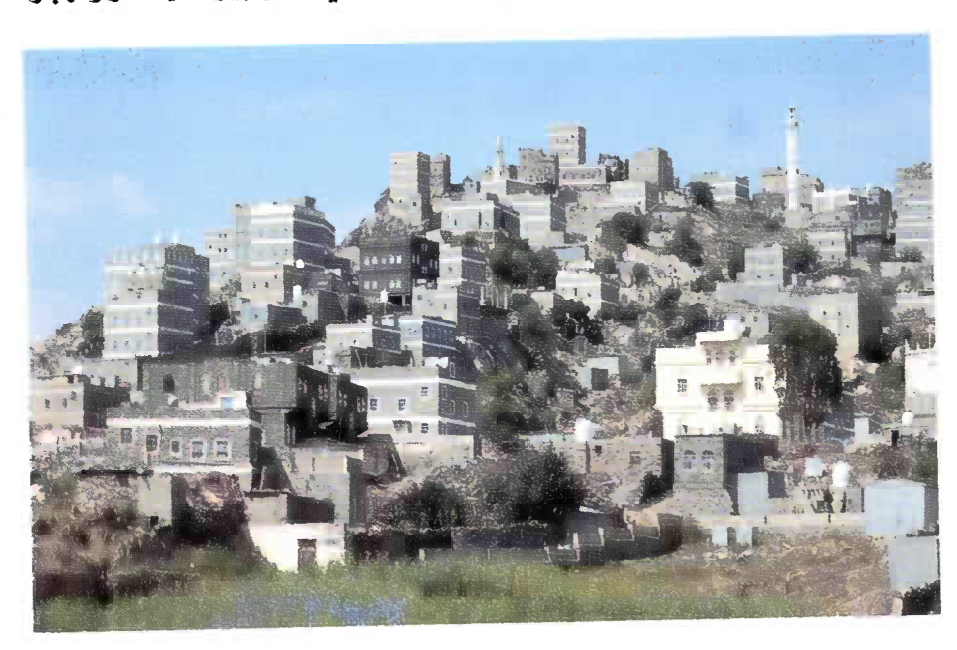
السّويداء - وادي يهر، بيوت سامقة بين بواذخ الجبال



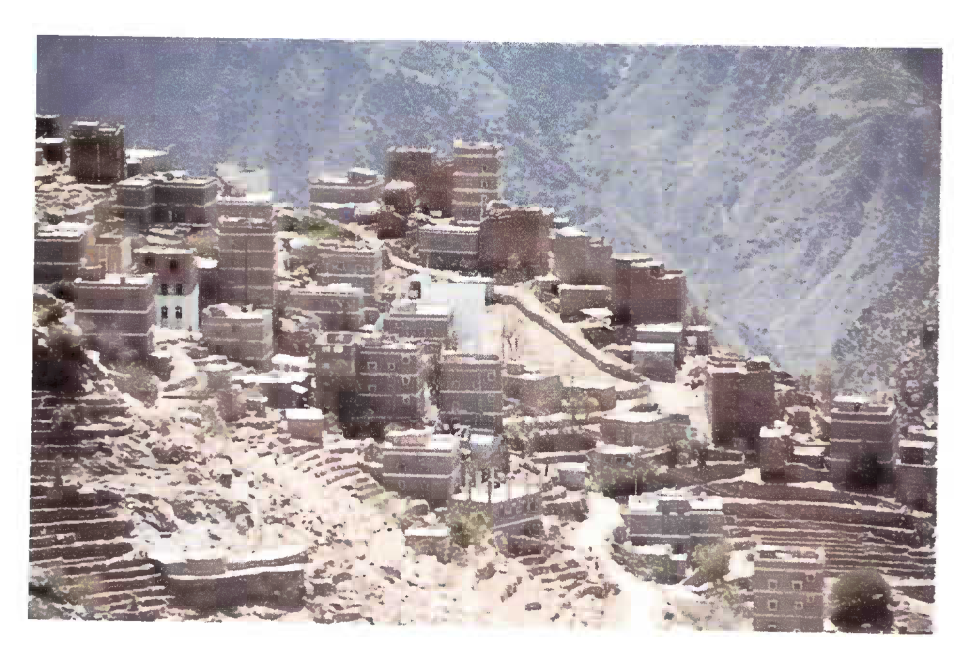
(بيت الرشيدي) التقطت من جبل اليزيدي



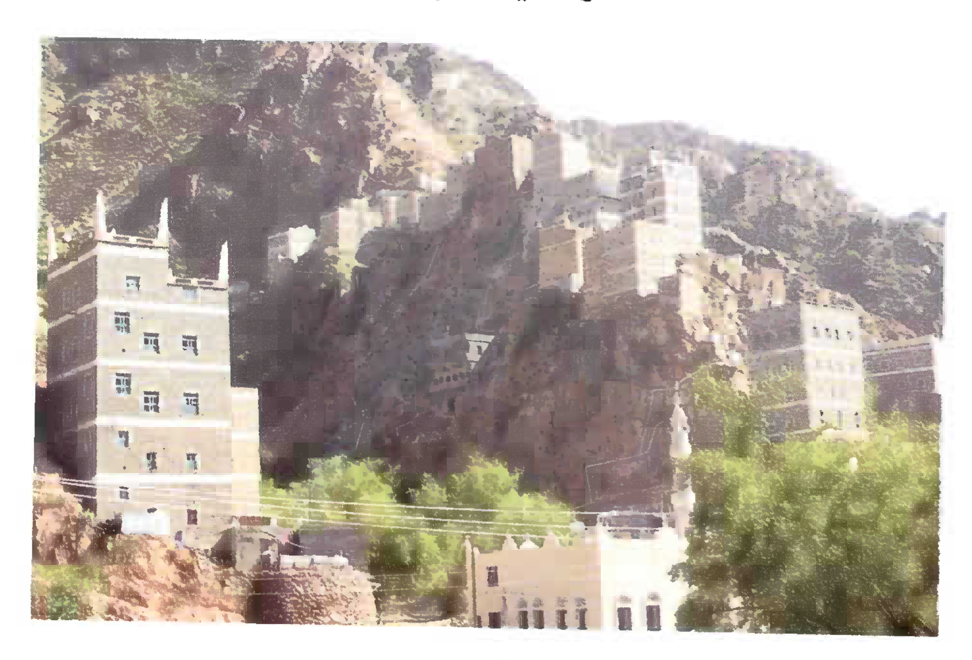
تجمعات سكانية : قِدرة وذي صُرأوالموحس، وتبدو في الأفق بيوت آل عمّر والهجر



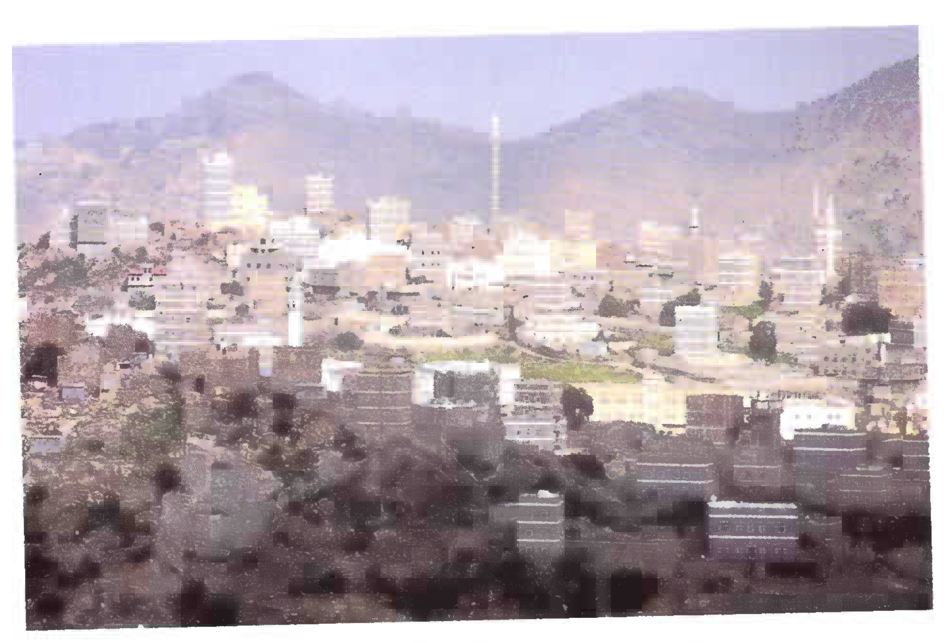
بُجان ولَقمَر آل رُشيد - الموسطة



دار السنينة - ضِيك



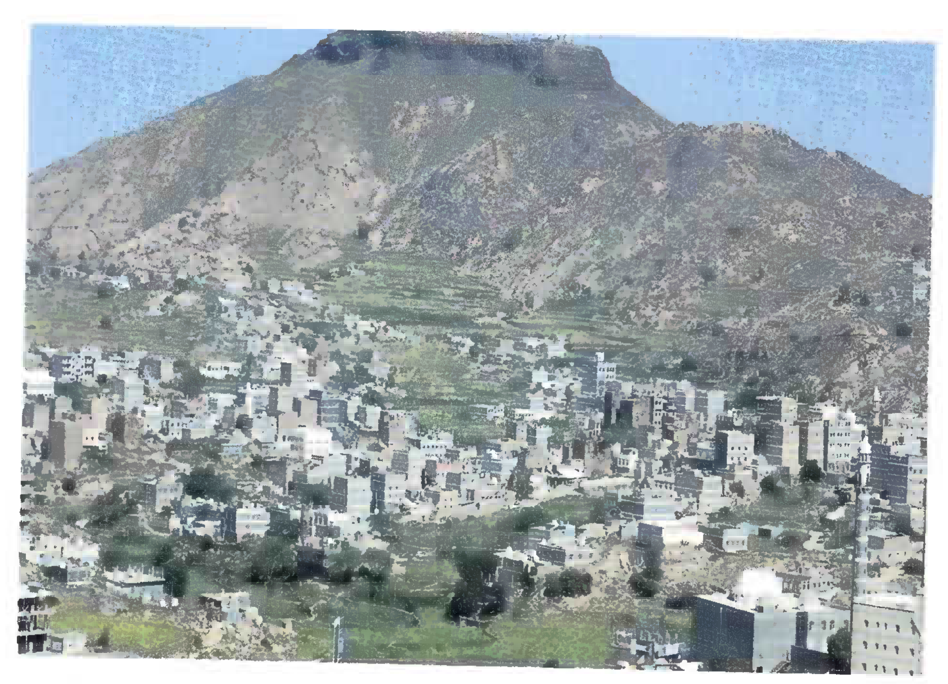
قِنداس- يهر



مجموعة قرى - الموسطة وفي الأفق يبدو جبل اليزيدي

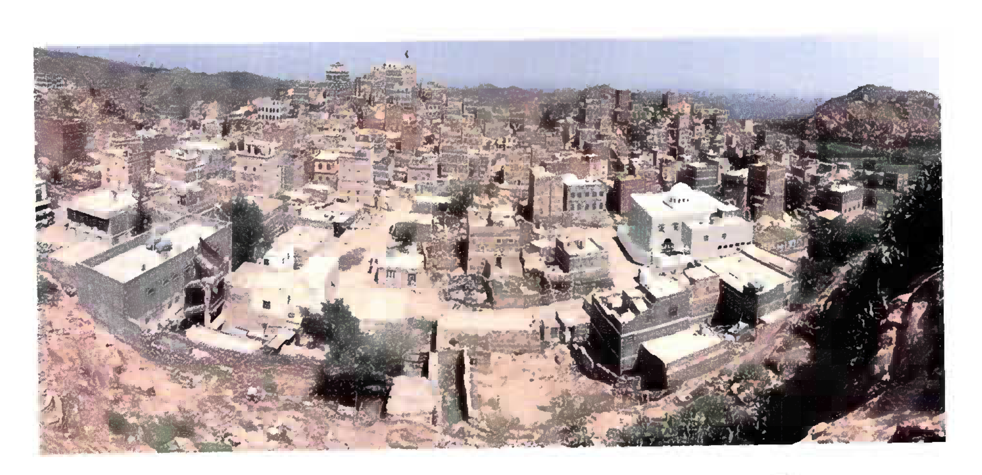


مجموعة قرى الضُّبَيّ - وتبدو عنتر بعمرانها الشاهق



قرى معلمي البناء اليافعي (آل بن صلاح) على جانبي جبل ثمر الشامخ









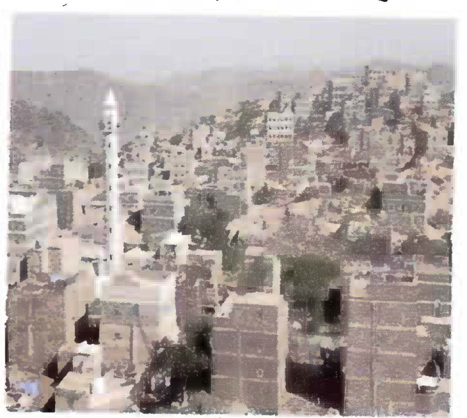
مناظر لأحياء خلاقة من جهات مختلفة



مدرسة خلاقة وتبدو قرية حِلبِد



المشاهد: حي جديد في أطراف خلاقة



مأذنة مسجد آل زُكير ومحيطها



توسع عمراني في وادي القرية والعريف



منارة مسجد الجبّانة ومحيطها



جزء من حال زُكَيْر وحال عُكِر



قرية أسطلة – وادي يهر



بيت بن عتيق- ضيك، قصور نائفة تتسلق الجبال فتطاولها شموخا



منظر من قرى الجبل الأعلى (لَعلي) -المفلحي



جزء من مدينة عثارة - المفلحي



المَحجَبة الجديدة في بطن الجبل



جزء من لقمر الرشيدي



بيوت من جَروة الجديدة



بيوت مَدوَر القديمة



منظر تبدو فيه مآذن ذي ضَرأوصانب وفي الخلف بيوت تُبرق (التقطت من قمة عنتر)



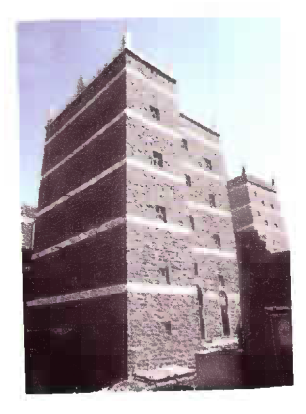
سلفة تسبح في خضرة واديها الجميل

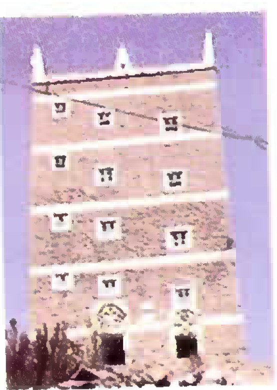


صورة لسَلفة (التقطت من جبل اليزيدي)

نماذج من الدور والقصور اليافعية بنمطها المعماري الفريد

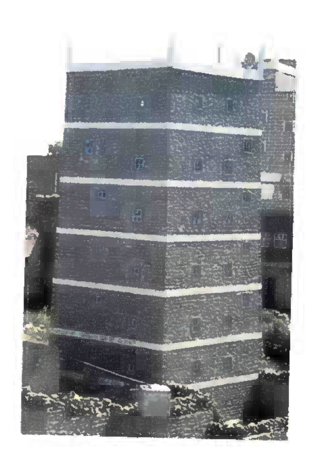




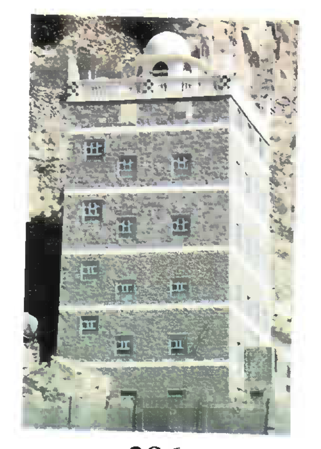





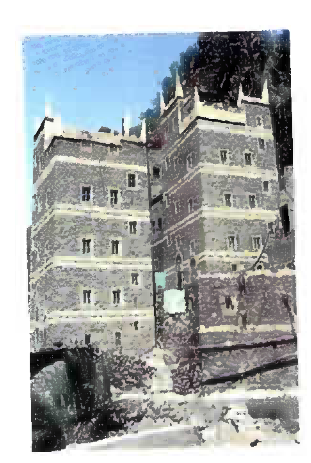


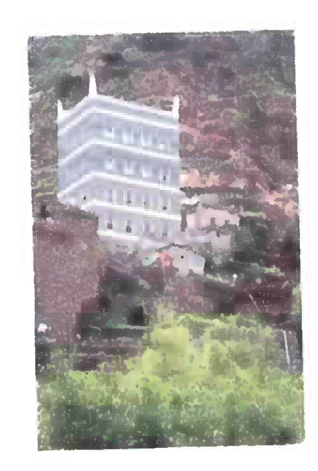



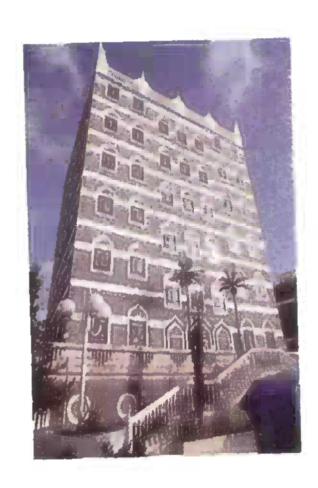






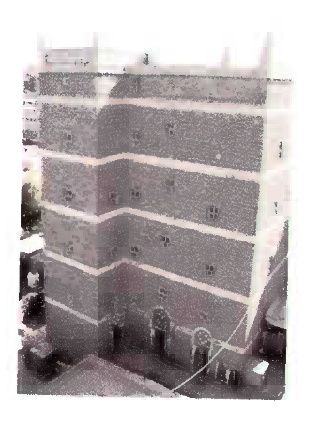
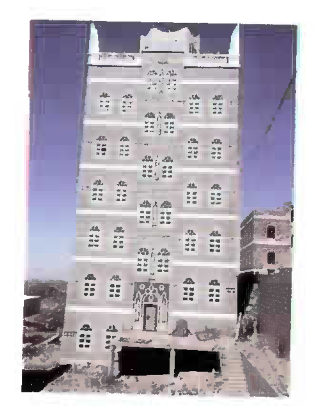









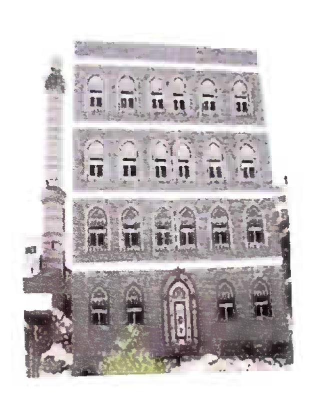


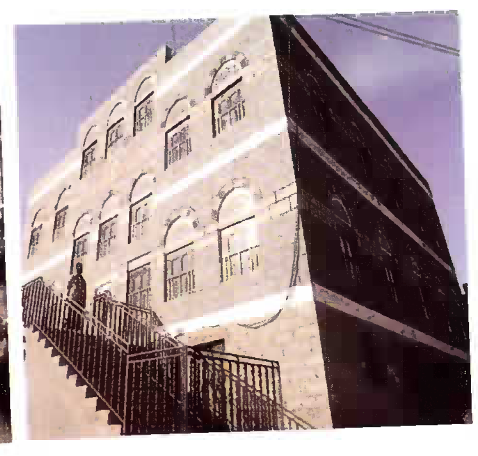




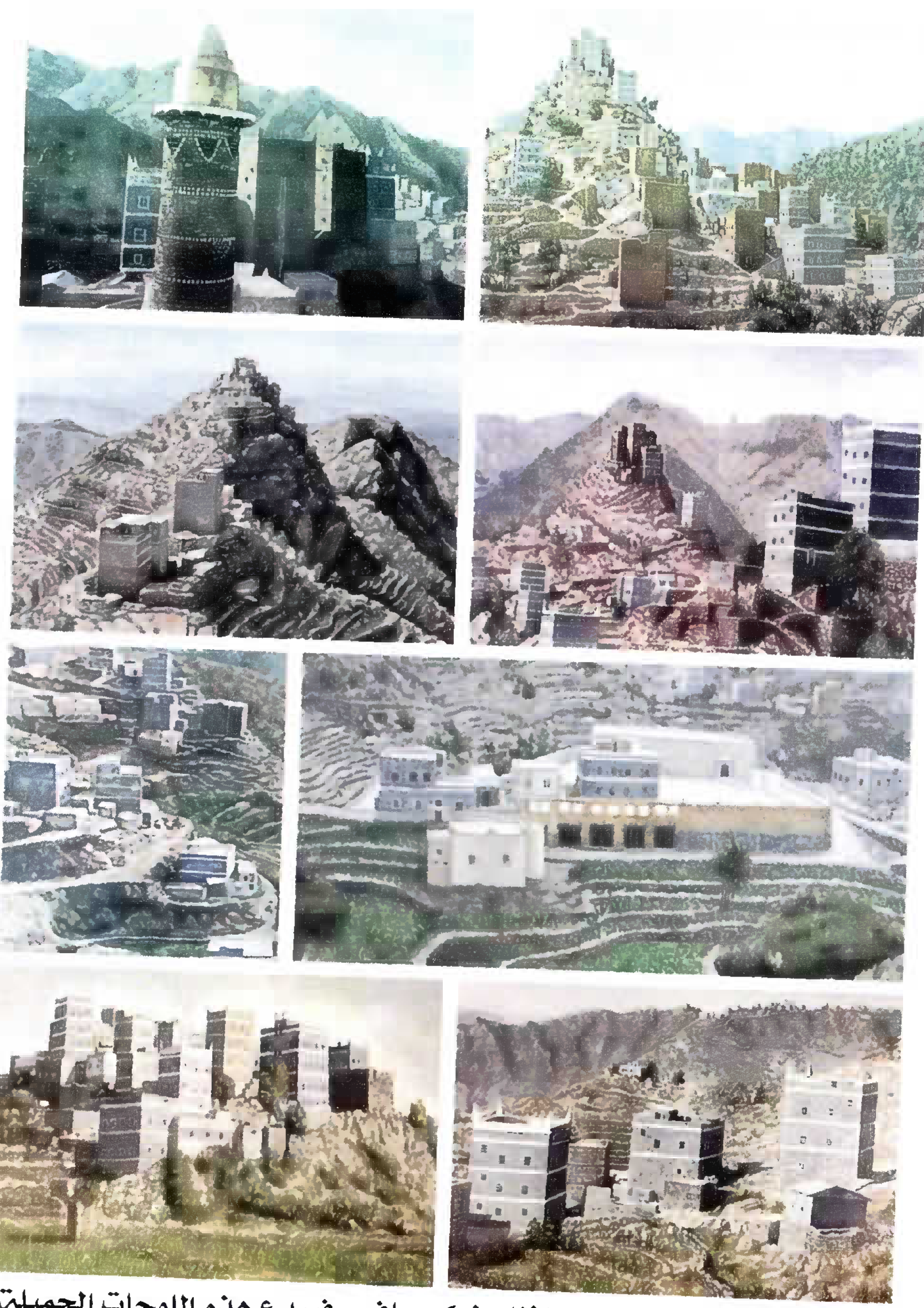










فنون العمارة اليافعية تلهم الفنان زكي يافعي فيبدع هذه اللوحات الجميلة



عبق التاريخ ينبعث من بين جدران المعمار الأصيل الذي يقاوم الزمن



بيوت جديدة تجمع بين الأصالة والحداثة




مجالس حديثة بواجهات خرساء تخلو من الزخارف والنقوش والأولاج




وواجهات ثرية بالزخارف والنقوش الجميلة والأولاج في البيوت التقليدية القديمة




مفرش مع الهدة والمطهار والزخارف

مخزّنة وأولاج




الدوجلي: مخزن في الدور الأول لحفظ الأدوات المختلفة



الهدة – سرير النوم التقليدي



ديمة تقليدية مع الدّبية والموفا




سدة البيت من الداخل مع المعلج والموسك، ويلاحظ سُمك السدة مع الألقة



الدرج مع الربان والصَّرحة



الأولاج لحفظ الأشياء



المغسال (المُطهَار)



بناء وتثبيت الشّعوبة لتصريف مياه الامطار

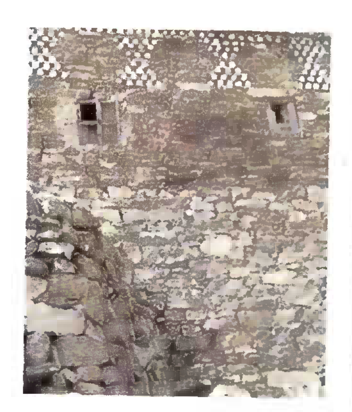


طرق المشاة مبنية بالحجارة





ضيوف وزوار يلتقطون صورا تذكارية مع العمارة اليافعية- القُدمة





نقوش من حجارة المرو البيضاء، تبدو كعقود فضية تزين خاصرة البيت اليافعي التقليدي







زخارف ونقوش خارجية حديثة جميلة

المؤلف أثناء التقاط صور الكتاب في مختلف مناطق يافع



في معقل البنائين -آل بن صلاح



في (شِعرة- كلد) وتبدو القارة في الأفق



في رحلة القارة مع الزملاء الأطباء



في مسجد النور



في قمة جبل موفجة – كلد



في القدمة



أمام دار المُقدُم- جبل السنيدي (موفجة)



في بلدة آل عياش



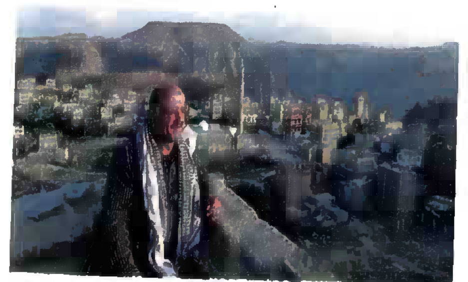
في يهر



اطلالة على نجد العياسى من جبل أحرم



في ذي صُرا القديمة



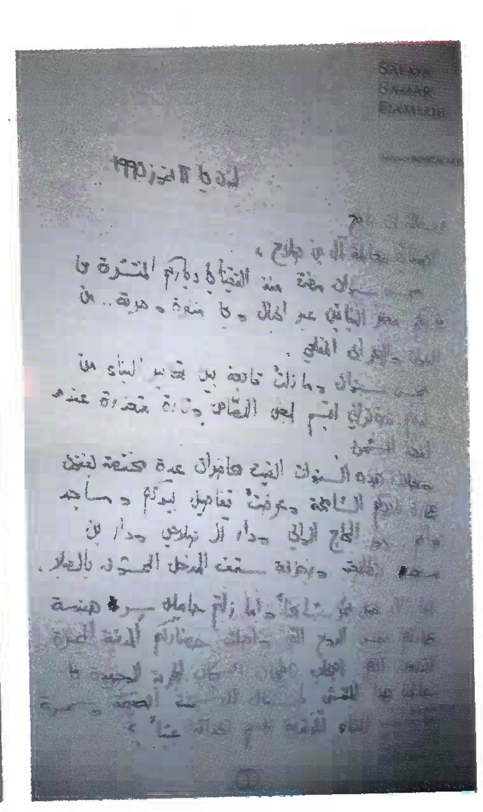
إطلالة على بني بكر

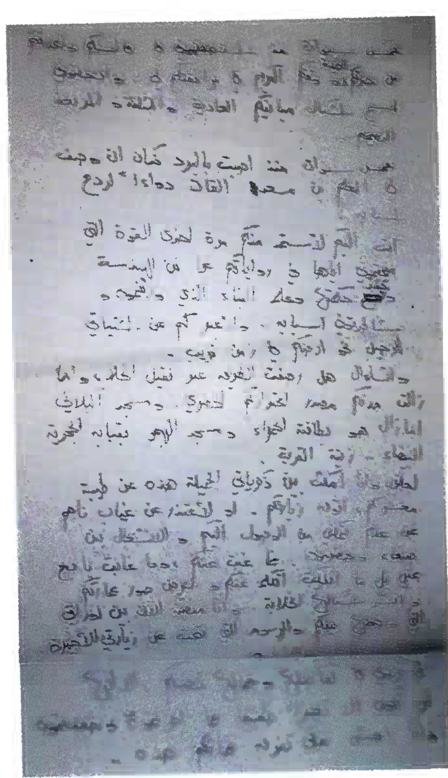


في جبل اليزيدي



في الظفر وتبدو الخربة وعبر بالسعدي





نص رسالة المهندسة المعمارية المهتمة بالعمارة الإسلامية سلمى سمر الدملوجي إلى معلمي البناء (آل بن صلاح) - وفي الاسفل منظر من قرية (السّحلّة)



نماذج من النمط المعماري اليافعي
مما شيده معلمو البناء اليافعي (ال بن صلاح) خارج يافع

من محافظة البيضاء المجاورة ليافع



حصن الوركاء - دمان - العواذل





حصون زارة القديمة - عاصمة السلطنة العوذلية

د.علي صالح الخلاقي

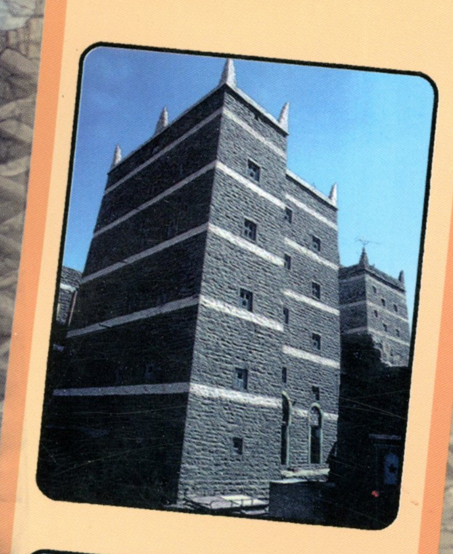


- من مواليد عام ١٩٥٦. في «خُلاقة» يافع- محافظة لحج.
- حاصل على شهادة الماجستير في الصحافة الدولية ، ١٩٩٢م. بامتياز.
- حاصل على شهادة الدكتوراة في التاريخ، ١٩٩٦م. بامتياز
- عمل في الصحافة والإعلام منذ الثمانينات، وساهم في عدد من الصحف والمجلات المحلية، وفي تقديم برامج إذاعية وتلفزيونية، أشهرها برنامج (جيش الشعب)، وسكرتيراً لتحرير (مجلة الجندي) و(صحيفة الراية).
- يعمل أستاذا للتاريخ في جامعة عدن، كلية التربية – يافع منذ عام ١٩٩٩م، وشغل رئيس قسم الاجتماعات، ثم نائباً للعميد للشئون الأكاديمية.
- كاتب وباحث ومترجم، نشرت له عدد من الدراسات والأبحاث في الصحف والمجلات والندوات العلمية في الداخل والخارج.
- عضو نشط في عدد من الجمعيات الخيرية والمنتديات الثقافية، وحصل على العديد من التكريمات والشهادات التقديرية، منها وسام الاخلاص من قبل الرئيس علي ناصر محمد عام ١٩٨٤م.
- يعكف منذ سنوات على جمع وتدوين وإصدار الموروث الشعبي - التاريخي .

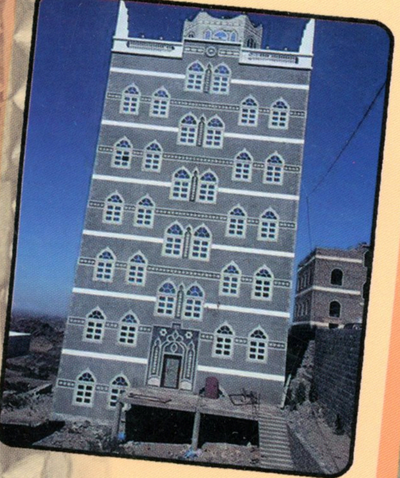
صدر له:

١- سقطرى.. هناك حيث بُعثت العنقاء. ترجمة عن اللغة الروسية، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ١٩٩٩م.
٢- عادات وتقاليد حضرموت الغربية. ترجمة عن الروسية، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ٢٠٠٢م.
٣- الشائع من أمثال يافع. الطبعة الأولى. دار جامعة عدن للطباعة والنشر ٢٠٠٢م. طبعة ثالثة منقحة ٢٠١٢م.
٤- عادات وتقاليد الزواج وأغانيه في يافع. ٢٠٠٦م.
٥- «شل العجب.. شل الدّان» ديوان يحيى عمر اليافعي وسيرة حياته، (ط١) ٢٠٠٦م، (ط ٣)٢٠١٢م.
٦- شاعر الحكمة صالح سند «خير من نشد»،٢٠٠٦م.

الفهرست







هذا الكتاب

يرمي هذا الكتاب إلى إبراز ملامح العمارة اليافعية وهويتها التقليدية وما تمثله من موروث فني أصيل وما تكتنزه من التفرد والجمال والألفة. وآثرت أن أحمل القارئ في رحلة شيقة إلى مرتفعات يافع، حيث تشمخ ناطحات السحاب الحجرية الفريدة في العالم، وحيث العمارة الحجرية موحدة الطابع، متشابهة الروح، وإشراكه معي في ارتشاف المتعة التي أثملني رحيقها في عناصر ومواطن الجمال في هذا المعمار، والغوص في مفرداته وتفاصيله وأسراره، وكذا لفت الانتباه لأهمية الحفاظ على هذا الطراز الأصيل والفريد في العالم، والتحذير من المخاطر التي بدأت تهدده، قبل فوات الأوان، حتى لا نفقد هويتنا المعمارية وبالتالي تفقد البشرية جزءاً متميزاً من تراثها العمراني وذاكرتها الحسية المشتركة.

علي صالح الخلاقي

